اعتمدت وزارة المعارف العمومية الطبعة الأولى من هذا الكتاب

الفخري

في

الآداب السلطانية والدول الإسلامية

تأليف

محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطق

راجعه ونقحه

محمد عوض إبراهيم بك — وكيل وزارة المعارف المساعد
و
على الجارم بك — المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

الطبعة الثانية

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

فهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله مُسَبِّبِ الأسباب، ومُفتِّحِ الأبواب. مقدِّرِ الأمور ومدبّر الدهور. واجبِ الوجود، وخالِق الأخلاق والجود. مُفيضِ العقل، وواهب الكلّ. اقرُّ أنّه المالكُ الوجودِ مملوكاً لعظمته، وأشهد أنّه الفاطرُ وأنّ الغيب غيرُ مستورٍ لحكمته. وأعوذ بجلال عزِّه من ذُلِّ الحجاب، وبفضل جوده من نقاشِ الحساب، وبخافى علمِه ممّا فى الكِتاب من العذاب، وأصلّى على النفوسِ العَلويَّة المطهَّرةِ من الأدناس، وعلى الأجسامِ الأرضيَّةِ المنزّهةِ عن الأرجاس. وأَخُصُّ من بينهم بأفضل الصلواتِ الزاكيات، وأكملِ التحيّات الناميات، مَنْ نادَى والألسنُ حِداد، وأرشد والأكبادُ غِلاظٌ والقلوبُ جِلاد، محمداً النبىَّ الأمىَّ ذا التأييدات الإلهية، والتأكيدات الجلالية، وآله الطيبين وأصحابه الصالحين الذين كانوا صدّقوه وقد أُرسِل، ونصروه وقد خُذِل. ما سَمَح جَواد، ووَرَى زِناد.

وبعدُ، فإنّ أفضلَ ما نظر فيه خواصُّ الملوك، وسلكوا إليه أفضلَ السُلوك، بعدَ نظرهم فى أمر الأمة، وقيامِهم فيما استُودِعوه بالحجة، هو النظر فى العلوم، والإقبالُ على الكتب التى صدرت عن شرائف الفهوم. فأمّا فضيلةُ العلم فظاهرةٌ ظهورَ الشمس. عَرِيَّةٌ من الشكِّ واللبس. فمما جاء من ذلك فى التنزيل قولهُ تعالى: هَلْ يَسْتَوِى الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِين لاَ يَعْلَمُونَ. وممّا جاء فى الحديث (صلواتُ الله وسلامُه على مَنْ نُسِبَ إليه): إنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها لطالب العلم.

وأمّا فضيلةُ الكُتُب فقد قالوا: إنّ الكتابَ هو الجليس الذى لا ينافق، ولا يَمَلُّ، ولا يعاتبك إذا جفوته. ولا يُفشِى سرَّك. وقال المهلّب لِبَنيه:

يا بَنِىَّ ! إذا وقفتم فى الأسواق فلا تقفوا إلاّ عَلَى مَنْ يبيع السِلاح ، أو يبيع الكُتب .

وكان الفتح بنُ خاقانَ إذا كان جالساً فى حضرة المتوكل ، وأراد أن يقوم إلَى المُتَوَضَّأ ، أخرج من ساق مَوْزَته(١) كتاباً لطيفاً ، فلا يزال يطالعه فى ممرِّه وعَوْدِه ، فإذا وصل إلى الحضرة الخليفيّة أعاده إلَى ساق موزته .

أرسل بعضُ الخلفاء فى طلب بعض العلماء ليُسامرَه ، فلما جاء الخادم إليه وجده جالساً وحَواليْهِ كُتُبٌ ، وهو يطالع فيها . فقال : له إنّ أميرَ المؤمنين يستدعيك . قال : قل له : عندى قوم من الحكماء أُحادثهم ، فاذا فرغتُ منهم حضرت . فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك ، قال له وَيْحَكَ ! مَنْ هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد! قال : فأحْضِره الساعةَ كيف كان . فلمّا حضر ذلك العالِمُ قال له الخليفة : مَنْ هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! (طويل)

لنا جُلَساءُ ما نَمَلُّ حديثَهمْ ... أمينون مأمونون غَيْباً وَمشْهدا

يُفيدوننا من علمهم عِلْمَ ما مضى ... ورأياً وتأديباً ومجداً وسُؤْدُدا

فان قلتَ : أمواتٌ . فلم تَعْدُ أمرَهم ... وإن قلت : أحياءٌ . فلستَ مُفَنَّدا

فعلِم الخليفة أنّه يشير بذلك إلى الكُتُب ، ولم يُنكر عليه تأخُّرَه .

وقال الجاحظ : دخلتُ على محمدِ بن إسحاقَ أمير بغدادَ ، فى أيام ولايتِه ، وهو جالسٌ فى الدِيوان ، والناسُ مُثُولٌ بينَ يدَيْه ، كأنّ على رءوسهم الطيرُ ، ثم دخلتُ إليه بعد مدّة وهو معزولٌ ، وهو جالس فى خِزانة كتبه ، وحواليْهِ الكتبُ والدفاترُ والمحابرُ والمساطرُ ، فما رأيتُه أهْيَبَ منه فى تلك الحال !

(١) الموزة : ضرب من النعال يلبس فى حذاء حتى لا يتسخ ، ونسميه الآن المزّ

وقال المتنبي : (طويل)

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

والعلم يَزِين الملوكَ أكثرَ مما يَزِين السُّوقةَ ، وإذا كان الملك عالماً صار العالم ملكاً . وأصلحُ ما نظر فيه الملوكُ ما اشتمل على الآداب السلطانية ، والسير التاريخية المطويّة على ظرائف الأخبار ، وعجائب الآثار . على أن الوزراء كانوا قديماً يكرهون أنّ الملوكَ يقفون على شيء من السِيَر والتواريخ ، خوفاً أنْ يتفطّنَ الملوكُ إلى أشياء لا يحب الوزراء أنْ يتفطّن لها الملوكُ .

طلب المكتفي من وزيره كتباً يلهو بها ، ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدّم الوزير إلى النواب بتحصيل ذلك ، وعرضِه عليه قبل حَمْلِه إلى الخليفة ، فحصّلوا شيئاً من كتب التاريخ ، وفيها شيء مما جرَى في الأيام السالفة من وقائع الملوكِ ، وأخبارِ الوزراء ، ومعرفةِ التحيُّلِ في استخراج الأموال . فلما رآه الوزير ، قال لنوابه : والله إنكم أشدُّ الناس عداوةً لي . أنا قلتُ لكم : حصِّلوا لهُ كتباً يلهو بها ، ويشتغل بها عنّي وعن غيري ، فقد حصّلتم له ما يُعَرِّفُه مصارعَ الوزراء ، ويُوجِدُه الطريقَ إلى استخراج المال ، ويعرّفه خرابَ البلاد من عِمارتها ! ردُّوها ، وحصِّلوا له كتباً فيها حكاياتٌ تُلْهيه ، وأشعار تُطربه[1] .

وكانوا يكرهون أيضاً أنْ يكون في الخلفاء والملوك فطانةٌ ومعرفة بالأمور .

لمّا مات المكتفي ، عزم وزيره على مبايعة عبدِ الله بنِ المعتزّ ، وكان عبد الله فاضلاً لبيباً محصِّلاً ، فخلا به بعضُ عقلاء الكُتَّاب وقال له : أيُّهذا الوزير ! هذا الرأي الذي قد رأيتَه في مبايعة ابن المعتزّ ليس بصواب . قال الوزير : كيف ذلك ؟ قال : أيُّ حاجة لك أنْ تُجلسَ على سرير الخلافة مَنْ يعرفُ الذراع والميزان والأسعار ،

(١) لعلها تطربه بالياء أي تبالغ في مدحه على أن المعنى مستقيم مع استعمال تطربه

ويفهمُ الأمور ، ويعرفُ القبيح من الحسن ويعرف دارك وبستانك وضَيْعتك ؟ الرأىُ أن تجلِسَ صبياً صغيراً ، فيكونَ اسم الخلافة له ومعناها لك ، فتربيه إلى أن يكبَرَ ، فاذا كبِر عرف لك حق التربية ، وتكونُ أنت قد قضيت أوطارك مدة صِغَره . فشكره الوزير على ذلك ، وعدل عن عبد الله بن المعتزّ إلى المقتدِر ، وعمرُه يومئذ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً .

وكان بدرُ الدين لؤلؤُ صاحبُ المَوْصِل (رحمه الله) أكثرَ ما يجرى فى مجلس أنسه إيرادُ الأشعار المطربة ، والحكاياتِ الملْهية . فاذا دخل شهر رمضانَ أُحضِرت له كتبُ التواريخ والسِيَرِ ، وجلس الزَيْنُ الكاتبُ وعزُّ الدين المحدِّثُ يقرأان عليه أحوال العالَم .

وهذا التقرير يستدعى شرحَ حال ، وذلك أنّى حين أحلّنى حُكْمُ القضاء بالمَوْصِل الحَدْباء حللتُها غير متعرِّضٍ لو بْلها أو طلِّها ، ودخلتها كما قال عزَّ مِنْ قائل : وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا . وكنت بنيت عزمى على المُقام فيها بقدر ما ينكسرُ البَرْدُ ، ويثقل البرد(١) . ثم التوجّهِ بعد ذلك إلى تبريز ، فحين استقررْتُ بالمَوْصِل بلغنى من عدّة جهات مختلفة ، ومن ذوى آراء غير مؤتلفة ، غزارةُ فضل صاحبها الأعظمِ ، المولى المخدومِ الملكِ المعظّم ، أفضلِ الملوك وأعظمِهم ، وأكرمِ الحكام وأحلمِهم ، فخر الملة والدين المنوحِ بخصائصَ لو كانت للدهر لما شكا صَرْفه حُرّ ، ولما مسّ أحداً منه ضُرّ . ولو كانت للبحر لما كان ماؤه مِلحاً أجاجاً ، ولا خاف راكبه منه أمواجاً . ولو ظفِرت بها الأقمار ، لما لحِقها السَرار . عيسى الذى أحيا ميّتَ الفضائل ، ونشر طىَّ الفواضل ، وأقام سوق المكارم فى عصر كسدت فيه

(١) هكذا بالأصل ، ولا معنى له . ولعلها ويقل البرد (بضم فسكون) وهو كساء يلتحف به ، ومعنى قلة البرد التقليل من الملابس لذهاب شدة الشتاء

سوقها ، وأنهض مُقْعَدات المحاسن بعد ما عجزت عن حمل أجسامها سوقُها ، وذبَّ عن الأحرار فى زمان هم فيه أقلُّ من القليل ، وملا أيديهم من عطائه بأياد واضحة الغُرّة والتحجيل ، وأفاء عليهم ظلَّ رأفة لا يتنقّل ، وخفض لهم جَناحَ رحمة فما يَنِى يتفضّل عليهم ويتطوّل ، كلما ازداد دولةً وتمكيناً . زاد تواضعاً ولينا ، وكلما بلغ من الملك غاية ، رفع للكرم راية ، ابن ابراهيم أعزَّ الله نصره ، وأنفذ نهيه وأمره ، الذى أنسَى ذِكْرَ الأجواد ، ورزانة الأطواد ، وشجاعةَ الآساد . (كامل)

للشمسِ فيه وللرياحِ وللسحا ب وللبحارِ وللاسودِ شَمائلُ

الذى هو فى جبهةَ هذا الدهر غُرّه ، وفى قِلادته دُرّه لا تدانيها فى الدنيا دُرّه ، الذى صدّق أخبارَ الماضين ، وحقق ما نُسِخ من مآثر الأوّلين .

وقد قال ابنُ الرومىّ (طويل)

أظنُّ بأنّ الدهرَ ما زال هكذا وأنّ حديثَ الجودِ ليس له أصْلُ

وَهَبْ أنه كان الكرامُ كما حَكَوْا أما كان فيهم واحدٌ وله نَسْلُ ؟

فلو شاهده لصدّق ما سمِع من أخبار أهل الكرم ، ولما اختلجت بين جنبيه عوارض التهم . الحاكم الذى إذا سلّط ذهنَه الشريفَ ، وفكره اللطيف ، على القضايا الديوانية ، والأمورِ السلطانية ، ذلّت له الصِعابُ ، ولانت له الصُمُّ الصِلاب . وظهرت له الخفايا ، وتعذّر أن يقال فى الزوايا خبايا .

أما قوة العدلِ عنده فسليمة ، قواعدها لديه قويمة ، فلا تُجزْ عَنْكَ هيبتُه المرهوبة فإن وراءها رأفةً بالضعيف ، ورقةً على الفقير ، وجَبْراً للكسير . (كامل)

وله من الصَفْحِ الجميلِ عوائدٌ اسِرَ الطليقُ بها وفُكَّ العانى

ولقد حضرتُ يوماً مجلسه الرفيعَ وكان يومَ غيث ، وقد تقدّم بصيانة الباب ، فلما كثُر الغيث ، قال للحُجّاب : من حضر البابَ وله حاجة فعرّفونا بها . ثم قال :

إنّ أحداً لا يحضُر فى مثل هذا الوقت إلا لضرورة ، ولا يجوز أن يُردَّ خائباً .
فبالله هل يأتى فى هذا الكتاب الذى يريد أن يكون مشتملا على محاسن الآثار إلّا ما هو من جنس هذه الحكاية ؟

وأما قوّةُ السياسة عنده فعظيمة ، لم تعترضها هَضِيمة ، فلا تغرّنّك رقتُه وابتسامُه ، فإنّ وراء ذلك صَرامةً يخضع لها الأسود ، وشهامةً يحذرها السيِّد والمَسُود (طويل)

هو البحرُ غُصْ فيه إذا كان ساكناً على الدرّ ، واحذَرْهُ إذا كان مُزْبِداً

وأما قوّةُ الذكاء والتيقظُ فهو فيها كما قال المتنبي : (منسرح)

تعرِفُ فى عينِه حقيقتَهُ كأنّه بالذكاء مُكتحِلُ
أُشفِقُ عند اتقّادِ فكرتِه عليه منها ، أخافُ يشتعلُ

وأما قوّةُ العقلِ الغزيرِ ، والتميز الصحيح ، فانّى لأَظنُّ أنّ عقلاء الملوك الماضين لو عاشوا وشاهدوه لتعلموا منه كيف يُساس الجمهور ، وكيف تُدبَّر الأمور .

وأما قوّةُ الكرم الذى تجاوزَ الحدَّ وخرَج ، فحدِّثْ عن البحر ولا حرَجَ ، فلو عاش الكرام الذين ضُربت بهم الأمثال ، وعُدِمَتْ لهم النُظَراء والأمثال ، لتعلّموا منه غوامضَ الكرم ، ولتلقفوا منه محاسنَ الشِيَم . ولو أنصفتُ لتركتُ وصفَ هذه القوةِ من قواه عجزاً عن الإحاطة بكُنْه وصفها ، وقصوراً عن القيام بواجب وَصْفها ، ولكنى أقول بحسب الجُهد والطاقة : إنّ احتقارَه للدنيا احتقارُ الأولياء ، واستصغارَه لها استصغارُ الزُهّاد .

فلو جاد بالدنيا وثنّى بضِعْفها لَظَنَّ مِنَ استصغاره أنه ضنّا

يُعطى عطاءَ من يُبقِى الذِكْرَ ويُحييه . ويُنْفِدُ المالَ ويُفنيه (طويل)

أعاذلُ إنّ الجودَ ليس بمهلكى ولا يُخلِدُ النفسَ الشحيحةَ لؤمُها

وتُذْكَرُ أخلاقُ الفتى وعظامُه   مغيبةٌ فى التُرْبِ بالٍ رميمُها

بهمة نالت السماء ، وجاوزت الجَوْزاء . ومِنْ هناك حصل له الأُنْسُ بعلم النجوم ، فانه أخذ علمها بالارتقاء إليها والاقتراب ، لا بالحساب والأصطرلاب . بلغ السماء عُلواً فشافهته بأسرارها كواكبها ، وفرع الأفلاك سُمُواً فحدثته بأخبارها مشارقُها ومغاربُها .

(طويل)

له هِمَمٌ لا منتهى لكِبارِها   وهِمّتُهُ الصغرى أجلُّ مِنَ الدهرِ

لا تستقرُّ فى خزائنه نفائسُ أمواله، وليس لها بيتٌ يحفظها سوى بيوتِ سُؤّاله

(بسيط)

إنّا إذا اجتمعتْ يوماً دراهمُنا   ظلّتْ إلى طُرُقِ العَلْياء تستبقُ

لا يألفُ الدرهمُ المنقوشُ صُرّتَنا   لكنْ يَمُرُّ عليها وهو منطلقُ

لا يفعل السُكْرُ فى كرمه . إلاّ كما يفعلُ الصَحْوُ فى إمطار دِيَمه . (طويل)

يعيد عطايا سُكْرِه عندَ صَحْوِهِ   ليُعْلِمَ أنّ الجود منه على عِلْمِ

ويَسْلَمَ فى الإِحسانِ من قولِ قائلٍ   تكرّمَ لمّا خامرته ابنةُ الكَرْمِ

ومن أسرارِ كَرَمه أنه مُنَزّهٌ عن التبذير . وإن كان أكثرَ من الكثير . لأنّه موضوع فى أجلِّ مواضعِه . وواقعٌ فى أفضل مواقعه . فمتى تعرّض آمل ، أو عَنّ سائل . بادر إلى إرفاده ، مبادرةَ السيل إلى وهاده .

(كامل)

عشِقَ المكارمَ فاستهام بذكرها   والمُكْرُماتُ قليلةُ العُشّاقِ

وأقام سوقاً للثناء ، ولم تكن   سوقُ الثناءِ تُعدُّ فى الأسواق

فاذكر صنائعَهُ فلسنَ صنائعا   لكنّهُنّ قلائدُ الأعناق

والثمْ أناملَهُ فلسنَ أناملا   لكنّهُنّ مفاتحُ الأرزاق

وكأنى بك أيها الناظرُ فى هذا الكتاب قد استعظمتَ ما سمعتَ ، فإن عرض لك الشكُّ فانظر أعيان هذا العصر ، تجدْهم يناقشون على الذرَّة . وتجدْه لا يلتفت إلى الدُرّة . وتجدْهم يحرِصون على اقتناء الذخائر . وتجدْه لا يحرِص إلاَّ على الذِكْر السائر ، والصِيتِ الطائر . وتجدْهم قد شغفتهم محبة الاولاد ، وتجدْه قد شغفته محبّةُ السُؤَّال والقُصَّاد ، وتجدْهم يهرُبُون من المغارم ، وتجدْه يعدُّها من أفضل المغانم . ثم ارجِع البصرَ تجدْ المدائح عندهم كاسدة ، وتجدْها عنده نافقة ، وتأملْ تُبْصِرْ المكارمَ لديهم جامدة ، وتُبصِرْها لديه دافقة ، وانظر بابه تجدْه عامراً بوفود الثناء ، غاصًّا بالادباء والشعراء والفضلاء والفصحاء . (خفيف)

يسقُطُ الطيرُ حيث يُلْتقط الحَـــبُّ وتغشَى منازلُ الكُرَماء

وتالله ما الدنيا إلاَّ دنياه ، ولا العيش إلاَّ عيشُه الذى أعطاه الله (كامل)

ما العيشُ أن يُمْسِى الفتى متشبِّعًا ضَخْمَ الجُزارةْ
العيشُ أن يُشْجِى الفتى أعداءه ويُعِزَّ جاره
حتى يُخَـــافَ ويُرتجَى ويُرى له نَشَبٌ وشاره
ويروحَ إمّا للكتا بةِ سعيُهُ أو للإمارة

رجعنا إلى حكاية الحال ، وإتمام المقال : فَلَفَّقَتِ المقاديرُ أنْ جرى ذِكرى بين يديْه ، وعُرِض شىءٌ من أمرى عليه ، فلمَح بذكاء قلبه ، وصحة حَدْسه من تلك الأنباء حقيقةَ حالى قبل اللقاء ، وتقدَّم بالحضورِ فى خدمته . فلما حضرت راعنى ما شاهدتُ من كمال هيئته ، وراقنى ما عاينتُ من جمال صورته ، وشريف سيرته . فكان أولَ ما أنشدتُهُ قولُ المتنبي (طويل)

وما زلتُ حتى قادنى الشوقُ نحوَهُ يسايرنى فى كلِّ رَكْبٍ له ذِكْرُ
وأستعظِمُ الاخبارَ قبلَ لِقائه فلمّا التقينا صغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ

ثم تابع من ألطافه ما غرس به وُدّا ، وجنى منه ثناءً وحمْداً . فرأيتُ أنْ أخدُمَ حضرتَه بتأليف هذا الكتاب ، ليكونَ تذكِرة له ، وتذكِرة لى عنده ، يذكرنى به إذا غبْتُ عن عالى جنابه . وانفصلتُ عن فسيح رِحابه .

وهذا كتابٌ تكلمتُ فيهِ على أحوال الدول وأمور الملك ، وذكرت فيهِ ما استظرفْتُهُ من أحوال الملوك الفضلاء ، واستقريتهُ من سِيَر الخلفاء والوزراء ، وبنيتهُ على فصلين : —

فالفصلُ الأول تكلمتُ فيهِ على الأمور السلطانية ، والسياسات المَلَكية ، وخواصِّ المَلِك التى يتميَّز بها عن السُوقة ، والتى تجب أن تكونَ موجودةً أومعدومة فيه ، وما يجب له على رعيَّته وما يجب لهم عليهِ ، ورصَّعتُ الكلام فيه بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والحكايات المستظرَفة والأشعار المستحسَنة .

والفصل الثانى : تكلمتُ فيهِ على دَوْلةٍ دوْلةٍ من مشاهير الدول التى كانت طاعتها عامَّة ، ومحاسنُها تامَّة . ابتدأتُ فيهِ بدولة الأربعة : أبى بكر وعمرَ وعثمانَ وعلىّ (رضى الله عنهم) على الترتيب الذى وقع . ثم بالدولة التى تسلَّمتِ الملكَ منها ، وهى الدولة الأمويَّة ، ثم بالدولة التى تسلَّمتِ الملكَ منها ، وهى الدولة العبَّاسية ، ثم بالدول التى وقعت فى أثناء الدول الكِبار ، كدولة بنى بُوَيْه ، وكدولة بنى سَلْجوق ، وكدولة الفاطميّين بمصر على وجه الإيجاز ، فإنها دولٌ وقعت فى أثناء دولة بنى العباس ، ولكنَّها لم تكن طاعتها عامَّة . فأتكلَّمُ على دولةٍ دولةٍ بمجموع ما حصل فى ذهنى من الهيئة الاجتماعية التى أفادتنيها مطالعةُ السِّيَر والتواريخ ، فأذكرُ كيف كان ابتداؤها وانتهاؤها ، وطَرَفاً مُمْتِعاً من محاسن ملوكها ، وأخبارِ سلاطينها ، فإنْ شذَّ شىء من أحوالها عن ذهنى ، واحتجتُ إلى إثباته من حكاية ظريفة ، أو بيتِ شعرٍ نادر ، أو آية ، أوحديث نبوىّ ، أخذتُه من مَظانّه . ثم إذا

ذكرتُ دولةً فدولةً تكلمتُ على كليّات أمورِها . ثم ذكرتُ واحداً واحداً من ملوكها ، وما جرى فى أيامه من الوقائع المشهورة ، والحوادث المأثورة . فإذا انقضت أيامُ ذلك الملكِ ذكرتُ وزرائه واحداً واحداً ، وظرائفَ ما جرى لهم . فإذا انقضت أيامُ الملكِ ووزرائه ، ابتدأتُ بالملك الذى بعدَه ، وبما جرى فى أيامه ، وبسِيَرِ وزرائه كذلك ، إلى آخِرِ الدولة العباسيّة .

والتزمتُ فيه أمرين . أحدُهما : ألاّ أميلَ فيه إلاّ مع الحق ، ولا أنطقَ فيه إلّا بالعدل ، وأنْ أعزلَ سلطانَ الهوى ، وأخرجَ من حكمِ المنشأ والمَرْبَى ، وأفرضَ نفسى غريباً منهم ، وأجنبياً بينهم . وثانيهما : أنْ أُعبِّرَ عن المعانى بعبارات واضحة تقرُب من الافهام لينتفعَ بها كلُّ أحد ، عادلاً عن العبارات المستصعَبة التى يُقصدُ فيها إظهارُ الفصاحة ، وإثباتُ البلاغة . فطالما رأيتُ مُصنِّفى الكتبِ قد اعترضتهم محبةُ إظهار الفصاحة والبلاغة فخَفِيَتْ أغراضُهم ، واعتاصت معانيهم ، فقلّتِ الفائدةُ بمصنَّفاتهم . من ذلك كتابُ القانونِ فى الطبّ لأبى علىّ الحسينِ بنِ سينا البُخارىّ ، فإنّه حشاه بالعبارات الغامضة ، والتراكيب المُسْتَغْلَقة ، فبطَل غرضُهُ من الانتفاع بكتابه . ولذلك ترى عامّة الأطباء قد عدلوا عن كتابه إلى المَلَكىِّ السهلِ العبارة ، المُفْهِمِ الإشارة .

وهذا كتابٌ يحتاج إليه مَنْ يسوسُ الجمهور ، ويدبِّر الأمور ، وإن أنصفه الناسُ أخذوا أولادَهم بتحفّظه ، وتدبُّر معانيه ، بعد أن يتدبَّروه هم ، فما الصغير بأحوجَ إليه من الكبير ، ولا الملكُ العامُّ الطاعةِ بأحوجَ إليه من ملكِ مدينة ، ولا ذوو المُلْكِ بأحوجَ إليه من ذوى الأدب ، فإنَّ مَنْ ينصِبُ نفسَه لمفاوضة الملوك ، ومجالستهم ومذاكرتهم ، يحتاجُ إلى أكثرَ ممَّا فى هذا الكتاب ، فعلى أقلِّ الأقسام لا يَسَعُهُ تركُهُ .

وهذا الكتاب إنْ نُظِر بعين الإنصاف ، رُئِيَ أنفعَ من الحماسة التي لَهِج الناسُ بها ، وأخذوا أولادَهم بحفظها ، فإنَّ الحماسة لا يُستفادُ منها أكثرُ من الترغيب في الشجاعة والضيافة وشيء يسير من الأخلاق في الباب المسمَّى بباب الأدب ، والتأنُّسِ بالمذاهب الشعرية ، وهذا الكتاب يُستفادُ منه هذه الخِصالُ المذكورة ، ويستفاد منه قواعد السياسة ، وأُدوات الرياسة . فهذا فيه ما في الحماسة وليس في الحماسة ما فيه . وإنه ليُفيد العقلَ قوةً ، والذهنَ حدةً ، والبصيرةَ نورًا . وهو للخاطر الذكيّ بمنزلة المِسَنِّ الجيِّد للفولاذ . وهو أيضاً أنفعُ من المقاماتِ التي الناسُ فيها معتقِدون ، وفي تحفظِّها راغبون ، إذ المقاماتُ لا يُستفاد منها سوى التمرُّنِ على الإنشاء ، والوقوفِ عَلَى مذاهبِ النظم والنثر ، نعم ، وفيها حِكَمٌ وحِيَل وتجَارِبُ ، إلاّ أنّ ذلك مما يُصَغِّر الهمةَ ، إذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيُّل القبيح على تحصيل النزْر الطفيف ، فإن نفعتْ من جانب ، ضرَّت من جانب . وبعضُ الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريرية والبديعية ، فعدل ناس إلى نَهْج البلاغة من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فإنّه الكتابُ الذي يُتعلم منه الحِكَمُ والمواعظ ، والخطبُ والتوحيد ، والشجاعة والزهدُ وعلوُّ الهمة ، وأدنى فوائده الفصاحةُ والبلاغة . وعدل الناس إلى اليمينيّ للعُتْبيّ ، وهو كتابٌ صنَّفه مؤلفه ليمين الدولة محمود بن سبكتكين ، يشتملُ على سِيَر جماعة من الملوك بالبلاد الشرقية ، عبَّر فيه بعبارات حظُّها من الفصاحة وافر ، وصاحبُها إن لم يكن ساحراً فهو كاتب ماهر ، والعجم مشغوفون به مجدُّون في طلبه ، وهو لَعَمْري كتابٌ يشتمل على ظرائفِ حِكَمٍ ، وبدائع سِيَر ، مع ما فيه من فنون البلاغة ، وأنواع الفصاحة ، ولعلَّ قائلاً أنْ يقول: لقد بالغ في وصف كتابه ، وحشا ما شاء في جرابه ، والمرء مفتون بابنه وشعره ، فان

اعتراه ريب فليتأمل الكتبَ المصنَّفة فى هذا الفن ، فلعلَّه لا يرى فيها كتاباً أجمعَ للمعنى الذى قُصِد به من هذا الكتاب .

وهو أعز الله نصرَه ، وسَرَّ بدوام السعادة سِرَّه ، قد أغناه الله بالذهن القاهر ، والفضل الباهر ، عن هذا الكتاب وعن أمثاله ، ولكنَّ مهامّه الشريفة ، ربما أضْجرَتهُ وأنسته ، فإذا روَّح فكرَه الشريف بالنظر فيه دفع به المَلاَلَ ، وتذكَّر بِهِ ما أنسته الأشغال .

ومن أَلطاف الله تعالى أسألُ ألاَّ يُخلِيَ هذا الكتابَ من فائدتين : إحداهما تخصُّنى ، وهى أن يقعَ عنده بموقع الاستصواب ، فأبرأَ من عُهْدة الخجل ، والأخرَى تخصُّه وهى ألاّ يُعدِمَه الانتفاعَ به فى القول والعمل ، إنهُ ولىُّ كلِّ نعمةٍ ، ومُسدِى كلِّ عارفةٍ .

D٧٠١

الفصل الأوّل

فى الأمور السلطانيَّة، والسياسات المَلَكيَّة

أمّا الكلامُ على أصل المُلك وحقيقتهِ، وانقسامهِ إلى رياسات دينية ودنيوية، من خلافة وسَلْطَنة، وإمارة وولاية، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن، ومذاهبِ أصحاب الآراء فى الإمامة، فليس هذا الكتابُ موضوعاً للبحث عنه. وإنما هو موضوعٌ للسياسات والآداب التى يُنْتَفَعُ بها فى الحوادث الواقعة، والوقائع الحادثة، وفى سياسة الرعيةِ وتحصين المملكة، وفى إصلاح الأخلاق والسِيرة.

فأوّلُ ما يقال إن الملكَ الفاضلَ هو الذى اجتمعت فيه خِصال، وعُدِمت فيه خِصال، فأما الخِصال التى يُستحبُّ أن توجد فيه فمنها العقلُ، وهو أصلها وأفضلها، وبه تُساس الدولُ بل المللُ، وفى هذا الوصف كفاية.

ومنها العدلُ، وهو الذى تُستَغْزَر به الأموال، وتَعمرُ به الأعمال، وتُستَصْلَحُ به الرجال.

ولما فَتحَ السلطان هولاكو بغدادَ فى سنة ستٍ وخمسين وستِّمائة، أمرَ أن يُسْتَفتَى العلماء: أيُّما أفضلُ؟ آلسلطانُ الكافرُ العادل أم السلطانُ المسلم الجائر؟ ثمّ جمعَ العلماء بالمستنصِريّة لذلك، فلمّا وقفوا على الفُتْيا أحجموا عن الجواب، وكان رَضِيُّ الدين عليُّ بنُ طاووس حاضراً هذا المجلسَ، وكان مقدَّماً محترماً، فلمّا رأى إحجامَهم تناول الفُتْيا، ووضع خطَّه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناسُ خطوطَهم بعده.

ومنها العلمُ ، وهو ثمرة العقل ، وبه يَسْتَبْصِر الملِك فيما يأتيه ويذرُه ، ويأمَنُ الزلل فى قضاياه وأحكامه ، وبه يتزينُ الملِك فى عيون العامّة والخاصّة ، ويصيرُ به معدوداً فى خواصّ الملوك .

قال بعض الحكماء : الملكُ إذا كان خِلْواً من العلم كان كالفيل الهائج ، لا يمرُّ بشىء إلاّ خبَطَهُ ، ليس له زاجرٌ من عقل ، ولا رادعٌ من علم .

واعلم أنه ليس المرادُ بالعلم فى الملوك هو تصوُّرَ المسائل المشكلة ، والتبحُّرَ فى غوامض العلوم والإغراقَ فى طلبها . قال معاوية: ما أقبحَ بالملِك أن يُبالِغ فى تحصيل علم من العلوم! وإنَّما المرادُ من العلم فى الملِك هو ألاّ يكونَ له أنسٌ بها إلاّ بحيث يمكنُه أن يفاوِضَ أربابها فيها مفاوضةً يندفع بها الحالُ الحاضرُ ، ولا ضرورةَ فى ذلك إلى التدقيق .

كان مؤيِّد الدين محمدُ بنُ العلقمىّ وزيرُ المستعصم وهو آخرُ وزراء الدولة العباسيّة ، يفاوِضُ كلّ من يدخل عليه من العلماء مفاوضةَ عاقلٍ لبيب محصِّل . ولم يكن له بالعلوم مَلَكةٌ ، ولا كان مرتاضاً بها رياضةً طائلة .

كان بدرُ الدين لؤلؤ صاحبُ المَوْصِل لكثرة مُجالَسَةِ الأفاضلَ وخَوْضِه فى الأشعار والحكايات يستنبط المعانى الحسنةَ ، ويتنبَّهُ على النُكتِ اللطيفة ، مع أنه كان أمّيًا لا يكتبُ ولا يقرأ .

وكان عزُّ الدين عبدُ العزيز بنُ جعفر النَيْسابورىّ (رضى الله عنه) لمجالسةِ أهلِ الفضل ، ولكثرة مُعاشرتهم له ، صار يتنبَّهُ على معانٍ حَسَنة ، ويَحُلُّ الألغازَ المشكلةَ أسرعَ منهم ، ولم يكن له حظٌّ من علم ، وما كان يظهَر للناس إلاّ أنّه رجل فاضل ، وخَفِىَ ذلك حتى على الصاحب علاءِ الدين فان ابنَ الكُبوش الشاعر البَصْرِىَّ ، عمِل بيتين فى الصاحب ونسبهما إلى عبد العزيز وهما : (وافر)

عطا ملك ، عطاؤك مُلْكُ مصرٍ وبعضُ عبيـدِ دولتِك العزيزُ
تجازِى كلَّ ذى ذنبٍ بعفوٍ ومثلُك من يُجازِى أو يُجيز

فأنشدهما عبدُ العزيز بحضرة الصاحب وادَّعاهما ، وخَفِىَ الأمرُ على الصاحب ، وما أدْرِى من أيِّهما أعجبُ ؟ أمِنَ الصاحب كيف خَفِىَ عنه حالُ عبد العزيز مع أنه السنينَ الطويلةَ يعاشِرُه فى سَفَرٍ وحَضَرٍ وجِدٍّ وهَزْلٍ ؟ أم من عبد العزيز كيف رَضِىَ لنفسه مثلَ هذه الرذيلة ، وأقدمَ على مثل هذا مع الصاحب ، وما خاف من تنبُّهِ الصاحب واسترذاله لفعله ؟

وتختلف علوم الملوك باختلاف آرائهم ، فأمَّا ملوك الفرس فكانت علومُهم حِكَماً ووصايا وآداباً وتواريخ وهندسة وما أشبه ذلك ، وأمّا علوم ملوك الإسلام فكانت علوم اللسان كالنحو واللغة والشعر والتواريخ ، حتى إنَّ اللحن كان عندهم من أفحش عيوب المَلِك ، وكانت منزلة الإنسان تعلو عندهم بالحكاية الواحدة ، وبالبيت الواحد من الشعر ، بل باللفظة الواحدة من اللغة ، وأمَّا فى الدولة المغولية فرُفضت تلك العلوم كلُّها ونفقت فيها علوم أُخَرُ ، وهى علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدَّخْلِ والخَرْج والطبِّ لحفظ الابدان والأمزجة والنجومِ لاختيار الأوقات ، وما عدا ذلك من العلوم والآداب فكاسدٌ عندهم ، وما رأيته نافقاً إلاّ بالمَوْصِلِ فى أيام مِلكِها المُشارِ اليه ، مدَّ الله ظلَّه ، ونشر فضله .

ومنها الخوفُ من الله تعالى ، وهذه الخَصْلَةُ هى أصلُ كلِّ بركة ، فان المَلِكَ متى خاف اللهَ أمِنَهُ عبادُ الله . رُوِىَ أن علياً أميرَ المؤمنين (عليه السلام) استدعَى بصوته بعضَ عبيده فلم يجبه ، فدعاه مراراً فلم يجبه ، فدخل عليه رجل ، وقال : يا أميرَ المؤمنين إنه بالباب واقفٌ ، وهو يسمع صوتك ولا يكلِّمُك ! فلمّا حضر العبدُ عنده ، قال : أمَا سمعتَ صوتى ؟ قال بلى ، قال فما منعك من إجابتى ؟ قال

أمِنْتُ عقوبتك ، قال عليّ (عليه السلام) : الحمد لله الذي خلقنى ممن يأمَنُهُ خَلْقُهُ . وما أحسنَ قولَ أبي نُوَاس لهارونَ الرشيد (كامل)

قد كنتُ خِفْتُكَ ثم آمَنَنِى من أن أخافَكَ خوفُكَ اللهَ

ولم يكن الرشيد يخافُ الله ، وأفعالُه بأعيان آل عليّ ، وهم أولادُ بنت نبيِّه لغير جُرْم تدلُّ على عدم خوفِهِ من الله تعالى ، ولكنَّ أبا نواس جرى فى قوله على عادة الشعراء .

ومنها العفوُ عن الذنوب ، وحسنُ الصَفْح عن الهفَوات ، وهذه أكبر خِصال الخير ، وبها تُستمال القلوب ، وتُصْلَح النيّات ؛ فممّا جاء فى التنزيل من الحثّ على ذلك قوله تعالى شأنه : وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ .

وكان المأمونُ حليماً حَسَنَ الصفْح معروفاً بذلك ، هجاه دِعْبِلٌ الشاعرُ بأشعار كثيرة من جملتها : (كامل)

إنِّى من القومِ الذين سيوفُهم قَتَلَتْ أخاكَ وَشرَّفتك بمَقْعَدِ
شادوا بذكركَ بعدَ طولِ خُمُولِهِ واستَنْقَذُوكَ من الحضيض الأَوْهَدِ

فلمّا بلغهُ هذا القولُ لم يَزِدْ على أنْ قال : قاتله اللهُ ما أشدَّ بهتانَه ! متى كنتُ خاملًا وفى حَجْرِ الخلافةِ نشأتُ ، وبدَرِّها أُرضِعْت ؟ ولمّا بلغهُ أن دِعْبلًا قد هجاه قال مَن أقدمَ على هجاء وزيرى أَبِى عَبَّاد ، كيف لا يُقدِم على هجائى ؟ وهذا الكلام ظاهِرُه غيرُ مستقيم ، وهو يحتاجُ إلى تأويل ، فإنَّهُ عكسُ المعهودِ . قد كان ينبغى أن يقولَ الوزيرُ : من أقدمَ على هجاء الخليفة كيف لا يُقدمُ على هجائى ؟ ومعنى قول المأمون أنّ مَن أقدمَ على هجاء أبى عبّاد مع حِدّته وَهَوَجه وتسرُّعه — وكان أبو عبّاد كذلك — كيف لا يُقدِم عليّ فى حِلْمى وصَفْحى ؟

ولولا خوْفُ الإطالة لذكرتُ جماعة من حُلَماء الملوك فى هذا الموضع ، ولكنْ ليس

هذا الفصل موضوعًا للسَّمَر، وسيَرِدُ من ذلك ما يُمْتِعُ ـ إن شاء الله ـ في الفصل الثانى

ومنهم من يَرَى أنّ الحِقْدَ خَصْلَةٌ محمودة فى الملك، قال بُزُرْجِمهر يجب أن يكون الملِك أحقدَ من جَمَل، وأنا أناظره فى هذا القول فأقول: كيف يقال كذلك، والملكُ متى كان حقوداً فسدت نيَّتُهُ لرعيته، فَمَقَتَهُمْ وقلَّ الالتفاتُ اليهم الشفقةَ عليهم(١)؟ ومتى أحسُّوا بذلك تغيَّرت نيّاتهم له، وفسدت بواطنهم، وهل يتمكنُ الملكُ مما يريده من مهمات مملكتِهِ، وبلوغ أغراضِهِ كما فى نفسه، إلاّ بصفاء قلوب رعيَّتِهِ؟ وأىُّ حِكْمَة فى ذلك؟ وهل فيه سوى تنغيص عَيْشِ الملك وتبغيض رعيَّته إليه وإيحاشهم منه؟ قال شاعر العرب: (طويل)

ولا أحمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهمُ وليس رئيسُ القوم مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

خصوصاً والناس مركَّبون على الخطأ، مجبولون على تشمير الطباع، فما أكثرَ ما تصدرُ منهم موجباتُ الحقد! فلا يزال الملكُ طول دهره يُعانى من الغيظ والحقد عليهم ما ينغِّص عليه لذَّته، ويَشْغَله عن كثير من مِهامِّ مملكته، وما أكثرَ ما رأينا الرعيةَ أو الجندَ قد وثبوا على ملوكهم، فسلبوهم رداءَ المملكة بل رداء الحياة! فابْتَدِئ من عمرَ بن الخطاب، وقد وثب عليه أبو لؤلؤةَ عبدُ المغيرةِ ابن شُعْبَةَ فقتله. ثم ثَنِّ بعثمانَ بن عفّانَ (رضى الله عنه) وانظر كيف اجتمع عليه رعيَّتُهُ من كل جانب فحاصروه فى داره أياماً، ثم دخلوا عليه فقتلوه، والمصحفُ فى حَجْره، حتى قطرت قطَرَاتٌ من دمه على المصحف؟ ثم ثَلِّثْ بعلىِّ بن أبى طالب (عليه السلام) وقد ضربه عبدُ الرحمن بن مُلْجَم (لعنهُ الله) بسيفه على أمِّ رأسه بالكوفة فقتله، وكان ابنُ مُلْجَم من الخوارج. هذا فى الصدر الأوَّل والناسُ ناسٌ، والدينُ دين، ثم تَنَقَّلْ دولةً فدولةً، وأياماً فأياماً، إلى أواسط دولة بنى العباس،

(١) يقصد بالالتفات: النظر إلى ما فيه الرعية من نعم وحسدهم عليها.

فانظرْ منذ عهدِ المتوكل إلى عهد المقتفِى ما جرى على واحدٍ واحدٍ من الخلفاء من القتل والخلع والنهب ، بسبب تغير نيَّات جنده ورعيَّته . فهذا سُمِل ، وذاك قُتِل ، والآخر عُزِلَ . ثم اسرَح طرْفك فى الدولتين البُويهيةِ والسَلْجوقية ترَ من هذا الباب عجباً ، ثم ارجعِ البصرَ إلى أونكخان ملكِ الترك ، كيف لما تنكَّرت نيَّتهُ على جنكزخانَ وحقد عليه أشياء عرضها عليه عنده حسّادُهُ ، وأرادَ الوقيعةَ به وأعلمه بذلك الصبيانُ فرحل من ليلته ، ثم حَشدَ وجمع ووثب على أونكخانَ فقتله وَملك ممالكه — تَعْلَمْ أن الحقد من أضر الأشياء للملك ، وأن أوفق الأشياء له الصفحُ والعفو والغفران والتناسى . وما أحسنَ قولَ القائل :

(منسرح)

اِقْبَلْ من النـاسُ ما تَيسَّرْ وَدَعْ من النـاس ما تعسرْ

فإنمـا النـاسُ من زُجاجٍ إن لم تَرَفَّقْ به تكسَّر

وقد مدح بعض الشعراء الحقدَ . ولم يُسْمع بمن مدح الحقد غيرُ هذا فقال :

(طويل)

وما الحِقْدُ إلا توأَمُ الشكرِ فى الفتى وبعضُ السجايا ينتسبن إلى بعض

فحيثُ ترى حِقداً على ذى إساءة فَثمَّ ترى شكرًا على سالف القرْض

إذا الأرضُ أدَّتْ رَيْعَ ما أنت زارعٌ من البَذرفيها فهْى ناهيكَ من أرْض !

وهذا قول لا يُعرَّجُ عليه . وإن عرَّج عليه أحد فلْيعرِّج عليهِ غيرُ الملك فإن الملك أحوجُ الخلْق إلى استصلاح النيات واستصفاء القلوب .

ومن الخصال التى يستحب أن تكون فى المِلك الكرمُ ، وهو الأصلُ فى استمالة القلوب وتحصيل النصائح من العالِم واستخدامِ الأشراف ، قال الشاعر :

(متقارب)

إذا ملكٌ لم يكن ذا هِبهْ فدعْهُ فدولتُـهُ ذاهبـــهْ

ومما جاء فى الحديث النبوىّ (صلواتُ الله على صاحبه) : « تجاوَزُوا عن ذنب

السخىّ فإن الله آخذٌ بيده كلما عثَر، وفاتحٌ عليهِ كلما افتقر»، وقال علىّ (عليه السلام): الجودُ حارس الأعراض. واعلم أنهُ لم تتضمن سيرةٌ من حكايات الجود مثلَ ما نُقل عن قانٍ العادل (وهو أوكتاىُ بن جنكزخانَ)، فإنهُ غبَّرَ فى وجوه جميع كرام الملوك

(رجز)

مناقبٌ تَفْتُقِ ما رقعتمُ من جود كَعْبٍ وسماح حاتِمِ

ومن الاتفاقات الحسنة وجودُه فى عصر المستنصِرِ بالله، وكان المستنصرُ أكرمَ من الريح، ولكن أين يقعُ جوده من جود قان؟ ومن أين للمستنصر مالٌ يفى بعطايا قان؟

ومنها الهيبة، وبها يُحفظُ نظامُ المملكة ويُحْرَسُ من أطماع الرعية، وقد كان الملوكُ يبالغون فى إقامة الهيْبَةِ والناموس، حتى بارتباط الأسود والفِيَلة والنمور، وبضرب البوقات الكبار كبوق النَّفير، والدبادب والقِصَع ورفع السناجق وخفق الألوية على رءوسهم، كلُّ ذلك لإثبات الهيبة فى صدور الرعيّة ولإقامة ناموس المملكة. كَانَ عَضُدُ الدولة إذا جلس على سريره أُحضرت الأسودُ والفِيَلة والنمور فى السلاسل، وجُعِلَتْ فى حواشى مجلسه تهويلاً بذلك على الناس وترويعاً لهم

ومنها السياسةُ، وهى رأسُ مال الملك، وعليها التعويلُ فى حَقْن الدماء وحفظِ الأموال ومنع الشرور وقَمْع الدُّعّار والمفسدين، والمنع من التظالم المؤدِّى إلى الفتنة والاضطراب

ومنها الوفاء بالعهد، قال (تعالى سلطانه): «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا» وهو الأصلُ فى تسكين القلوب، وطمأنينةِ النفوس، ووثوق الرعيّةِ بالملك إذا طلب الأمانَ منه خائفٌ، أو أراد المعاهدةَ منه مُعاهِدُ

ومنها الاطلاعُ على غوامض أحوال المملكة ودقائِق أمور الرعية ومجازاةُ المحسن على إحسانه والمسىءُ على إساءته. كان أرْدَشيرُ الملك يقول لمن شاء من

أشرافِ رعيته وأوضاعهم : كان البارحةَ من حالك كَيْتَ وَكَيْتَ . حتى صار يُقال إن أرْدَشِير يأتيه مَلَك من السماء يخبره بالأمور ، وما ذاك إلا لتيقظه وتصفُّحِه

فهذه عشرُ خِصَال من خِصَال الخير ، مَنْ كُنَّ فيه استحق الرياسةَ الكبرى ، ولو نظر أصحابُ الآراء والمذاهب حقَّ النظر وتركوا الهوى لكانت هذه الشرائط هى المعتبرةَ فى استحقاق الإمامة ، وما عداها فغيرُ طائل ، وقال بُزُرْجَمِهر : ينبغى أن يكون الملك كالأرض فى كتمان سرِّه وصبره ، وكالنار على أهل الفساد ، وكالماء فى لينه لِمَنْ لايَنَهُ ، وينبغى أن يكون أسمعَ من فرَس ، وأبصرَ من عُقَاب ، وأهدى من قَطَاة ، وأشدَّ حذراً من غُراب ، وأعظم إقداماً من الأسد ، وأقوى وأسرع وثوباً من الفهْد ، وينبغى للملك ألاّ يستبدَّ برأيه وأن يشاور فى الملمَّات خواصَّ الناس وعقلاءهم ومن يتفرَّسُ فيه الذكاء والعقل وجودةَ الرأى وصحةَ التميز ومعرفةَ الأمور ، ولا ينبغى أن تمنعه عزةُ الملك من إيناس المستشار به وبسطِه واستمالةِ قلبه ، حتى يَمْحَضَه النصيحةَ ، فإنَّ أحداً لا يَنْصَحُ بالقسْر ، ولا يُعْطِى نصيحَتَهُ إلاّ بالرغبة ، وما أحسنَ قولَ الشاعر فى هذا المعنى : (طويل)

أهانُ وأقصَى ثم يَسْتَنْصِحُونَنِى وَمَنْ ذا الذى يُعْطى نَصِيحَتَهُ قَسْرَا ؟

قال الله (تعالى) : « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يشاورُ أصحابه دائماً .

لَمَّا كانت وَقعةُ بَدْر خرج (صلى الله عليه وسلم) من المدينة فى جماعة من المسلمين ، فلمَّا وصلوا بدراً نزلوا على غير ماء ، فقام إليه رجل من أصحابه وقال : يا رسول الله نزولك هاهنا شيء أمركَ الله به أو هو من عندِ نفسك ؟ قال : بل هو من عند نفسى ، قال : يا رسولَ الله إن الصوابَ أن ترحلَ وتنزلَ على الماء

فيكونَ الماءُ عندنا فلا نخاف العطش ، وإذا جاء المشركون لا يجدون ماء ، فيكون ذلك مُعيناً لنا عليهم ؛ فقال رسول الله : صدقتَ ثم أمر بالرحيل ونَزَلَ على الماء ، واختلف المتكلمون فى كون الله (تعالى) أمر رسولَهُ بالاستشارة مع أنه أيَّده وَوَفَّقه ، وفى ذلك أربعةُ وجوه : أحدها أنه (عليه السلام) أُمِرَ بمشاورة الصحابة استمالةً لقلوبهم ، وتطييباً لنفوسهم ، الثانى أنه أُمِرَ بمشاورتهم فى الحرب ليستقرَّ له الرأىُ الصحيحُ فيعملَ عليه ، الثالث أنه أُمِرَ بمشاورتهم لِمَا فيها من النفع والمصلحة ، الرابع أنه إنما أُمِرَ بمشاورتهم ليقتدِىَ به الناس ، وهذا عندى أحسنُ الوجوه وأصلحُها ، قالوا : الخطأ مع المشورة أصلحُ من الصواب مع الانفراد والاستبداد ، وقال صاحبُ كليلة ودمنة : لا بُدَّ للملك من مُسْتشار مأمون يُفْضِى إليه بسره ، ويعاونه على رأيه ، فإن المستشيرَ وإن كان أفضلَ من المستشار وأكملَ عقلاً وأصحَّ رأياً قد يزداد برأى المشير رأياً ، كما تزداد النار بالدُّهن ضوءاً ونوراً ، قال الشاعر : (طويل)

إذَا أَعْوَزَ الرَّأْىَ المشُورَةُ فاسْتَشِرْ ... بِرَأْىِ نَصِيحٍ أَوْ مَشُورَةِ حَازِمِ

واعلم أن للملك أموراً تخصه يتميز بها عن السُّوقة ، فمنها أنه إذا أحبَّ شيئاً أحبه الناس ، وإذا أبغض شيئاً أبغضه الناس ، وإذا لَهِجَ بشىء لَهِج به الناس إما طبعاً أو تطبعاً ليتقربوا بذلك إلى قلبه ، ولذلك قيل : الناسُ على دين ملوكهم . فانظر كيف كان زىُّ الناس فى زمن الخلفاء ، فلمَّا مَلَكَتْ هذه الدولةُ (أسبغ اللهُ إحسانَها وأعلى شأنها) غيَّر الناس زِيَّهم فى جميع الأشياء ، ودخلوا فى زىِّ ملوكهم بالنطق واللباس والآلات والرسوم والآداب ، من غير أن يكلفوهم ذلك أو يأمروهم به أو ينهَوْهم عنه ، ولكنهم عَلِمُوا أن زِيَّهم الأولَ مُستهجَنٌ فى نظرهم ، مُنافٍ لاختيارهم ، فتقربوا إليهم بزيِّهم ؛ وما زالَ الملوكُ فى كلِّ

زمان يختارون زِيًّا وفنًّا فيميلُ الناسُ إليه وَيَلْهَجُون به ؛ وهذا من خواصٍّ الدولة وأسرار المُلْك .

ومن خواصِّ الملك أن صُحْبَتَهُ تورث التيهَ والكبرَ وتقوِّى القلبَ وتُكْبِر النفس ، وليس صُحبةُ غيرِ الملك تفعل ذلك . ومن خواصّه أنه إذا أعرض عن إنسان وجد ذلك الإنسانُ فى نفسه ضعفاً وإن لم ينله بمكروه ، وإذا أقبل على إنسان وجد ذلك الانسانُ فى نفسه قوة وإن لم يُصِبْهُ منه خير، بل مجردُ الإعراض والإقبالِ يفعل ذلك ! وليس أحدٌ من الناس بهذه المنزلة غيرُ السلطان .

وأما الخصال التى يستحبُّ أن تكون معدومة فيه فقد ذكرها ابن المُقَفَّع فى كلام له قال : ليس للملك أن يغضَبَ لأن القدرةَ من وراء حاجته ، وليس له أن يكذِبَ لأنهُ لا يَقْدِر أحدٌ على إلزامه بغير ما يريد ، وليس له أن يَبخلَ لأنه أقلُّ الناس عذراً فى خوف الفقر ، وليس له أن يكون حَقوداً لأن قدره قد عَظُمَ عن المجازاة لأحد على إساءةٍ صدرت منه ، وليس له أن يَحْلِف إذا حدَّث لأن الذى يحمل الإنسان على اليمين فى حديثه خِلالٌ : إما مَهَانةٌ يجدها فى نفسه واحتياجٌ إلى أن يصدِّقَه الناس ، وإمَّا عِىٌّ وحَصَرٌ وعجز عن الكلام فيريد أن يجعل اليمين تَتِمة لكلامه أو حشواً فيهِ ، وإمَّا أن يكون قد عرف أنه مشهور عند الناس بالكذب فهو يجعل نفسه بمنزلة من لا يُصَدَّق ولا يُقْبَل قوله إلاَّ باليمين ، وحينئذٍ كلَّما ازداد أيْمانًا ازداد الناس له تكذيباً ، والملك بِمَعْزِلٍ عن هذه الدنايا كلّها وقدرُه أكبرُ من ذلك .

ومن الخصال التى يستحب أن تكون معدومة فى الملك الحِدَّةُ ، فانها ربما أصدرت عنه فعلاً يندم عليه حين لا ينفع الندم ، وأكثرُ ما ترى الحِدَادَ من الرجال سريعى الرجوع ولذلك قال (عليه الصلاة والسلام) « خير أمتى حِدادُها » .

ومن الخصال التى يُستحب عدمها فى الملك الضَّجرُ والسأم والمللُ فذلك من أضرِّ الأمور وأفسدها لحاله .

واعلمْ أن للملك على رعيَّته حقوقاً وأن لهم عليه حقوقاً ، فأما الحقوقُ التى تجب للملك على رعيته فمنها الطاعة ، وهى الاصل الذى ينتظم به صلاحُ أمور الجمهور ويتمكن به الملك من الإنصاف للضعيف من القوىِّ ، والقسمةِ بالحق ، ومما جاء فى التنزيل من الحثِّ على ذلك وهى الآية المشهورة فى هذا المعنى قوله (تعالى) : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، ومن أمثالهم : لا إِمْرَةَ لمن لا يُطاع . ولم يُنقل فى تاريخ ولا تضمَّنت سِيرةٌ من السِّيَر أن دولة من الدول رُزقت من طاعة جندها ورعاياها ما رُزقَتْهُ هذه الدولةُ القاهرة المغولية، فإن طاعة جندها ورعاياها لها طاعة لم تُرْزَقها دولةٌ من الدول .

فأما الدولة الكِسْرَوية فإنها على عِظَمها وفخامتها لم تبلُغ ذلك ، وقد كان النعمان بن المنذر ملكُ الحِيْرَة نائباً لكسرى عَلَى العرب ، وبين الحيرة والمدائن التى كانت سريرَ مُلْك الأكاسرة فراسخُ معدودة ، والنعمانُ فى كل أيامه قد عصا على كسرى ، وإذا حضر مجلسَه تبسَّط وتجرَّأ على مجاوبتِه ، وكان متى أراد خَلْعَ طاعته دخل البرِّيَّة فأمِن شرَّه .

وأما الدول الإسلامية فلا نسبة لها إلى هذه الدولة حتى تُذْكَرَ معها ؛ فأما خلافةُ الأربعة الأول ، وهم أبو بكر الصِّدِّيقُ وعمرُ بن الخطاب وعثمان ابن عفانَ (رضى الله عنهم) وعلىُّ بن أبى طالب (عليهِ السلام) — فإنها كانت أشبهَ بالرتب الدينيةِ من الرتب الدنيوية فى جميع الأشياء ، كان أحدُهم يَلْبَسُ الثوبَ من الكِرْباس الغليظ ، وفى رجله نعلان من ليف ، وحمائلُ سيفه ليفٌ ويمشى فى الأسواق كبعض الرعيَّة ، وإذا كلم أدنى الرعيةِ أسمعه أغلظَ من

كلامه . وكانوا يعُدُّون هذا من الدِّين الذى بُعث به النبيُّ (صلوات الله عليه وسلامه) . قيل إن عمرَ بنَ الخطاب جاءته بُرود من اليمن ففرَّقها على المسلمين فكان نصيبُ كل رجل من المسلمين بُرداً واحداً ، وكان نصيب عمر كنصيب واحدٍ من المسلمين ، قيل ففصَّله عمرُ ثم لَبسه وصَعِد المنبرَ فأمر الناسَ بالجهاد ، فقام إليه رجل من المسلمين وقال لا سمعاً وطاعة ، قال لِمَ ذلك ؟ قال لأنك استأثرت علينا ، قال عمرُ بأى شىء استأثرتُ ؟ قال إن الأبراد اليمنيَّة لما فرقتها حصل لكل واحد من المسلمين بُردٌ منها ، وكذلك حصل لك ، والبردُ الواحدُ لا يكفيك ثوباً ، ونراك قد فصَّلْته قميصاً تاماً ، وأنت رجلٌ طويل ، فلو لم تكن قد أخذتَ أكثرَ منه لما جاءك منه قميص ، فالتفت عمرُ إلى ابنه عبدِ الله وقال يا عبدَ الله أجبه عن كلامه ، فقام عبدُ الله بنُ عمرَ وقال إنّ أميرَ المؤمنين عمرَ لما أراد تفصيل بُرْدِه لم يكفِه ، فناولتُه من بُرْدِى ما تمَّمَهُ به ، فقال الرجل أمَّا الآنَ فالسمعُ والطاعةُ

وهذه السِيَرُ ليستْ من طِرْزِ ملوك الدنيا وهى بالنبوّات والأمور الاخروية أشبهُ

وأمَّا خلافةُ بنى أميَّةَ فكانت قد عظُمتْ وتفخَّم أمرُها وعرُضتْ مملكتُها ، ولكنَّ طاعتَهم لم تكن كطاعة هؤلاء ، كان بنو أميَّة فى الشام ، وكان بنو هاشم بالمدينة لا يلتفتون إليهم (١) ، وإذا دخل الرجلُ الهاشمىُّ على الخليفة من بنى أميَّةَ أسمَعه غليظَ الكلام ، وقال له كلَّ قولٍ صعبٍ .

وأما الدولة العبَّاسيَّة فلم تبلغْ طاعة الناس لها ما بلغتْ هذه الدولة ، مع أنَّ مدَّتها طالت حتى تجاوزت خمْسمائة سنة ، ومملكتها عرُضَت حتى إنّ بعضَهم جَبَى معظمَ الدنيا . وستقع الإشارةُ إلى ذلك عند الكلام على دولة بنى العبَّاس ، وحاصلُ الدنيا فى أيام الرشيد — فى حسبةٍ جامعة تشتملُ عليها كتبُ التواريخ — يدل على

---

(١) أى لا يأبهون لبنى أمية .

ذلك . فأمّا أوائلهم فجبَوْا شَطْراً صالحاً من الدنيا ، وقَوِيَتْ شوكتهم كالمنصور والمهديّ والرشيد والمأمون والمعتصم والمعتَضِد والمتوكل ، ومع ذلك لم تكن دولتهم تخلو من ضعف وَوَهْن من عدَّة جهات : منها امتناعُ الروم عليهم ، وقيامُ الحرب بينهم وبين ملوكِها النصارى فى كل سنَة على ساق ، ومع ذلك كانت جبايتها تَسْتَصْعِب عليهم ، وملوكُها لا يزالون عَلَى الامتناع منهم ، وقد كان من أمر المعتصِم وعَمُّورِيَّةَ ما بلغك ، ولعلّ طَرَفاً منه يبلغك فى هذا الكتاب عند الكلام فى الدولة العباسية .

ومن أسباب الوهن الواقعِ فى دولتهم خروجُ الخوارج فى كل وقت . فأما المنصور فلم يشرب ريقاً حلواً من ذلك ، وخرج عليهِ النفسُ الزكية محمدُ بن عبد اللهِ ابن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب (عليهم السلامُ) بالحجاز ، فجرت بينه وبينه حروب أفضت إلى إرسال عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العباس إلى الحجاز لمحاربة النفس الزكية ، فقتله بموضعٍ قريب من المدينة يقال له أحجارُ الزيت . وذلك فى سنة كذا ، ولذلك سُمِّيَ النفسُ الزكية قتيلَ أحجار الزيت ، وخرج عليهِ أخو النفس الزكية وهو إبراهيمُ بن عبد الله بالبَصْرة فقلِق المنصور لذلك غاية القَلَق وقام وقعد ، حتى توجَّه إليـه عيسى بن موسى فقتله بقَرْيةٍ قريبة من الكوفة يقال لها باخَمْرَى (رضى الله عنهُ) . ومن ها هنا حَقَد المنصورُ على العلويين وفعل بهم تلك الأفاعيلَ ، ولعلَّ طَرَفاً منها يبلغك فى هذا الكتابِ إذا انتهيتُ من الكلام إلى الدولة العباسيَّة ، وكذلك جرى أمرُ الخوارج مع خليفةٍ خليفةٍ ، حتى كان الرعيَّـة لا ينامون فى بيوتهم آمنين ، ولا يزالون يتوقَّعون الفِتْنَةَ والحربَ ، كما كان حالُ أهل قَزْوِينَ فى مجاورة قلاع الملاحِدة .

حدثنى المَلِكُ إمامُ الدين يحيى بنُ الافتخاريّ (رضى الله عنـهُ) قال :

أذكرُ ونحن بقزوين إذا جاء الليلُ جعلْنا جميعَ ما لَنَا من أثاث وقُماش ورَحْل في سراديبَ لنا في دورنا غامضةٍ خفِيَّةٍ ، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات الملاحدة ، فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا ، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك ، ولأجل ذلك كثر حَمْلُ القزاونة للسكاكينِ وكثر حملهم للسلاح ، وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمرِ شمس الدين قاضي قزوينَ ، وتوجُّهِهِ إلى قآن وإحضارِ العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان ، وليس هذا الموضعُ موضعَ استيفاء الكلام في هذا ، فإنه اعترض وليس بمقصود

وكما جرَى للموفَّق بن المتوكل في مرابطة الزَّنْج أربعَ عشرةَ سنةً ، ما زال يصابرهم من البَصْرَة وواسط طول هذه المدة حتى أفناهم ، وكان لطول المدة قد ابتنى الزنجُ هناك مدائنَ ثم خَرِبت وآثارُها الآن باقية .

وأما أواخرهم أعني أواخرَ خلفاء بني العباس فضعفوا غاية الضعف حتى عصت تَكْرِيتُ عليهم وفي ذلك يقول شاعرهم

(كامل)

في العسكر المنصورِ نحن عصابةٌ ... من دولة أخْسِسْ بنا من معشرِ
خذ عقلَنا من عقدنا فيما ترى ... من خِسَّةٍ ورقاعةٍ وتهوُّر
تكريتُ تُعْجِزُنا ونحن بعقلنا ... نمضي لنأخذ تُرْمُذاً من سنجر

وكانوا أعني المتأخرين من خلفاء بني العباس ، قد اقتصروا في آخر الأمر على مملكة العراق فَحَسْب ، حتى إن إرْبِلَ لم تكن في حكمهم ، وما زالت خارجة عن حكمهم إلى أن مات مظفَّر الدين بن زين الدين عليّ كوجكُ صاحبُ إرْبِلَ ، وذلك في أيام المستنصِر ، فَعَيَّن عليّ شرف الدين إقبالُ الشرابيّ ، وكان مقدّمَ الجيوش ليتوجه إلى إربل ليفتحها ، وجهّزه(١) بالعساكر فتوجه الشرابيُّ إليها وأقام

(١) ضمير الفاعل يعود على المستنصر ، وضمير المفعول يعود على اقبال الشرابي

عليها أياماً محاصِراً ثم فتحها ، فضُرِبت البشائر ببغدادَ يومَ وصول الطائر بفتحها ! فانظر إلى دولة تضْرَب البشائر على أبواب صاحبها ويُزَيَّن البلد لأجل فتح قلعة إربل التي هي اليومَ في هذه الدولة من أحقر الأعمال وأصغرها وأهونها ، بلى قد كان ملوك الأطراف مثلَ ملوك الشام ومصرَ وصاحبِ الموصل يحملون إليهم في كل سنة شيئاً على سبيل الهدية والمصانعة ، ويطلبون منهم تقليداً بولاية بلادهم بحيث يتسلطون بذلك على رعيتهم ، ويوجبون عليهم طاعتَهم بذلك السبب ، ولعل الخلفاء قد كانوا يعوِّضون ملوك الأطراف عن هداياهم بما يناسبها أو يفضُل عنها ، كل ذلك لحفظ الناموس الظاهر ، وليكونَ لهم في البلاد والأطراف السِّكَّة والُخطبة ، حتى صار يُضْرَب مثلاً لمن له ظاهر الأمر وليس له من باطنه شيء أن يقال : قَنِع فلان من الأمر الفلاني بالسكة والخطبة ، يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة ، فهذه جملٌ من أحوال الدولة العباسية .

وأما الدولتان البُوَيْهِيَّةُ والسلجوقية فلم تعرُض مملكتهما مع قوة شوكة ملوكهما كعضد الدولة في بني بويه وطغرلبكَ في بني سلجوق ، ولم تَعُمَّ طاعتهُما ولم يشمَل ملكُهما . وأما الدولة الخوارزمشاهية مع أن جريدة السلطان جلال الدين اشتملت على أربعمائة ألف مقاتل فلم يعرُض ملكها أيضاً ، ولا تجاوزت النواحيَ القريبة منها ، بلى جلالُ الدين غزا أطراف الهند

ومن الحقوق الواجبة للملك على الرعية التعظيمُ والتفخيم لشأنه في الباطن والظاهر وتعويدُ النفس ذلك ورياضتُها به بحيث تصير مَلَكة مستقِرَّةً ، وتربيةُ الأولاد على ذلك وتأديبُهم به ليتربى هذا المعنى معهم

وها هنا موضع حكاية وهي أن سلطان هـذا العصر (ثبَّت الله قواعد دولته وبسط في الخافقَيْن ظل مَعْدَلته) . لمَّا ورد إلى بغداد في سنة ثمان وتسعين وستمائة

دخل المستنصرية لمشاهدتها والتفرج فيها ، وكانت قبل وروده إليها قد زُيِّنَتْ وجلس المدرسون على سُدَدِهم والفقهاء بين أيديهم وفى أيديهم أجزاء القرآن وهم يقرءون منها ، فاتفق أن الركاب السلطانى بدأ بالاجتياز على طائفة الشافعية ، ومدرسُها الشيخ جمال الدين عبد الله بن العاقولى ، وهو رئيس الشافعية ببغداد ، فلما نظروا إليه قاموا قياماً ، فقال للمدرس المذكور : كيف جاز أن تقوموا لى وتتركوا كلام الله ؟ فأجاب المدرس بجواب لم يقع بموقع الاستصواب فى الحضرة السلطانية (أعلى الله فى الدنيا كلمتها وفى الآخرة درجتها) ثم بعد ذلك حكى لى المدرس المذكور صورة السؤال والجواب ، فأما السؤال فهو ما حَكَيته ، وأما جوابه فلم أضبِطه . وقلت له قد كان يمكن أن يقال فى جواب هذا السؤال إن تَرْكَنَا للمصحف إذا كان فى أيدينا واشتغالَنا بغيره لم يَحْرُم علينا فى شريعتنا ولا جُعِل علينا فى ذلك حَرَجٌ ، ثم إن هذا المصحف الذى تركناه وقمنا بين يدى السلطان قد أُمِرنا فيه بتعظيم سلاطيننا .

ومن الحقوق الواجبة للمَلك على رعيته النصيحة ، فمما جاء فى الحديث (صلوات الله وسلامه على من نُسِب إليه) قوله (صلى الله عليهُ وسلم) « الدين النصيحةُ » قيل لمن يا رسول الله ، قال : « لله ولرسوله ولجماعة المسلمين » .

ومنها ترك اغتياب الملك فى ظهر الغيب ، قال : (صلى الله عليه وسلم) « لا تَسُبُّوا الولاة فانهم إن أحسنوا كان لهم الأجرُ وعليكم الشكر وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر وإنما هم نِقْمة ينتقم الله بها ممن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحْمِيَّةِ والغضب واستقبلوها بالاستكانة والتضرُّع » .

وأما الحقوق الواجبة للرعية على الملك فمنها حماية البَيْضَةِ وسدُّ الثغور وتحصين الأطراف وأمنُ السوابل وقمعُ الدُّعَّار ، فهذه حقوق تَلزَم السلطانَ تجرى مجرى

الفروضِ الواجبة ، وبهذه الأمور تجب طاعته على رعيته . وبنحوٍ من هذا احتج الخوارج على أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) عَقِيبَ انقضاء حرب صِفِّين ، قالوا له : أنت فرَّطت فى حفظ هذا الثغر يعنى ثغر الشأم بتحكيمك الحَكمين ، فأنت مخطىء مُفَرِّط ، فليس لك علينا طاعةٌ ، فان اعترفت بهذا الخطاء واستغفرتَ رجَعْنا إلى طاعتك وقاتلنا معك العدوَّ . فعرَّفهم (عليهِ السلام) أنه غُلِب رأيهُ فى قضية التحكيم ، وأن التحكيم لم يكن من رأيه ، فأصرُّوا على قولهم ولم يقبلوا ونابذوه وقاتلوه ، حتى كانت الوقعة المشهورة بالنَهْرَوان .

ومن الحقوق الواجبة للرعية على الملك الرفقُ بهم والصبرُ على صادرات هفواتهم ، قال (صلوات الله عليه وسلامهُ) « ما كان الرفق فى شىء إلاّ زانه . ولا كان الخُرْق فى شىء إلاّ شانَهُ » وقد رُوى عنه (صلوات الله عليه وسلامه) « من الرفق أشياء لا تليق إلاّ بمنصِب النبوة » . كان صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحبُ مصر والشأم كثيرَ الرفق موصوفاً به ، دخل مرة إلى الحمّام عقيب مَرْضة طويلة أضعفته وانتهكت قوته فأدخل الحمام وهو فى غاية من الضعف ، فطلب من مملوك كان واقفاً على رأسه ماء حارًّا فأحْضَر له فى طاسة ماء شديد الحرارة ، فلما قرُب منه اضطربت يد المملوك فوقعت الطاسة عليه فأحرق الماء جسده ، فلم يؤاخذه ولا ولا بكلام ، ثم طلب منه بعد ذلك بساعة ماء بارداً فأحضر له فى تلك الطاسة ماء شديد البرد ، فحين قرب منه اتفق له ما اتّفق فى المرّة الأولى من اضطراب يده ووقوع الطاسة عليه بذلك الماء الشديد البرد ، فغُشِىَ عليه وكاد يموت ، فلما أفاق قال للمملوك إن كنت تريد قتلى فعرِّفنى ولم يزد على هذه الكلمة (رضى الله عنه) قيل تقدم رجل أبخرُ إلى بعض الرؤساء يشاوره فقال له تَنَحَّ عنى فقد آذيتنى ، قال الرجل لا كرامةَ ولا عزازة ما رأسناك وقمنا بين يديك إلاّ حتى تحتمل منّا

ما هو أشدُّ من هذا ، وَتَصْبِرَ منا على ما هو أعظمُ منه . ومما يجب للرعية على الملك ردعُ قَوِيِّهم عن ضعيفهم ، وإنصافُ ذليلهم من عزيزهم ، وإقامة الحدود فيهم ، وإقرار حقوقهم مقارَّها ، وإغاثة ملهوفهم ، وإجابةُ مستصرِخهم ، والتسويةُ في حكمه بين الأبعد منهم والأقرب والأذل والأعز . قال عمر بن الخطاب لرجل إني لا أحبك قال فتَنْقُصني من حقي شيئاً ؟ قال عمر : لا . قال الرجل فما يَفرَح بالحب بعد هذا إلاّ النساء .

ويجب للملك أن يعرف نعمة الله عليه بأن اصطفاه لهذه المرتبة العلية دون سائر الخلق ، وبأن جعله يفزع منه كلُّ أحد ولم يجعله يفزع من أحد ، فلا يزال لها ذاكراً شاكراً ، فأما الذِّكْر فلامتثال قوله (تعالى) « وأما بِنعْمةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » وأما الشكر فلطلب المزيد لقوله (تعالى) « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »

ويجب أن يكون بينه وبين ربه معاملةٌ سِرّية لا يعلم بها إلاّ الله ، فتلك المعاملة تقي مصارعَ السُّوء ، وهذه العبارة مقبولة عند جميع أصحاب الملل ، وعند الحكماء أيضاً هي مقبولة ، ويمكن تأويلها على هذا المطلوب بحسب اعتقادهم

ويجب أن يكون له دعواتٌ يناجي بها ربَّه ، وهي دعواتٌ تليق بالملوك لا تصلح للعوام ، ولا بأس أن أُثْبِتَ في هذا الموضع فصلاً من الدعاء المَلَكي وهذا مما اقترحتُه أنا ولم أعلم أن أحداً تنبَّه عليه . فصلٌ من الدعاء مختصر . اللهم إني أبرأ إليك من حولي وقوتي ، وألجأ إلى حولك وقوتك ، أحمدك على أن أوجدتني من العدم . وفضلتني على كثير من الأمم . وجعلت في يدي زمام خلقك . واستخلفتني على أرضك . اللهم فخذ بيدي في المضايق ، واكشف لي وجوه الحقائق . ووفقني لما تحب ، واعصِمني من الزلل ولا تسلب عني سِتر إحسانك وقِني مصارعَ السُّوء واكفِني كيدَ الحُسَّاد وشماتةَ الأضداد وألطُف بي في سائر متصرَّفاتي . واكفني من جميع جهاتي . يا أرحمَ الراحمين .

ويحسن بالملك الفاضل إكرامُ فضلاء رعيته واختصاصهم بالبر، قال بعض الحكماء: لا يجوز أن يكون الفاضل من الرجال إلاّ مع الملوك مكرَّماً أو مع النسَّاك متبتِّلًا كالفيل لا يحسن أن يُرى إلاّ في موضعين: إمَّا في البرِّيّة وحشياً، وإما للملوك مَرْكباً، كما قال الشاعر: (وافر)

كمِثْلِ الفيل إما عند مَلْكٍ وإما في مراتِعِهِ مَنِيعا

ومما يكره للملِك مخالطة الأنذال والسُّوقة والجهال، فان سماع ألفاظهم الساقطةِ ومعانيهم المرذولة وعباراتهم الدنيّة مما يَحُطُّ الهمة ويضع المنزلة ويُصدىء القلب ويُزرى بالمَلِك؛ ومخالطة الأشراف ومعاشرة أفاضل الرجال مما يُعلى الهمة ويُذكى القلب وَيفْتُق الذهن ويبسُط اللسان، وتلك قاعدة مُطرِدة للملوك، ما زالوا يُدْخِلون إليهم عوامَّ الرعية ويعاشرونهم ويستخدمونهم، ولم يَخْلُ أحد من الخلفاء من مثل هذا، وكأنّ لسان حالهم يقول: نحن نُخَلِّى الكبار كباراً فاذا اختصصنا عامياً نوهنا بذكره وقدمناه حتى يصيرَ من الخواص، كما أننا إذا أعرضنا عن أحد من الخواص أرذلناه حتى يصيرَ من أراذل العوام، وكذلك هو فان هذه خاصِّيَّةٌ من خواص الملك، وقد سبق ذكرها، وكل هـذا مأخوذ من الخواص الألْهِيَة، فان العناية الالهية إذا صدرت ذرَّةٌ منها إلى النفوس صار ذلك الإنسان نبياً أو إماماً أو ملكاً؛ وإذا صدرت في حق الزمان صار ذلك اليوم يومَ العيد الكبير وليلةَ القدر وأيامَ الحج وأيامَ المواسم والزيارات لسائر الأمم؛ وإذا صدرت تلك الذرَّة في حق المكان صار بيتَ مكةَ والبيتَ المُقدَّس والمشاهدَ والجوامع والزيارات والمتعبَّداتِ ومواضعَ التَّقرُّبات

وها هنا موضع حكاية، كان ببغداد حمَّال يقال له عبد الغنى بن الدرنوس فتوصل في أيام المستنصر حتى صار برَّاجا في بعض أبراج دار الخليفة، فما زال يُحْسِن التوصل

إلى ولد المستنصر وهو المستعصم آخر الخلفاء ، وكان فى زمن أبيه محبوساً فما زال هذا البراج يتعهده بالخدمة طول مدة الأيام المستنصرية إلى أن تُوُفى المستنصر ، وجلس على سرير الخلافة ولده أبو أحمدَ عبد الله المستعصم فعرَف لهذا البرّاج حقّ الخدمة ، ورتّبهُ متقدّمَ البرّاجين ، وفى آخر الأمر استحبه فى باطن داره ، واختصه وقدّمه حتى بلغ إلى أنه صار إذا دخل إلى الوزير ينهض له ويُخْلى المجلس من جميع الناس إذا كان ابن الدرنوس حاضراً ، وسبب إخلاء المجلس الوزيرى عند حضور ابن الدرنوس أنه يمْكنُ أن يكون قد جاء فى مشافهة من عند الخليفة ، ولُقّب نجمَ الدين الخاص ، وصار من أخص الناس بالخليفة . وبلغ من منزلته أنه كان يتعصب لصاحب الديوان عند الخليفة ، وكان صاحب الديوان يعرض مطالعاته ومهامّهُ على يد نجم الدين الخاص ، وكان يُمِدُّه فى كل سنة بمال طائل حتى يحفظ غيبَه ، ويُزَكّيَه فى الحضرة الخليفية .

وجرَى بينى وبين جمالِ الدين علىّ بن محمد الدستجردانىّ (رحمه الله) كلام فى معنى هذا ابن الدرنوس ، فصوَّبت أنا رأى المستعصم فى الإحسان إليه ، وقلت إنّه خدمَه وأثبتَ عليه حقاً وقد كافأه فلا عيب فى هذا ، وقال جمال الدين (رحمه الله) ما معناه إن تسليطه لمثل ذلك الأحمق على أعراض الناس وأموالهم وإدخاله فى المملكة حتى كاد أن يُوَلِّىَ الوزراء ويعزلهم قبيحٌ من المستعصم دليلٌ على جهله . وإلا فإن كَانَ مراده الإحسانَ إليه مكافأة له على سابق خدمته فقد كان يجب أن يكون ذلك بمال يعطاه أو برفع منزلة لا يختلّ بسببها أمرٌ فى المملكة ، ولا يتطرق بها قَدْحٌ فى عقل الخليفة ؛ وكان نظر جمال الدين فى هذا المعنى أدق من نظرى ، والحق فى جانبه (رحمه الله) ، وكانت هذه المفاوضة بينى وبينه فى كتاب كتبتهُ إليه اقتضى الحال فيه ذكرَ هذه القضية وكتب هو الجواب عنه ، وأعاد كتابى إلىّ

لأنى التمست منه إعادة كتابى ، والكتابان هما فى هذا التاريخ عندى بخطى وخطه (رحمه الله) .

ومما يليق بالملك الفاضل ويُكمِل فضله أن يكون عالى الهمة رحيب الصدر محباً للرياسة مُعِدًّا لها أسبابها طامح البصر إليها مُعْمِلًا فكره فى توسيع مملكته وعلوّ درجته غيرَ مُخْلِد إلى التنعم ولا جانح إلى الترف ولا منهمك فى اللذات . قال بعض حكماء الفرس همم الناس صغار ، وهمم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شىء عظيم ، وألباب السُّوقة مشغولة بأيسر الأشياء . وليعلم الملك أن الرياسة عَروسٌ مُهورُها الأنفس . نظر معاوية إلى عسكر أمير المؤمنين علىّ (عليه السلام) فى صِفِّين فالتفت إلى عمرو بن العاص وقال : من يطلبْ عظيماً يخاطرْ بعظيم ، وإنى نظرتُ فيما أحاولُ فإذا الموتُ فى طلب العزّ أحسنُ عاقبةً من الحياة مع الذل . قال بعض الشعراء : (طويل)

هى النفس إن ماتت فقد مات قبلها   كرامٌ وإن تسلَمْ فللحدَثانِ
إذا النفس لم تَشْرَه إلى طلب العلا   فتلك من الأموات فى الحيوانِ

ومن الغاية فى هذا المعنى قول امرئ القيس (طويل)

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشةٍ   كفانى — ولم أطلب — قليلٌ من المال
ولكنّما أسعى لمجد مؤثَّلٍ   وقد يُدرك المجد المؤثَّلَ أمثالى

ومما يُكمِل فضيلة الملك أن تكون قوة الاختيار عنده سليمةً لم تعترضها آفة ، فيكونُ يختارُ الرجال اختيارًا فاصلاً . كان الناصر آية الدنيا فى اختيار الرجال ، فكان من توصُّلاته إلى معرفة الرجل إن أشكل عليه حاله أن يُشيع بين الناس أنه يريد أن يولِّيه المنصِب الفلانى ، ثم يتمادى فى إبرام ذلك أيامًا فيمتلئ البلد بالأراجيف لذلك الرجل ، فيفترق فيه الناس فقوم يصوّبون ذلك الرأى ويَصِفون

فضائل الرجل ، وقوم يغلِّطون الخليفة ويذكرون عيوب الرجل ، وللخليفة عيون وأصحاب أخبار لا يؤبَه لهم يخالطون أصناف الناس ، فيكتب أصحاب الأخبار إليه بما الناس فيه من الْغَلَيَان فى ذلك فيعرف بصحة نظره وتمييزه أىَّ القولين أرجحُ وأصوبُ ، فإن رجح فى نظره تفضيلُ الرجل ولّاه وخلع عليه ، وإن ترجَّح عنده قولُ الطاعنين عليه وتبين له نَقْصُه تركهُ وأعرض عنه . وفى الجملة فحسن الاختيار أصل عظيم . قال الشاعر : (بسيط)

من كان راعِيهِ ذئباً فى حَلُوبته　　فهْوَ الذى نفسَه فى أمره ظَلَمَا

يرجو كفايتَهُ والغـدرُ عادتُه　　ومن يُرِدْ خائناً يستشعر النَّدما

ومما يكره للملوك المبالغة فى الميـل إلى النساء والانهماك فى محبتهن . فأما مشاورتهن فى الأمور فمَجْلبة للعجز ومَدْعاة إلى الفساد ومَنْبهة على ضعف الرأى ، اللهمَّ إلاَّ أن تكون مشاورتُهن يُراد بها مخالفتُهن ، كما قال (عليه السلام) « شاوِروهُنَّ وخالِفُوهُنَّ » وفى هذا الحديث سؤال وجواب ، إن قال قائل إذا كان المراد مخالفتَهنّ فى آرائهن فأىُّ فائدة فى الأمر بمشاورتهنّ ، وقد كان يكفى فى هذا أن يُقال خالفوهُنّ فيما يُشِرْنَ به . فالجوابُ من وجهين : أحدُهما أن الأمر الأول للإباحة ، والأمرَ الثانىَ للوجوب ، يعنى إذا شاورتموهُنَّ فخالفوهُنَّ . والآخرُ : أن الصوابَ لا يزال فى خلاف آرائهن ، فإذا أشكل عليكم الصوابُ فشاوروهنّ فإذا مِلْنَ إلى شىء فاعلموا أنّ الصوابَ فى خلافه ، وفى هذا تظهر فائدة الأمر بمشاورتهن ، يعنى بها يُستدَلُّ على الصواب . وَحدثَ أن عَضُدَ الدولة فنَّاخُسْرَوْ بن بُويه شغفته امرأةٌ من جواريه حبًا ، فاشتغل بها عن تدبير المملكة حتى ظهرَ الخللُ فى مملكته ، فخلا به وزيره وقال له أيُّها الملك إن هذه الجارية قد شغلتك عن مصالح دولتك ، حتى لقد تطرق النقص عليها من عدة

جهات ، وما سببُ ذلك إلا اشتغالُك عن إصلاح دولتك بهذه الأمة ، والصواب أن تتركها وتلتفت إلى إصلاح ما قد فسد من مملكتك ، قال فبعد أيام جلس عَضُدُ الدولة على مُشْتَرَفٍ له على دِجلة ثم استدعى الجارية فحضرت فشاغَلَهَا ساعة حتى غفلت عن نفسها ثم دفعها إلى دجلة فغرقت ، وتفرَّغ خاطرُه من حبها واشتغل بإصلاح أمور دولته ، فاستعظم الناس هذا الفعل من عضدِ الدولة ونسبوه فيه إلى قوَّة النفس حين قويت نفسه على قتل محبوبته .

وأنا أستدِلُ بهذا الفعل على ضعف نفس عضد الدولة لا على قوَّتها ، فإنهُ لو لم يُحسَّ من نفسه بالانفعال العظيم لحبها لمَا توصل إلى عدمها ، ولو تركها حيّةً ثم أعرض عنها لكان ذلك هو الدليلَ على قوَّة نفسه .

ولكل صِنفٍ من الرعية صِنفٌ من السياسة : فالأفاضل يُساسون بمكارم الأخلاق والإرشاد اللطيف ، والأوساط يساسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة ، والعوامّ يساسون بالرهبة وإلزامِهم الجَدَدَ المستقيم وقَسْرِهم على الحقِّ الصريح .

واعلم أن الملكَ لرعيته كالطبيب للمريض ، إن كان مِزاجه لطيفاً لطَّفَ له التدبيرَ ودسَّ له الأدوية المكروهة فى الأشياء الطيبة ، وتحيَّل عليه بكل ممكن حتى يبلغ غرضَه من بُرْئِه ، وإن كان مِزاجه غليظاً عالجه بمُرِّ العلاج وصريحِهِ وشديده ، ولذلك لا ينبغى للملك أن يتهدّدَ من يكفى فى تأديبهِ الإعراضُ والتقطيب ، وكذلك لا ينبغى أن يحبس من يكفى فى تأديبه التهديد ، كما أنه لا ينبغى أن يضرب من يكفى فى تأديبه الحبس ، ولا أن يقتل بالسيف من يكفى فى تأديبه ضربُ العصا ، وتمييزُ هذه الحالات بعضِها من بعض أعنى معرفةَ المِزَاج الذى يكفى فيه التهديد ولا يحتاج إلى الحبس أو يكفى فيه الحبس ولا يحتاج إلى الضرب ، يحتاج إلى لُطْف حَدْس وصحة تمييز وصفاء خاطر ويقظةٍ تامة وفطانة

كاملة ، فما أشدَّ ما تشتبه الأخلاق وتَلْتَبِس الأمزجة والطباع .

ويجب على المَلِك أن ينظر فى أمر القتل وإزهاق النفس فيعلم أنه الحادث الذى لا حياة للحيوان بعده فى الدنيا ، وأنه لو اجتهد أهل الأرض كلهم على إعادته إلى الحياة لم يقدروا على ذلك ، وبحَسَب هذا الحال يجب أن يكون تثبُّته فى إزهاق النفس وهدمِ الصورة ، وتأنِّيه وتروِّيه حتى تقوم الأدلة على وجوب القتل ، فإذا وجب استعمله على الوضع المعهود من غير تأنق فيه وتنوُّع غريب وتمثيل بالمقتول ورد عن سيد البشر (صلوات الله عليه وسلامه) : « إياكم والمُثْلَة ولو بالكلب العقور » . ولما ضرب ابنُ مُلْجَم لعنه الله علىَّ بن أبى طالب بالسيف قُبض ابن ملجم وحُبس حتى ينظرَ ما يكون من أمر علىّ (عليه السلام) ، فجمع علىٌّ ولده وخاصَّته وقال: يا بنى عبد المطلب، لا تجتمعوا من كل صوب تقولون قُتِلَ أميرُ المؤمنين قُتِل أمير المؤمنين لا تمثِّلوا بالرجل، فإنى سمعتُ (رسول الله صلى الله عليه وسلم) ينْهَى عن المُثْلَة ولو بالكلب العقور، وانظروا إذا أنا مِتُّ من ضربتى هذه فاضربوا الرجل ضربة بضربة

ومن فوائد التأنى والتثبتِ فى القتل الأمْنُ من الندم حين لا يُجدى الندم . كان أفاضل الملوك والخلفاء يستعملون هذه الخَصلة كثيراً ، فلا يُسرعون إلى قتل رجل معروفٍ مشهورٍ خوفاً أن يحتاجوا إليه بعد ذلك فيتعذَّر عليهم ، بل كانوا يحبسونه فى غوامض دُورهم ويقيمون له كلَّ ما يحتاج إليه من أطعمة شهية وفواكهَ وثلج وأشربةٍ وفرشٍ وثير ، ويحملون إليه كُتباً يلهو بها ، ويقطعون خبره عن الناس حتى يثبت فى نفوس أهله وأصحابه أنه قد هلك ، ثم يُسْتصفَى أمواله وأموالُ أصحابه ويُستخرج ذخائرُه وودائعه ويصيرُ فى عِداد الموتى ، فلا يزال كذلك حتى تدعوهم الحاجة إليه فيخرجوه مكرَّماً وقد تأدَّب وتهذَّب

(منسرح)

من لم يُؤَدِّبه والداه　　أدَّبه الليلُ والنهارُ

وها هنا مزلّة ربما وقع فيها أفاضل الملوك ، وهى أن بعض الملوك ربما كان مُعْجَباً بنفسه محباً لأن ينتشر عنهُ حديث صرامةٍ وشهامة وسياسة قاهرة فيستهين بالقتل ويُسَهِّل أمره ويبادر إليهِ ، وغرضُه إثباتُ الهيبةِ وإقامةُ السياسة من غير التفات إلى ما فى طىّ ذلك من إزهاق النفس التى حُرِّمت إلا بالحق ، وهذا من أخطر الأمور على الملك ، والصوابُ ألاّ يزال فى نفسه كارها للقتل صادفاً عنه مهما أمكن حتى تدعوَ إليهِ ضرورةٌ ليس فيها حيلة ، فحينئذٍ يُقْدِمُ عليه بنفس قوية وجنَان ثابت ، فإنَّ قتلَ واحدٍ أصْلَحُ من تَرْكِهِ حتى يُحتاج إلى قتْل خمسةٍ ، وقتلَ خمسةٍ خيرٌ من تركهم حتى يدبَّ فسادُهم حتى تبلغ الحاجة إلى قتْل مائة ، ومن أجل ذلك قال الله (تعالى) : « وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، وقيل : القتل أنفى للقتل ، وقال الشاعر (طويل)

بسفك الدِّما يا جارتى تُحقَن الدِّما وبالقتل تنجُو كلُّ نفس من القتلِ

وقال المتنبىء : (كامل)

لا يَسْلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدَّمُ

أوصى بعضُ الحكماء بعضَ الملوك قال : أيها الملكُ إنما هو سيفكَ ودرهمُك ، فازرع بهذا مَنْ شَكَرَكَ واحصُد بهذا من كفرَكَ . جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقال له يا رسول الله : خذ الحدَّ منى ، فأعرض عنه رسول الله والتفت إلى يمينه ، فدارَ الرجل حتى حاذاه وأعاد القول ، فأعرض (عليه السلام) عنه مرةً أخرى فعاود القولَ والتمس أَخْذَ الحدِّ منه ، فكره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ازهاقَ نفسه والتفت إلى أهل الرجل وأصحابه كمَنْ يعلّمهم الاعتذار عنه ، وقال كأنه متغير فى عقله ، قالوا لا يا رسول الله ما نعرِفه إلا عاقلاً ، فحينئذٍ لم يبقَ للنبى (صلى الله عليه وسلم) حيلةٌ فأمر باستيفاء

الحد منه . والمطاميرُ الغامضة التخليدُ فيها يقوم مَقام القتل مع الأمن من الندم المخشِيِّ فيه . وأما أصناف العقوبات فيجب على الملك الكامل أن يُنْعِم النظر فيها أيضاً ، فكم من عقوبة قد أتتْ على مهجة المعاقَب من غير أن يُراد إزهاق نفسه . وأصعبُ ما فيها التعذيب بالنار وهى عقوبة غيرُ مباركة ، لأن العقوبة بالنار مختصةٌ بالله (عزّ وجل) ، فلا يجوز للعبد أن يشاركه فيها . والنظر فى أصناف العقوبات موكّلٌ إلى نظر الملك الفاضل ، وبِحَسَب ما يقتضيه الحالُ الحاضر ، ولكنَّ الأصل الكُلِّيَّ فيه أن يكون الملك فى نفسه كارهاً لذلك غيرَ متحَلٍّ به ، لا يبادر إليه ولا يُقدِم عليه إلا إذا دعت إليه ضرورةٌ ماسّة لا يقضى فيها حقَّ نفسه ولا يَشفى بها غيظَ صدره ، وهذا مقام صعب لا يرتقى إليه أحد إلا من أخذ التوفيقُ بيده . قيل إن علياً (عليه السلام) صَرَع فى بعض حروبه رجلاً ثم قعد على صدره ليحتزّ رأسه ، فبصق ذلك الرجل فى وجهه فقام علىّ (عليه السلام) وتركه ، فلما سُئل عن سبب قيامه وتركِهِ قَتْلَ الرجل بعد التمكن منه قال : إنه لما بصق فى وجهى اغتظت منه نخفت إن قتلته أن يكون للغضب والغيظ نصيبٌ فى قتله ، وما كنت أُحِبُّ أن أقتله إلا خالصاً لوجه الله (تعالى) . قال أَبْرَوِيزُ : الملوكُ يشتمون بالأفعال لا بالأقوال ، ويَسْفُهون بالأيدى لا بالألسن ، وقد نظم هذا المعنى شاعرُ العرب فقال : (طويل)

وتجهلُ أيدينا ويَحْلُمُ رأيُنا ... ونشتُم بالأفعال لا بالتكلمِ

ومما يكره للملك الانهماك فى اللذات وسماع الأغانى وقطع الزمان بذلك ، قال الشاعر أبو الفتح البُسْتى : (بسيط)

إذا غـدا مَلِكٌ باللهو مشتغلاً ... فاحكُم على مُلْكِهِ بالويل والحَرَب

أما تَرَى الشمسَ فى الميزان هابطةً ... لمّا غدا وهو بُرْجُ اللهو والطرب

وما دخل الخِذلان عَلَى مَلِك من طريق اللهو واللعب كما دخل على جلال الدين ابن خوارزم شاه ، فإنه لما هرب من المغول تَبعوه فكان إذا رحل عن بلدة نزلوها بعْدَه، وإذا أصبح فى مكان أمسَوْا هم فى المكان يريدون قَصْدَه ، وهو مع ذلك مواصِلٌ لشرب الخمر عاكف على الدفّ والزمر لا ينام إلا سكرانَ ، ولا يصبح إلا مخمورًا نَشْوَانَ ، وعسكره فى كل يوم يَقِلُّ وأمرُه كلَّ يوم يزيد اضطرابًا ورأيُه فى كل لحظة يفيل وحَدُّه يُفَلّ ، وهو لا يشعر بذلك ولا يلتفت إليه حتى قال شاعرُه يخاطبه :

(دوبيت)

شاها زمى كران جه برجواهد خاست
وز مستى هر زمان جه برخواهد خاست
شه مست وجهان خراب ودشمن بس وبيش
بيداست كه أزين ميان جه برخواهد خاست

وممن دخل النقص عليه من الملوك بسبب اللهو واللعب محمدُ بن زُبَيْدَة الأمينُ ، كان كثير اللهو واللعب منهمكاً فى اللذات ، قيل إنه لَعِب يوماً هو ووزيره الفضلُ بن الربيع بالنرْد فتراهنا فى خاتميهما ، فغلب الأمينُ فأخذ الخاتمَ ، وأرسل فى الحال وأحضر صائغاً ، وكان على خاتمه مكتوبٌ «الفضل بن الربيع»، فقال للصائغ: اكتُب تحته «يُصفع» ، فنقش الصائغ ذلك فى الحال ثم أعاد الخاتم إلى الفضل ابن الربيع ، وهو لا يعلم ما نُقِش عليه ، ثم مضت على ذلك مدَّة ، فبعد أيام دخل الفضل بن الربيع عليه فقال له : ما عَلَى خاتمك مكتوب ؟ قال : اسمى واسم أبى ، فتناوله الأمين ثم قال له : ما هذا المكتوب تحت اسمك ؟ فلما قرأه الفضل بن الربيع فَهِم القضيةَ وقال لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم ، هذا والله هو الخِذْلان المبين ، أنا وزيرك وَلِيَ اليومَ كذا وكذا يوماً أختم الكتب بهذا إلى الأطراف وهو

على هذه الصفة ، هذا واللهِ آخرُ الدولة ودَمارُها ! والله لا أفلحتَ ولا أفلحنا معك ، فكانت الفتنة بعد ذلك بيسير .

وكان المستعصِم آخرُ الخلفاء شديدَ الكَلَف باللهو واللعب وسماع الأغانى ، لا يكاد مجلسُه يخلو من ذلك ساعة واحدةً ، وكان ندماؤه وحاشيته جميعُم منهمكين معه على التنعم واللذات ، لا يراعون له صلاحا ، وفى بعض الأمثال « الحائن لا يَسْمع صياحاً » وكُتِبت له الرقاع من العوام ، وفيها أنواع التحذير ، وأُلْقِيت وفيها الأشعار فى أبواب دار الخلافة ، فمن ذلك (مجتث)

قل للخليفة مَهْلاً — أتاك ما لا تُحِبُّ
ها قد دَهَتْك فُنون — من المصائب غُرْبُ
فانهض بعزم وإلاّ — غشَاكَ وَيْل وحَرْبُ
كَسْرٌ وهَتْكٌ وأسْر — ضرب ونهب وسلب

وفى ذلك يقول بعض شعراء الدولة المستعصِمية من قصيدة أولها :

(بسيط)

يا سائلى ولمحض الحق يَرْتادُ — أصِخْ فعندىَ نِشْدانٌ وإنشادُ
واضَيْعَةَ الناس والدينِ الحنيف وما — تلقاه من حادثات الدهر بغداد
هتك وقتل وأَحْدَاثٌ يشيب بها — رأس الوليدِ وتعذيبٌ وأصْفَاد

كل ذلك وهو عاكف على سماع الأغانى واستماع المثالث والمثَانى ، ومُلْكه قد أصبح واهِىَ المبانى .

ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب ، وفى تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو إليه يطلب منه مَنْجَنيقات وآلات الحصار ، فقال بدر الدين : انظروا إلى المطلوبين وابكوا

على الإسلام وأهله ، وبلغنى أن الوزير مؤيَّدَ الدين محمد بن العَلْقَمى كان فى أواخر الدولة المستعصمية يُنشد دائماً : (خفيف)

كيف يُرْجَى الصلاحُ من أمرِ قومٍ ضيَّعوا الحزمَ فيهِ أىَّ ضياعِ

فمطاعٌ والمقال غيرُ سديد وسديدُ المقال غيرُ مطاع

قالوا : ولا ينبغى للرجل الكامل إلاّ أن يكون فى الغاية القُصْوى من طلب الرياسة ، أو فى الغاية القصوى من تركها (وافر)

إذا ما لم تكن مَلِكاً مُطاعا فكن عبداً لخالقه مُطيعا

وإن لم تملك الدنيا جميعاً كما تهواه فاتركْها جميعا

وهاهنا موضع حكاية تشتمل على أدوات الرياسة ، قيل ورد أبو طالب الجارحى الكاتب ولم يكن فى عصره أكتبُ ولا أفضلُ منهُ إلى الرَّىّ قاصداً حضرةَ ابن العميد ، فلم يجد عنده قبولاً ولا رأى عنده ما يُحِبُّ ، ففارقهُ وقصد أذْرَبيجانَ وسار إلى ملكها ، وكان فاضلاً لبيباً فلما اختبره وعرف فضله سأله المُقامَ عنده وأفْضَلَ عليه ، فأقام لديه على أفضل حال ، فكتب إلى ابن العميد يوبِّخهُ على جهل حقه وتضييعِه لمثله من جملة الكتاب :

حدِّثنى بأىّ شىء تحتجُّ إذا قيل لك لِمَ سُمِّيت الرئيسَ ؟ وإذا قيل لك ما الرياسة ؟ أتدرى ما الرياسة ؟ الرياسة أن يكون باب الرئيس مصوناً فى وقت الصَوْن ، ومفتوحا فى وقت الفتح ، وأن يكون مجلسه عامراً بأفاضل الناس ، وخيرُه واصلاً إلى كل أحد ، وإحسانه فائضاً ، ووجهه مبسوطاً ، وخادمهُ مؤدباً ، وحاجبهُ كريماً طلقاً ، وبوَّابه لطيفاً ، ودِرْهمه مبذولاً ، وطعامه مأكولاً ، وجاههُ مُعرَّضاً ، وتذكرتُه مُسوَّدةً بالصِّلات والجوائز والصدقات ، وأنت فبابك لا يزال مُقفَلاً ، ومجلسك خالياً ، وخيرك مقنوطاً منه ، وإحسانك غيرَ

مرجوّ وخادمك مذموماً ، وحاجبك هـرّاراً ، وبوّابك شَرِس الأخلاق ، ودرهمك فى العَيُّوق ، وتذكِرتك محشوّة بالقبض على فلان واستئصال فلان ونفى فلان ، فبالله عليك هل عندك غيرُ هذا ؟ ولولا أن أكون قد دُستُ بِساطك ، وأكلتُ من طعامك ، لأشعتُ هذه الرُقْعَة ولكنى أرعَى لك حق ما ذكرت ، فلا يَعْلم بها إلاّ اللهُ وأنت ، ووالله ثم والله ثم والله ما لها عندى نُسْخةٌ ولارآها مخلوق غيرى ولا علم بها ، فأبطِلْها أنت إذا وقفت عليها وأعدِمْها وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى .

ويجب أن يكون الملك مجازياً على الإحسان بمثله وعلى الإساءة بمثلها ، لتكون رعيته دائماً راجين لبِرّه خائفين من سطوته ، وما أحسنَ قولَ النابغة للنُعْمان بن المُنْذِر فى هذا الباب وهو (بسيط)

ومن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادْلُله على الرَشَدِ
ومن عصاك فعاقِبْهُ معاقبةً تنهَى الظلوم ولا تَقْعُدْ على ضَمَد

وقالت الفُرْس : فسادُ المملكة واستِجْراء الرعية وخرابُ البلاد بأبطال الوعد والوعيد ، ولا يليق بالملك الفاضل أن يكون افتخاره بزخارف الملك مما حوته يده ، واشتملت عليه خِزَانته من نفائس الذخائر وطرائف المقتنيَات ، فان تلك تُرُّهاتٌ لا حقائق لها ، ولا مُعرَّجَ لفاضل عليها ، وكذلك لا ينبغى له أن يكون فخره بالآباء والأجداد ، وإنما ينبغى أن يكون فخره بالفضائل التى حصّلها ، والأخلاق التى كمّلها ، والآداب التى استفادها ، والأدوات التى استجادها .

افتخر بعض الأغنياء عند بعض الحكماء بالآباء والأجداد وبزخارف المال المستفاد فقال له ذلك الحكيم : إن كان فى هذه الأشياء فخر فينبغى أن يكون الفخر لها لا لك ، وان كان آباؤك كما ذكرتَ أشرافاً فالفخر لهم لا لك .

قال العَسْجَدِى : كان بعض الحكماء إذا وُصِف عنده إنسان يقول هو عِصَامِىّ أم عِظَامِىّ ؟ فإن قيل له هو عصامىّ نَبُل فى عينه ، وإن قيل هو عظامىّ لم يكترث به ، وقوله عصامىّ إشارة إلى قول القائل (رجز)

نفسُ عِصام سوَّدت عصاما   وعلَّمته الكرَّ والإقداما
وصيَّرته مَلِكاً هُماما

يعنى أنهُ بعقله وبنفسهِ صار رئيساً ، وقوله عظامىّ يعنى أنهُ يفتخر بالآباء والأجداد والعِظام النَّخِرة ، قال العسجدى لبعض أصحاب ابن العميد ذى الكفايتَين : كيف رأيت الوزير ؟ فقال : رأيته يابس العُود ، ذميم العُهود ، سَيِّء الظن بالمعبود . فقال العسجدى : أما رأيت تلك الأُبَّهة والصِّيت والموكب والتجمُّل الظاهر والدار الجليلة والفَرْش السَنىّ والحاشية الجميلة ؟ فقال ذلك الرجل : الدولة غيرُ السودَد ، والسلطنة غير الكَرَم ، والحظ غير المَجْد . أين الزُّوار والمنْتَجِعون ؟ وأين الآمِلُون والشَّاكرون ؟ وأين الواصِفون الصادِقون ؟ وأين المنصرِفون الرَّاضون ؟ وأين الهِبات وأين التفضُّلات ؟ وأين الخِلَع والتشريفات ؟ وأين الهَدايا وأين الضِّيافات ؟ هيهات هيهات لا تجىء الرياسة بالتُرَّهات ولا يحصل الشرف بالخُزَعْبلات أما سمعتَ قول الشاعر (متقارب)

أبا جعفرٍ ليس فضلُ الفتى   إذا راح فى فرط إعجابهِ
ولا فى فراهةِ بِرْذَوْنه   ولا فى ملاحة أثوابه
ولكنه فى الفعال الجميل   والكَرَمِ الأشرف النَّابه

ولمؤلف هذا الكتاب (أصلح الله شأنه ، وصانه عما شانه) فى هذا المعنى (خفيف)

ليس فضل الفتى على الناس فى ثو   بٍ ودارٍ وبغلةٍ ولجامِ
إنما الفضلُ فى تفقد جارٍ   ونَسِيب وصاحبٍ وغلام

قالوا السياسات خمسة أنواع : سياسة المنزل والقَرْية والمدينة والجيش والمُلْك ، فمن حَسُنت سياسته فى منزله حسنت سياسته فى قريته ، ومن حسنت سياسته فى قريته حسنت سياسته فى مدينته ، ومن حسنت سياسته فى مدينته حسنت سياسته للجيش ، ومن حسنت سياسته للجيش حسنت سياسته للمُلْك ، وأنا لا أرى هذا لازماً ، فكم من عامىّ حَسَنِ السياسة لمنزله ليس له قوة سياسةِ الأمور الكبار ، وكم من مَلِكٍ حَسَنِ السياسة لمملكته ليس يُحسن سياسة منزله ، والمملكة تحْرَسُ بالسيف وتُدَبَّر بالقلم ، واختلفوا فى السيف والقلم أيُّهما أفضل وأولى بالتقديم ، فقوم يرَوْن أن يكون القلم غالباً للسيف ، واحتجوا على مذهبهم لأن السيف يحفظ القلم فهو يجرى معه مجرى الحارس والخادم ، وقوم يرَوْن أن يكون السيف هو الغالبَ ، واحتجوا بأن القلم يخدم السيف لأنه يُحَصِّل لأصحاب السيوف أرزاقَهم فهو كالخادم له ، وقوم قالوا هما سواءٌ ولا غِنًى لأحدهما عن الآخر . قالوا المملكة تخصِب بالسخاء وتَعْمُر بالعدل وتَثبُت بالعقل وتحرَسُ بالشجاعة وتُسَاس بالرياسة ، وقالوا الشجاعة لصاحب الدولة . ومن وصايا الحكماء اجعل قتالَ عدوك آخرَ حيلتك ، وانتهز الفرصة وقت إمكانها ، وكِلِ الأمور إلى أكفائها ، ومن ركب ظهر العَجَلة لم يأمن الكَبْوة ، ومن عادى من لا طاقة له به فالرأى له مداراتُه وملاطفتُه والتضرعُ إليه ، حتى يخلصَ من شرِّه ببعض وجوه الخلاص ، قالوا وينبغى للملك ملاطفة أعدائهِ وأخوان أعدائهِ ، فبدوام الإحسان إليهم تزول عداوتهم ، وإن أصروا على عداوته بعد إحسانه كانوا قد بغَوْا عليه ، ومن بُغِىَ عليه فلينصرَنَّهُ الله . وعظ بعض الحكماء بعض أفاضل الملوك فقال :

الدنيا دُوَل ، فما كان فيها لك أتاكَ على ضعفك ، وما كان فيها عليك لم تدفعه

بقوتك ، والشرف مَخُوف ، ولا يخافه إلاّ العاقل ، والخير مَرْجُوٌّ يطلُبهُ كل أحد ، وطالما تأتى الخير من ناحية الشر ، وتأتى الشر من جهة الخير ، وهذا مأخوذ من قوله (عز وجل) « وَعَسَى أَنْ تَكرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ »

وها هنا موضع حكاية : تقدم نور الدين صاحب الشأم إلى أسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين يوسف بن أيوب بالتوجه إلى مصر لأمر نَدَبه إليه،فقال أسد الدين شيركوه : يا مولانا ما أتمكنُ من هذا دون أن يجىء صُحْبتى يوسفُ بن أخى ، يعنى صلاحَ الدين ، قال فتقدم نور الدين إلى صلاح الدين بالتوجه صُحْبَةَ عمهِ أسد الدين شيركوه ، فاستعفاه صلاح الدين من التوجه وقال : ليس لى استعداد ، فتقدم نور الدين بإزاحة عِلَلِهِ وجزم عليه فى التوجه ، قال صلاح الدين فخرجْتُ مع عمى كارهاً وأنا كمن يقاد إلى المذبح ، فلما وصلنا مصر وأقمنا بها مدّة كان مِنِّى ما كان من تملُّك مصر ؛ ثم ملكها صلاح الدين وعرُضت مملكته وتملَّك الشأمَ بعدها، وسيأتيك نبأُ هذا مفصَّلاً مشروحاً عند الكلام على الدولة الصلاحية إن شاء الله تعالى وَوَفَّق ، قالوا العدوُّ عدُوَّان : عدوّ ظالمك وعدوّ ظالمته ، فأما العدو الذى ظالمته فلا تثق إليه واحترز منه مهما أمكنك ، وأما العدو الذى ظالمك فلا تخفه كل الخوف فإنه ربما استحيا من ظالمك وندم فرجع لك إلى ما تحِبّ منه ، وإن أصرّ على ظالمك انتصَفَ لك منه مَنْ إليه يلجأ المظلومون .

وربما نفع العدوُّ وضرّ الصديق . قال الإسكندر انتفعت بأعدائى أكثرَ مما انتفعت بأصدقائى ، لأن أعدائى كانوا يعيِّروننى ويكشفون لى عيوبى وينبهوننى بذلك على الخطأ فأستدركه ، وكان أصدقائى يُزَيّنون لى الخطأ ويشجعوننى عليه . وقال الشاعر :

(طويل)

وما ساءني إلاّ الذين عرفتُهم جزى اللهُ خيراً كلَّ من لستُ أعرِفُ

وقيل للإسكندر : بِمَ نِلتَ هذه المملكة العظيمة على حداثة السن ؟ قال باستمالة الأعداء وتصييرهم بالبر والإحسان أصدقاء ، وَتعاهُدِ الأصدقاء بأعظم الإحسان وأبلغ الإكرام . قال بعض الحكماء : لا يَرُدّ بأسَ العدو القاهر مثلُ التذلل والخضوع ، كما أن النبات الرطب يَسْلم من الريح العاصفة بلينه لأنه يميل معها كيف مالت . وما لَهِجَ الملوك بشيء أشد من لَهَجِهم بالصيد والقنْص ، وهو الشيء الذى طالما اتفقت فيه النكت العجيبة ، والطرَف الغريبة ، وكان المعتصم ألهجَ الناس به ، بنى فى أرض دُجَيل حائطاً طوله فراسخُ كثيرة ، وكان إذا ضرب حَلْقة يضايقونها ولا يزالون يَحدُون الصيد حتى يدخلوه وراء ذلك الحائط فيصيرَ بين الحائط وبين دجلة ، فلا يكون للصيد مجال ، فاذا انحصر فى ذلك الموضع دخل هو وولده وأقاربه وخواص حاشيته وتأنّقوا فى القتل وتفرّجوا فقتلوا ما قتلوا وأطلقوا الباقى ، وقيل إن المعتصم دوّغ عِدّةً من حُمُر الوحش وأطلقها لأنه بلغه أن أعمارها طويلة .

وها هنا موضع حكاية طريفة عجيبة : حدثنى صفيُّ الدين عبد المؤمن بن فاخر الأرْمَوىّ قال حدثنى مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير قال : خرجنا مرة فى خدمة الخليفة المعتصم إلى الصيد ، وضربنا حلْقة قريباً من الجُلْهُمة ، وهى قرية بين بغداد والحِلّة ، ثم تضايقت الحلقة حتى صار الفارس منا يصيد الحيوان بيده فخرج فى جملة حُمُر الوحش حمار كبير الجثة عليه وَسْمٌ فقرأناه وإذا هو وسم المعتصم ، قال فلما رآه المستعصم وَسَمه بوسمه وأطلقه ، وكان بين المعتصم وبين المستعصم حدودُ خمسمائة سنة .

ومن طريف ما سمعت من أمر الصيد ما حدثنى به رجل من أهل الأدب

ببغداد قال : حدثنى محمد بن صالح البازيارى قال : تصيَّدْنا بين يدى السلطان أباقا يوماً ، فطار (ونحن بين يديه) ثلاثة كَراكى على سَمْت مستقيم ، فأطلقنا شاهيناً فَعَلاَ وانحط على الأعلى من الكراكى فلطمه ، فوقع على الثانى فكسره ، ثم وقعا كلاهما على الثالث فكسراه ، ووقعت الثلاثة بين يدى السلطان ، قال فتعجب من ذلك غايةَ التعجب وخلع علينا جميعنا . وقال الصاحب علاء الدين فى جهان كشاى إن حَلْقَة جنكزخان كان أَمَدُها مسيرَ ثلاثة شهور وما أرى هذا إلاّ مستبعَداً ، وما لِهج الملوك بالصيد هذا اللّهج الشديد ، ولا كَلِفوا به هذا الكلَف العظيم وأطلقوا للبازياريَّة الأموال الجليلة ، وأقطعوهم الاقطاعات السنِيَّة ، وسهَّلوا عليهم حجَابهم وقطعوا معظم زمانهم فيه باطلاً ولا عبثاً ، فإن القَنْص يشتمل على فوائدَ كثيرةٍ جليلة النفع ، منها (وهو الغرض الأشرف منه) تمرينُ العساكر على الرَّكْض والكرّ والعَطْف ، وتعويدُهم الفرُوسية وإدمانهم للرمى بالنُّشاب والضرب بالسيف والدَّبوس ، واعتيادُ القتل والسفك وتقليلُ المبالاة باراقة الدماء وغصب النفوس ، ومنها اختبار الخيول ومعرفةُ سبْقها وصبرِها على دوام الركض ، ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المِزاج ، ومنها فضل لحم الصيد على باقى اللحوم لأنه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية فتزيد فى حرارة الإنسان ، قال بعض الحكماء وخير اللحم ما أقلقه الجارح إقلاقاً ، ومنها الطُرَف العجيبة التى تتفق فيه ، وقد تقدم ذكر شىء منها .

وكان يزيدُ بن معاويةَ أشدَّ الناس كَلَفاً بالصيد لا يزال لاهياً به ، وكان يُلبِس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجِلال المنسوجة منهُ ، ويهب لكل كلب عبداً يخدُمه ، قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جبايةً وجعلها فى خزْن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من

الكوفة وقصد دِمشقَ ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دِمَشْقُ فى تلك الأيام فيها سرير الملك ، فلما وصل الرجل إلى ظاهر دمشقَ سأل عن يزيدَ فعرَّفوه أنهُ فى الصيد ، فكَرِه أن يدخل دمشقَ وليس يزيدُ حاضراً فيها ، فضرب مُخَيَّمه ظاهرَ المدينة وأقام به ينتظر عَوْد يزيدَ من الصيد ، فبينا هو فى بعض الأيام جالس فى خَيْمته لم يشعر إلاّ بكلبة قد دخلت عليه الخيمة ، وفى قوائمها الأساور الذهب ، وعليها جُلّ يساوى مبلغاً كثيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب وقدكادت تموت تعباً وعطشاً ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذّت منهُ ، فقام إليها وقدَّم لها ماء وتعهدها بنفسه ، فما شعر إلاّ بشابّ حَسَن الصورة على فرس جميل وعليه زىُّ الملوك ، وقد عَلَتْه غَبَرَة ، فقام إليهِ وسلَّم عليهِ ، فقال له : أرأيت كلبة عابرةً بهذا الموضع ؟ فقال : نعم يا مولانا ، ها هى فى الخيمة قد شَرِبت ماء واستراحت ، وقد كانت لمَّا جاءت إلى ها هنا جاءت على غاية من العطش والتعب ، فلماَّ سَمِع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بحبلها ليخرُج ، فشكا الرجل إليهِ حاله ، وعرَّفه ما أخذ منه عبيد الله بن زياد ، فطلب دواة وكتب له بردِّ ماله وخِلْعَةٍ سنيَّة ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرُدَّ الرجلُ من ساعته إلى الكوفة ولم يدخل دِمَشْق .

وكان السلطان مسعودٌ يبالغ أيضاً فى ذلك ويُلْبِس الكلاب الجِلال الأطلس الموشَّاة ويُسَوِّرها بالأساور ، وكان يقلّل فى بعض الوقت الالتفات إلى أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب النصرانىّ ، وكان فاضلاً ظريفاً فقال (كامل)

من كان يُلْبِس كلبَه وَشياً ويقنَع لى بجِلْدى
فالكلبُ خيرٌ عنده منى وخيرٌ منهُ عندى

وحدثنى الأمير فخر الدين بُغْدِى بن قَشْتُمر قال : ضرب جدّى الملكُ قشتمر

حَلْقَة للصيد ، فوقع فيها إنسان قصير جدًّا كصغير يكون عمره خمسَ سنين ، وقد طالت أظفاره وشَعْرُ بدنه طولاً مُفْرِطاً ، قال فأمسكوه وأحضروه بين يدى الناصر ، فاستنطقوه فلم ينطِق ، فأحضروا له الطعام فلم يأكل ، والماء فلم يشرب ، فاجتهدوا معه بكل ممكن على أن يتكلم وهو صامت لا ينطِق ببنت شفة ، فقال له بعض الحاضرين : فأىّ شيء تريد ؟ فلم يتكلم ، فقال له تريد نطلقك ؟ فحرَّك رأسه يعنى نعم ، قال فتقدم الناصر بإطلاقه فلما أُطْلِق عدا أشدّ من عَدْو الغزال ثم دخل البَرِّيَّة . سئل بُزُرْجمهْر عن أرْدَشير فقال : أحيا الليل للحِكْمة وفرغ النهار للسياسة وقيل له : لأىّ حال عمَّ كِسْرَى بمعروفه جميع رعيته ؟ قال : خوفاً أن يفوته المستحِق . قيل له : فكيف يمكن أن يعمَّ بمعروفه جميع رعيته ؟ قال : نعم ، كان ينوي لهم الخير ، فإذا نوى لهم الخير فقد عمَّهم بمعروفه . رُوى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنهُ أنه قال يزَع الله بالسلطان أكثرَ مما يزَع بالقرآن . قالوا لأن الناس يخافون من عواجل العقوبة أشدَّ مما يخافون من آجلها

ومما لا يليق بالملك الكامل الإفاضةُ فى مجلسه فى وصف الطعام والنساء لئلاّ يشارك بذلك العامّة ، لأنّ العامّة قد قنِعوا من عيشهم باليسير واقتصروا عليه وتركوا الأمور الكبار ، فإذا أرادوا أن يُفيضوا فى حديث لم يكن لهم إلاّ وصفُ أنواع الأطعمة ووصفُ أصناف النساء . وقال الأحنف بن قيس جنِّبوا مجالسَنا ذكرَ الطعام والنساء . قال أبرويز لابنهِ لا تُوَسّعَنَّ على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيِّق عليهم فيضجَروا منك ، وأعطهم عطاء قَصْداً ، وامنعهم منعاً جميلاً ، ووسّع عليهم فى الرجاء ، ولا توسع عليهم فى العطاء ؛ ولما سمِع المنصور هذا الكلام صادف منه موضعاً قابلاً للشحّ الغالب عليه . فقال هذا هو الرأى ، وهذا معنى قول القائل أجِـع كلبك يَتْبَعك ، فقام إليه بعض القوّاد وقال : يا أمير المؤمنين ،

أخاف أن يلوِّح له غيرُكَ برغيف فيدعَك ويتبعَه ، قالوا سياسة الرياسة أشدُّ من الرياسة ، كما أن سياسة الخدمة أشد من الخدمة ، وكما أن التوقى بعد شرب الدواء أشدُّ من الدواء ، وكذلك ربُّ الصنيعة أشد من الصنيعة ، وعلى الرئيس أن يصبر على مَضَض الرياسة . قال بعض حكماء الترك : ينبغى أن يكون فى قائد الجيش عشرُ خصال من أخلاق الحيوان ، جُرْأةُ الأسد ، وحِمْلَة الخِنْزِير ، وروَغان الثعلب ، وصبر الكلب على الجِراح ، وغارة الذئب ، وحِراسة الكُرْكِيّ ، وسخاء الديك ، وشفقة الدَّجاجة على الفراريج ، وحَذَر الغراب ، وسِمَن تَعْرو ، (وهى دابة تكون بخراسان تسمَن على السفر والكدّ) . قالوا والفاضل من طلاب الرياسة هو الذى يكون مطبوعاً على المعرفة ، مخلوقاً فيه صحة التمييز ، مكتسِباً للعلم بما جرى فى الدنيا من تصاريف الدُّهور وتنقُّل الدول ، عارفاً بمداراة الأعداء ، كتوماً لسره ، إذ كان قُطْب السياسة عليه يدور ، وأن يستَمِدَّ لعقله من عقول العقلاء ، فإن العقل الفرد لا يقوم بنفسه . وينبغى أن يكون ذا رَوِيَّة عند اشتباه الآراء ، وعزيمة عند اختلاف الأهواء حتى يَكْشِف .

وأما الحزم فهو الأصل الذى يُبْنى عليه فى تحصين المملكة ، وقد كان يجب تقديمه وذكرُه فى أول الكتاب عند أخوَاته من الخِصال المحمودة ، ولكن العقل يشتمل عليه ويستلزمه فاكْتُفِيَ بذكره عنه ، ولا بأس بذكر نُبْذة فى هذا الموضع منه : قالوا أحزم الملوك من مَلَك جدُّه هزلَه ، وقهر رأيه هواه ، وعبَّر عن ضميره فعلُه ، ولم يَخْتَدِعه رضاه عن حظِّه ، ولا غضبُه عن كَيْده . وكان يقال الحازم من الملوك من يبعث العيون على نفسه ويتفقدُها حتى لا يكون الناس بعيبه أعلمَ منه بعيب نفسه . وقالوا أحزم الملوك من حَمَل رعيته على التخلق بأخلاقه والتأدُّب بآدابه بالرِّفق والتوصُّل الحَسَن والتأنى اللطيف . وخطر لى فى

هذا المعنى سِرّ لطيف ، وهو أن الرعية إذا تدرَّجوا إلى التخلق بأخلاق الملك والتأدب بآدابه صاروا مستحسِنين لصادرات أحواله وأفعاله ، لأنهم هم يفعلونها ويعتمدونها فلا يصير أحد منهم يَذم سيرته ، ولا يُزْرِى عليه ، ومتى كانت طباعهم منافية لطباعه وأخلاقُهم مضادَّة لأخلاقه أُغْرُوا بالإزراء عليه والذَّم لأفعاله ، وهذا سر لطيف مُنْطَوٍ فى قولهم . وقالوا أحزم الملوك من تقدَّم بإحكام الأمر قبل نُزول حاجته ، وتدارُك المهم الخطر قبل وقوعه . قيل للإسكندر : ما علامة دوام الملك ؟ قال : الاقتداء بالحزم والجد فى كل الأمور . قيل : فما علامة زواله ؟ قال : الهَزْل فيه . وقال أنوشروانَ : الحزم حِفْظ ما وَلِيتَ وتَرْكُ ما كُفِيت . وقال آخر : أحزم الملوك من مَلَكَ أمره ودبَّر خِصاله وقمَع شهوته وقهر نوازعه . قالوا ينبغى أن يكون أول أمر الملك الحزم ، فإذا وقع الأمر فينبغى أن يكون حينئذ الجِدُّ والاجتهاد . قيل لبعض فضلاء الملوك : نراك إذا وَفَد عليك وافد أطلت مُجالسته ، وربما لا يكون أهلاً لذلك ، قال : إن حقيقة حال الرجل لا تبين فى مجلس أو مجلسين ، فأنا أطاول عِشْرته وأختبره فى عدّة مجالس ، فإن كان فاضلاً اصطفيتُه ، وإن كان ناقصاً تركتُه . وقال آخر : لا ينبغى لأحد أن يدع الحزم لظَفَر ناله عاجز ، ولا يرغبَ فى تضييعه لنَكْبَة دخلت على حازم . قالوا من لم يقدِّمه الحزم أخَّره العجز . وقيل لعبد الملك بن مروان : ما الحزم ؟ قال اختداع الناس بالمال واستمالتهم به ، فإنهم أتباعُه ، أين كان كانوا ، وكيف مال مالوا . وقال بعض الملوك لبعض الحكماء : متى تكون الثقة بالعدوّ حزماً ؟ قال إذا شاورته فى أمر هو لك وله . وقال مسلمة بن عبد الملك ما فَرِحتُ بظفر ابتدأتُه بعجز ، ولا نَدِمت على مكروه ابتدأته بحزم .

ومما يجب على الملك الفاضل إمعانُ النظر فى أمر الأسرار وصونُها

وتحصينها ، وحِراستها من الإفشاء والذِياع ، وهذا باب يُحْتاج فيه إلى التأنى التام ، فكم من مملكة خَربت ، وكم من نفس تَلِفت بسبب ظهور سر واحد ، وحفظ السر وكتمانه من أفضل ما اعتنى به الإنسان ؛ فمما جاء فى ذلك فى الحديث « مَنْ كتم سره مَلَكَ أمره » . وقال علىّ (عليه السلام) الرأى تحصين السر »

أسرّ بعض الناس إلى رجل حديثاً وأمره بكتمانه ، فلما انقضى الحديث قال له فَهِمت ؟ قال نَسِيتُ . وقال عمرو بن العاص إذا أفشيتُ سرى إلى صديق فأذاعه كان اللوم لى لا له ، قيل له وكيف ذلك ؟ قال لأنى أنا كنت أولى بِصِيانته منه . ومن أناشيد هذا الباب (طويل)

إذا ضاق صدرُ المرء عن سِرِّ نفسه فصدرُ الذى يُسْتَوْدَعُ السرَّ أضيقُ

قالوا لا ينبغى أن يكون سر الملك إلاَّ عند واحد ، فإنه إذا كان عند واحد كان أحرى ألاّ يظهر ، إما رغبةً وإما رهبةً ، لأنه إن ظهر تحقق الملك أن ظهوره قد كان من جهة ذلك الرجل ، ومتى كان السر عند جماعة ثم ظهر أحال كلُّ واحد منهم على الآخر ، فإن عاقبهم الملك جميعاً كان قد ظلمهم إلاّ واحداً ، وإن ترك معاقبتهم طَمِعوا وتطرَّقوا علَى إفشاء أسراره ، قال الشاعر (متقارب)

وسرُّكَ ما كان عند امرئٍ وسرُّ الثلاثة غيرُ الخفِى

فإن احتاج الملك إلى إظهار سره لجماعة فأصلح مالَهُ أن يُفْضِىَ به إلى كل واحد منهم على سبيل الانفراد ، ويوصيَه بالكتمان ويُوهِمَه أنه ما أفضى إلى غيره به ، فذلك أجدر لأن ينكتِم السر . شاور بعض ملوك الفُرْس وزراءه فى أمر ، فقال واحد منهم لا ينبغى للملك أن يستشير بأحدنا إلا خالياً به ، فإنه أكتم للسر وأحزم فى الرأى وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض

وما اعتنت دولة بتحصين الأسرار والمبالغة فى حفظها كالدولة العباسية ، فإن

لها من هذا الباب عجائبَ ، وكم من نعمة أزالوها عن أربابها ، ونَفْسٍ أزهقوها بسبب كلمة منقولة أو حكاية مَقُولة . جَرَى فى أيام الناصر قضية ظريفة لا بأس بذكرها ها هنا

كان للناصر ولدان هما ولدا وَلَده ، وكان قد أقطعهما بلاد خوزستان وتوجها إليها وأقاما بها ، ففى بعض الليالى أفكرَ الناصر فى أمرهما واشتاقهما وخاف عليهما من حادث يحدث بتلك الناحية ، فأرسل فى الحال إلى وزيره القُمّىّ وقال له : أرْسل فى هذه الساعة إليهما مَنْ يأمرهما بالوصول إلى بغداد ، ولا تُشْعِر بهذا مخلوقاً ، فأحضر الوزير نَجّاباً فى ذلك الحال ، وكان جماعةٌ من النجابين يبيتون فى كل ليلة بباب الديوان ، يبيت أحدهم وتحت رأسه رَاحِلَتُه وزادُه ونفقته ، وقد ودّع أهله ، فإن عرَضَ فى الليل مُهِمٌّ توجَّهَ فيه ، فلما حضر النَّجّاب بين يدى الوزير شافهه بالمراسلة ، وقال له تخرُجُ فى هذه الساعة وإياك أن يَعْلَم هذا أحدٌ فيكونَ عِوَضه نفسك ، ثم تقدم الوزير يحمل مِفتاح باب من أبواب السور له ، فلما مضى ليخرج اجتاز ببعض الدروب ، وامرأتان فى مِنْظرَتين متقابلتين تتحدَّثان ، فقالت إحداهما للأخرى ترَى هذا النجاب إلى أين يمشى فى هذا الوقت ؟ فقالت لها الأخرى : يمشى إلى دستر لإحضار أولاد الخليفة ، فإنه قد خاف عليهما ، وقد اشتاقهما لأنّ مُدَّتهما هناك قد طالت ، فلما سمع النجاب ذلك رَجع من ساعتهِ إلى الديوان واستأذن على الوزير ، فلما علم الوزير برجوعه انزعج لذلك وأحضره وسأله عن سبب عَوْده ، فقال له يا مولانا جرى الساعةَ فى الدرْب الفلانىّ كَيْتَ وكيت ، وخِفتُ أن أتوجَّهَ وينتشر هذا الحديث فما تشكُّون فى أننى أنا الذى أظهرته فيكون ذلك سبب هلاكى ، فقال له الوزير قد عرفنا ذلك ، أُخْرُجْ وتوجه فى أمان الله فإن الشياطين تنقل عظائم الأخبار . ومما يجرِى هذا المجرى ما حدثنى بهِ بعض

أهل بغداد ، قال حدثنى صديق لى قال : كنا نتمشى فى دُولاب بستان البَقْل ، وقد أمْعَنّاً فى الدخول إلى أقصاه فسمعنا صوت قائل يقول : مات أباقا ، قال : فنظرنا فلم نُبصِرْ أحداً ، ثم إننا أرَّخْنا اليوم ، فلما فشا الخبر كان كما قال . قيل إن صاحب الموصل وأظنه بدر الدين قال لمجد الدين بن الأثير الجَزَرِىّ : أريد أن تعَيّن لى فى هذه الساعة على رجل دَيّنٍ أمينٍ يكون موضعاً للسر ، حتى أحمِّله مشافهة سرية إلى الخليفة ويتوجه فى هذه الساعة ، فأفكَرَ ابن الأثير ساعة ثم قال : يا مولانا : ما أعرف أحداً بهذه الصفة إلا أخى ، قال : فقم وعرِّفه ذلك وأرسله إلى داره ، وحكى لأخيهِ ما جرى عند السلطان ، وقال له : يا أخى ، والله ما شَهِدت لك إلا بما أعرِفه منك ، فتوجَّهْ إلى خدمة السلطان ، وامتثل ما يشير به ، فحضر ابن الأثير عند السلطان وشافهه بالمراسلة ، وقال له : تتوجَّهُ فى هذه الساعة ، فحضر ابن الأثير إلى داره ليودّع أخاه فوجده قائماً فى الدهليز ينتظره ، فقال له : شافهك السلطان بالحديث ؟ قال نعم ، قال : فما هو ؟ قال : يا أخى الساعةَ شهدتَ لى عنده بالدِّين والأمانة وحفظ السر فيجوز أن أكذّبك فى الحال ؟ قال لى شيئاً ما أقوله إلا لمن أمرنى أن أقوله له ، قال فبكى مجد الدين أخوه ودعا له :

ومن الاشعار المقولة فى ذلك قول الحماسىّ : (طويل)

وفِتيانِ صدق لستُ مُطْلِعَ بعضِهم ... على سرِّ بعضٍ غيرَ أنى جِماعُها
لكل امرئ شِعْبٌ من القلب فارغٌ ... وموضعُ نجوَى لا يُرام اطّلاعُها
يَظَلُّون شتى فى البلاد وسرُّهم ... إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعها

ومن جيِّد ما قيل فى ذلك : (بسيط)

لا تسألى القومَ ما مالى وكثرتُه ... وسائلى القوم ما مجدى وما خُلُقى
هل أطعنُ الطعنة النَّجْلاء عن عُرُض ... وأكتُم السرَّ فيهِ ضربة العُنق

ومن جيده قول الصابئ (طويل)

فقل لصديق كنْ عَلَى السر آمناً إذا لم يكن بيني وبينك ثالث

وقول الآخر (وافر)

وإنك كلما استُودِعت سرًا أنمُّ من النسيم عَلَى الرياضِ

ولمؤلف هذا الكتاب فى ذلك من جملة أبيات (طويل)

وما احتفر الأصحاب للسر حفرة كصدرى ولو جاز الشراب عَلَى عقلى

وله فى ذلك أيضاً (وافر)

وإن يكن الزجاج ينمُّ طبعاً فسيِّدنا أنمُّ من الزجاج

ومن الأمور التى يجب تدقيق الفكر فيها ، والتثبت التام والتأنى فى تأملها ، حديث السعايات والنمائم ، فكم من نمَّام أو ساعٍ قد شفى غيظه بإيقاع مِسكين بين يدَىْ ملك قاهر فى تهمة هو برىء منها ، ثم اشتبه الأمر عَلَى الحاكم فأهلك الرجلَ البرئَ بغير ذنب ، ثم لما علم بصورة الحال نَدِم حينَ لا ينفع الندم ، فعمَّ الضرر بذلك الثلاثة : الساعىَ والمسعىَّ إليهِ لأنهما أهلكا دينهما بما فعلاه والمسعىَّ بهِ لتعجله العقوبة ، فعمَّ الضرر الثلاثة . ومما جاء فى ذلك فى التنزيل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » . ومما جاء فى الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخرِ فلا يرفعنَّ إلينا عَوْرَةَ أخيه المسلم » .

رفع إنسان إلى يحيي بن خالد بن بَرْمك قصةً يقول فيها إنه قد مات رجل تاجرٌ غريب ، وقد خلَّف جارية حسناء وولداً رضيعاً ومالاً كثيرًا ، والوزير أحق بهذا ، فكتب يحيي بن خالد على رأس القصة : أما الرجلُ فرحمه الله ، وأما الجارية فصانها الله ، وأما الطفل فرعاه الله ، وأما المال فثمَّره الله ، وأما الساعى إلينا بذلك فلعنه الله .

قيل لما تولى عبد العزيز بن مروان دِمشق ولم يكن فى بنى أمية أَلَبَّ منه ،

وكان حَدَثَ السن — طمع فيه أهل دمشق ، وقالوا : صبي لا عِلْم له بالأمور ، وسيسمع كلَّ ما نقول له ، فقام إليه رجل وقال : أصلح الله الأمير ، نصيحة ، فقال ليت شعرى ما هذه النصيحة التى قد ابتدأتنى بها من غير يَدٍ سبقت منى إليك ؟ هاتِ نصيحتك ، قال لى جار وهو عاصٍ خالعٌ للطاعة وذكر له عيوباً ، فقال له عبد العزيز : إنك أيها الرجل ما اتقيت الله تعالى ولا أكرمت أميرك ولا حفِظت جِوَارك ، إن شئت نظرنا فيما تقول ، فإن كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن استقلتنا أقلناك ، فقال : بل أقلنى أيها الأمير ، قال : اذهب حيث شئت لا صَحِبك الله ، إنى أراك شرَّ رجل .

كان الوزير علىّ بن محمد بن الفُرَات وزيرُ المقتدر يُبْغِض السعاة ، فكان إذا رفع أحد إليه قصة فيها سِعايةٌ بأحد يُخرجُ حاجبَه إلى الباب ، والناس على طبقاتهم وقوف ، فيقول أين صاحب هذه السِعاية ؟ قد قال لك الوزير كذا وكذا ، فيفتضِح ذلك الرجل فى ذلك الجمع ، فترك الناس السعايات فى أيامه . قال عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه) « من عَرَفَ فاحشة فأفشاها كان هو الذى أتاها » . كتب قباذ الملك لابنه كِسْرى عهداً فمن جملته : « يا بُنَىَّ لا تُدْخِل فى مشورتك بخيلاً فإنهُ يقصّر بك عن غاية الفضل ، ولا جباناً فإنهُ يضيّق عليك الأمور عند انتهاز الفرصة ؛ يا بنىّ ، ليكن أبغض رعيتك إليك أكثرهم تكشيفاً لمعايب الناس ، فإن فى الناس عيوباً أنت أحقّ مَنْ سترَها وكَرِه ما تكشَّف من غائبها ، فإنما إليك الحكم على ما ظهر والله يحكم فيما غاب ، فاكره للرعية ما تكره لنفسك ، واستر العورة يستر الله عليك ما تحب ستره ، ولا تَعْجَل إلى تصديق ساعٍ فإن الساعىَ غاشٌ وإن قال قولَ النصيح ، وأعط الناس من عفوك مثل

ما تحب أن يعطيك مَنْ فوقك » . ومن مليح ما قيل فى ذلك قولُ مِهْيار يخاطب بعض الوزراء

(كامل)

يا سيفَ نصرى والمهندُ تابعى | وربيع دهرى والزمانُ مَصافُ
ومُعيدَ أيامى علىَّ بدائنـــا | سِمَنـًا وهن على الأنام عِجاف
أخلاقُك الغُرُّ السجايا ما لها | حَمَلَتْ قَذَى الواشين وهى سُلاف ؟
والافكُ فى مِرآة رأيك ما لَهُ | يَخْفَى وأنت الجوهرُ الشفَّاف ؟

ومن مليح ذلك قول القائل

(بسيط)

سعى إليك بى الواشى فلم تَرَنى | أهلاً لتكذيب ما ألقى من الخَبْرِ
ولو سعى بك عِندى فى ألذِّ كرًى | طيفُ الخيال لبعتُ النوم بالسهر

اختلفوا فى الملك القاهر العسوف والملك المقتصد الضعيف ، ففضَّلوا القاهر العسوف ، واحتجُّوا بأن القوىَّ العسوف يَكُفُّ الأطماع عن رعيته ويحميهم من غيره بقوته ، وله أَنفَة تعصِمهم من شر غيره ، فتكون رعيته بمثابة من كُفِىَ شر جميع الناس وابتُلِىَ بشر واحد . وأما المقتصِد الضعيف فيُهمِل رعيته فيتسلّط عليهم كل أحد ، ويدوسهم كل حافر ، فيكونون بمثابة من كُفِىَ شر واحد وابتُلِىَ بشر جميع الناس وبين الحالين بَوْن بعيد .

وقال بعض الحكماء سلطان يخافه الرعية خير من سلطان يخافها . قال أنُوشِرْوَان عندى لمن عرَّض دمه سفكه ، ولمن جاوز حدَّه تقويمه ، ولمن تعدَّى طوره قمْعه . قال بعض الحكماء أمران جليلان لا يصلُح أحدهما إلاّ بالتفرد والاستبداد ، ولا يصلُح الآخر إلاّ بالاشتراك ، فأما الذى لا يصلح إلاّ بالانفراد فالمُلْك ، متى وقع فيه الاشتراك فَسَدَ ، وأما الذى لا يصلُح إلاّ بالاشتراك فالرأى ، متى وقع فيه الاشتراك وُثِقَ فيه بالصواب . ولا يجوز للملك ان

يصغرٌ فى نفسه أمر عدوّه وإن كان صغيراً فى نفس الأمر ، ولا يجوز لجلساء الملك أن يصغروا أمر عدوّه عنده ، فإنهم إن صغّروه حتى ظفِر به العدوّ كان وهناً له إذ قد غلبه عدوٌّ صغير ، وإن ظفر هو بالعدو لم يكن قد صنع طائلاً .
لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من وقعة بَدْر ومعه الأسرى والغنائم ، وقد قتل الله رءوس المشركين ؛ تلقاه الناس من ظاهر المدينة عن أميال فجعلوا يهنئونه بالفتح ، وجعل الناس يسأل بعضهم بعضاً عمن هلك وسلِم ، فقال بعض الصحابة : والله ما قتلنا إلاّ عجائزَ صُلعا ، فأقبل عليهِ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) باللوم ولم يزل كالمعرض عنه ، ثم قال له : أولئك يا ابن أخى الملأُ .

ومن مليح ما رأيت فى هذا المعنى قولُ حكيم الهند لبعض ملوكهم : لا تَحقِرنَّ أمر الاعداء وإن صغروا فإن الزّئْبِر إذا جُمع جُعِل منه حبل يُشَدُّ به الفيل .
وإغباب الرأى من الأمور المهمة ، وأجود الرأى ما وقع فيه التأنى والتثبت ، وبذلك يُؤمن زَلل الرأى . قال الأحنف بن قيس لأصحاب علىّ (عليه السلام) أغِبُّوا الرأى فإن إغبابه يكشف لكم عن مَحْضه .

واستشير بعض العقلاء فى أمر فسكت ، فقيل له : لم لا تتكلم ؟ فقال : ما أحب الخبز إلاّ بائتاً . ولما عزم الخوارج على مبايعة عبد الله بن وهب الراسبىّ أرادوه للرأى ، فقال ما أنا والرأى الفَطِير والكلام المقتضب ، فلما فرغوا من البيعة قال اتركوا الرأى يُغِب ، أى يأتى عليه يوم وليلة ، وكان يستعيذ بالله من الرأى الفطير . قالوا مرّ الحارث بن زيد بالأحنف بن قيس ، فقال له لولا أنك عَجْلانُ لشاورتك ، وهذا دليل على كراهيتهم للرأى الفطير وكانوا لا يشاورون الجائع حتى يشبع ، ولا الأسير حتى يُطْلَق ، ولا الطالب حتى يبلغ حاجته ، ولا العطشانَ حتى يَرْوَى ، ولا الضالَّ حتى يهتدى ، وقال بعض الشعراء يصف عاقلًا :

(طويل)

عليمٌ بأعقاب الأمور كأنما يُخاطبُه من كلّ أمرٍ عَواقبُه

وما أعرف أحسن من قول ابن الرومى فى تفضيل الرأى المختمِر على الرأى الفطير :

(بسيط)

نارُ الرويّةِ نارٌ جدُّ مُنْضِجَةٍ وللبديهة نارٌ ذاتُ تلويحِ

وقد يفضّلها قومٌ لعاجلِها لكنه عاجلٌ يمضى مع الريح

ومما يوجبه العقل الصحيح أن الإنسان لا يدخل فى أمر يَعْسُر الخروج منه ، قال الشاعر :

(خفيف)

مَا مِنَ الحزم أن تقارب أمراً تطلُب البعد منه بعد قليلِ

فاذا ما هممتَ بالشىء فانظرْ كيف منه الخروجُ بعد الدخول

قالوا وأفضل من ذلك أن الإنسان لا يُدْخل نفسه فى أمر يحتاج فى الخروج منه إلى فكر . قال معاوية لعمرو بن العاص (رضى الله عنهما) : ما بَلَغَ مِنْ دهائك ؟ قال ما دخلت فى أمر إلاّ وأحسنت الخروج منه ، فقال معاوية لكنّى أنا ما دخلت فى أمر أحتاج فى الخروج منه إلى فكر .

ومن الأمور المهمة للملك حسنُ نظره فى إرسال الرسل ، فبالرسول يُسْتَدَلُّ على حال المرسِل . قال بعض الحكماء إذا غاب عنكم حال الرجل ولم تعلموا مقدار عقله فانظروا إلى كتابه ورسوله ، فهما شاهدانِ لا يكذِبان . ويجب أن يكون فى الرسول خِصالٌ : منها العقل ليميزَ به الأمرَ المستقيم من المعوجِّ ، والأمانة والعفافُ لئلاَّ يخون مرسِلَه ، فكَم من رسول بَرَقت له بارقة طمع من جهة مَن أُرْسِل إليه فخفِظ جانبه وترك جانب مرسِله . أرسل معاوية رضى الله عنهُ إلى ملك الروم رسولاً من أقاربهِ كان يَعْتَمِد عليهِ لتقرير أمر الهدنة ، واشترط معاوية شروطاً غليظة فلما حضر الرسول عند ملك الروم اجتهد به على تخفيف تلك الشروط

فلم يَقْبَل ، فخلا به وقال له : بلغني أنك فقير ، وأنك إذا أردت الركوب إلى معاوية تستعير الدوابَّ ، قال كذلك هو .

قال فما أراك تعمل لنفسك شيئاً ، وهذا المال الذى عندنا كثير ، فخذ منهُ ما يُغنيك إلى الأبد وَدَعْ معاوية ، وأحْضَرَ له عشرين ألف دينار فأخذها وخفَّف له الشروط وأمضى أمر الهدنة ، ثم رجَع إلى معاوية فلما نظر معاوية فى الكتاب عَلِمَ بالحال ، فقال له : ما أراك عَمِلْتَ إلاّ له ، وعزم على مؤاخذته ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أَقِلْنِي ، قال : قد أَقلْتك ، وأعرض عنهُ . وفيما فعل كمال الدين محمد بن الشهرزورى حين أرسله أتابك زنكى صاحب الموصل إلى بغداد لتقرير أمر الراشد مَنْبَهَةٌ على وجوب تدقيق النظر فى اختيار الرسل ، وذاك أنه لمَّا خُلِع الراشد الخليفة ببغداد فارَقَها وحضر إلى الموصل مستسعِداً بأتابك زنكى ، وخلا بِهِ ووعده ومنَّاه أنهُ إن عاد إلى الخلافة أن يفعل معهُ ويصنع ، فتهوَّس أتابك زنكى بذلك وضَمِنَ له صلاحَ الحال مع السلطان مسعود ، ثم إن أتابك زنكى عزم على مراسلة الديوان ببغداد فى هذا المعنى ، فاختار للرسالة كمال الدين بن الشهرزورى قاضىَ الموصل ، فأرسله وَوَصَّاه بالاحتجاج والمبالغة فى تقرير أمر الراشد ونَقْضِ ما أبرموه من خلافة المقتفى ، فتوجَّه كمال الدين إلى بغداد ، قال ابن الأثير صاحبُ التاريخ : حَكَى لى والدى قال حَكَى لى كمال الدين المذكور ، قال : لما حضرت بالديوان قيل لى تُبايع أمير المؤمنين ؟ فقلت : أميرُ المؤمنين عندنا بالموصل ، وله فى أعناق الخلق بَيْعَة متقدمة ، قال وطال الحديث فى ذلك ، وعُدْت إلى منزلى ، فلمَّا جاء الليل جاءتنى عجوز سرًّا واجتمعت بى وأبلغتنى رسالة من المقتفى مضمونُها المعاتبةُ لى على ما قُلْت واستنزالى عنهُ ، فقلت : غداً أخدُم خِدْمة يظهر أثرها ، فلما كان الغدُ حضَرْتُ بالديوان وقيل لى فى معنى البيعة ، فقلت

أنا رجل فقيه قاض ولا يجوز لى أن أبايع إلا بعد أن يثبت عندى خَلْعُ المتقدم ، فأحضروا الشهود فشهدوا عنـدى بفِسْق الراشد ، فقلت : هذا ثابتٌ لا كلامَ فيه ، ولـكن لا بُدَّ لنا فى هذه الدعوى من نصيب ، لأن أمير المؤمنين المقتفى حصلت له خلافة الله فى أرضه والسلطانُ ، فقد استراح ممن كان يقصِده ، فنحن بأىّ شىء نرجِع ؟ فرُفِع الأمر إلى المقتفى فأمر أن يُعْطَى أتابك زنكى صريفين ودرب هرون وحربى مِلْكاً ، فبايعت المقتفى وعدت وقد حصل لى مالٌ صالحٌ وتحَف وهدايا . وما أدرى والله من أىّ حاليْه أعجب من فعله هذا وخيانته لمرسِله وتسويد وجهه مع من استجار بهِ ، فإنهُ لم يكن الفائدةُ من إرسال كمال الدين إلاّ تقوية أمر المقتفى وتأكيد خلع الراشد ، أم من حكايته عن نفسهِ مثل هذه الفَعلة ؟

وكذلك ما جرى لعميد الملك الكندرىّ وزير السلطان طغر لبك ، أرسله السلطان طغر لبك ليخطب له امرأة فمضى الكندرىّ وخطبها لنفسه وتزوجها ، وعَصَى على طغر لبك ، فلما ظَفر بهِ طغر لبك لم يقتله ، واستبقاه فى خدمته احتياجاً إلى كَفاءته

ومن الأشعار المقولة فى ذلك قول القائل : (متقارب)

إذا كنتَ فى حاجةٍ مُرْسِلًا فأَرْسِل حكيماً ولا تُوصِهِ

وأجْوَد من هذا المعنى وأكمل قولُ الآخر : (وافـر)

إذا أرسلتَ فى أمر رسولًا فأَفْهِمْه وأرسِـــله أديبـا
فإن ضيَّعْتَ ذاك فلا تَلُمْه على أنْ لم يكنْ عَلِم الغُيُوبا

ومما يزين المَلِك اصطناعُ العوارف إلى أشراف رعيته ، فبذلك تميل أعناقهم إليهِ ، ويدخلون بذلك فى زُمْرَةِ خَدَمه وحاشيته ، وما زال أفاضل الملوك

يلحظون هذا المعنى فَيُفْضِلون دائماً على أشراف رعيتهم أنواع الإفضال ليسترقّوهم بذلك . كان معاوية رضى الله عنهُ أشدَّ الملوك لَهَجاً بهذا المعنى ، كان يُعْطِى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن العباس رضى الله عنهما فى كل سنة جُمَلًا طائلة من المال ، وكفاك من ذلك أن عَقِيلَ بن أبى طالب رضى الله عنه فارق أخاه علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) وقصد معاوية مستميحاً وما ذاك لِشُحٍّ عند أمير المؤمنين (عليهِ السلام) فإنهُ كان (صلوات الله عليهِ وسلامه يبارى الريح جُوداً وكرماً ، وكان جميع ما يدخل له من أملاكه يخرِجه فى الصدقات والمَبرّات ، ولكنّ عَقِيلاً كان يريد من مال المسلمين أكثرَ من حَقِّه وما كان دِينُ أمير المؤمنين (عليه السلام) يقتضِى ذلك . وكان معاوية (رضى الله عنهُ) يُعطى لأجل مصلحة الدنيا ، ولا يفكر فيما كان يفكر فيهِ أمير المؤمنين (عليه السلام) .

وانظر إلى كمال الدين حيدرة بن عُبَيْد الله الحسينىّ الموصلىّ ، وكان شيخَ أهله ومقدَّمهم سنًّا وزهداً وفضلاً وَوَرَعاً ، كيف استماله صاحب الموصل بدر الدين بما أسداه إليه من الإنعام حتى مَدَحه وانخرط فى زُمْرَة شعرائه ، فمن شعره فيه :

(طويل)

هنيئاً بِجَدٍّ ساعدتْكَ سعودُهُ ... وتَمّ له يومَ التفاخر عيدُهُ

وبشرى بإقبالٍ أهلَّ بشيرُهُ ... كما وَفَدَتْ عند الهناء وفودُه

وأنّى لبدر الدين ذى الفخر والعلا ... نديدٌ وكلاَّ أن يُصاب نَدِيدُه

ومع أنه صار من شعرائه وانخرط فى زُمْرَة مُدَّاحه ، كان بدر الدين بعد موت كمال الدين حيدرة إذا اجتاز على تربته ، وهى تربة مفردةٌ ظاهرَ الموصل جنوبية قبلية ، يترك العسكر ويدخل إليه يزوره ويدعو لنفسه عند ضريحه (رحمهما الله تعالى) .

الفصل الثاني

﴿ في الكلام على دولةٍ دولةٍ ﴾

لقد تمَّ الكلام على الأمور السلطانية والسياسات الملكية ، وعلم بذلك سيرة الملك الفاضل المستحق للرياسة ، وخواصُّ الملك التي يتميز بها عن الرعايا ، والحقوق الواجبة للملك على رعيته ، والحقوقَ الواجبة لهم عليه . واندرج في أثناء ذلك الكلامُ على كليّاتِ أحوال الدُّوَل على سبيل الإجمال . وكلُّ ما مضى في هذه الأوراق من اللطائف والمحاسن فقد وَفَّر الله تعالى منه حظّاً المَوْلى الملك الفاضل ، (حاطه الله تعالى بأنواع ألطافه ، وبلغه أقصى الغايات من إسعاده وإسعافه) لأن الله (تعالى) هداه بسابق عنايته إلى محاسن الشيَم ، وفضّله بخافي لطفه على كثير من الأمم .

وهذا أوان الشروع في الكلام على دولةٍ دولةٍ : أما الدولة الأولى ، وهي دولة الأربعة فإن ابتداءها كان منذ قُبِض رسول الله (صلوات الله عليه وسلامه) وبويع أبو بكر بن أبي قُحَافَةَ (رضي الله عنه) ، وذلك في سنة اثنتيْ عشرة من الهجرة ، وانتهاؤها حين قُتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، وذلك في سنة أربعين من الهجرة . واعلم أنها دولة لم تكن من طِرْز دول الدنيا ، وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه ، والحق في هذا أن زيّها قد كان زيّ الأنبياء ، وهَدْيها هَدْي الأولياء ، وفُتُوحها فتوح الملوك الكبار ، فأما زِيُّها فهو الخشونة في العيش والتقلُّل في المطعَم والملبَس ، كان أحدهم يمشي في الأسواق راجلاً وعليه القميص الخَلَق المرقوع إلى نصف ساقه ، وفي رجْله تاسومة وفي يده دِرَّة ، فمن وجب عليه حدٌّ استوفاه منه . وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم ، ضرَبَ

أمير المؤمنين (عليه السلام) المثل بالعسل والخبز النقيّ ، فقال فى بعض كلامه : « ولو شئتُ لاهتديت إلى مُصَفَّى هذا العسل بِلباب هذا البُرّ . واعلم أنهم لم يتقللوا فى أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباسٍ وأشهى مَطْعَم ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساةً لفقراء رعيتهم ، وكسراً للنفس عن شهواتها ، ورياضةً لها لتعتاد أفضلَ حالاتها ، وإلّا فكلٌ واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونَخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب ، ولكن أكثر خَرْجهم كان فى وجوه البرِّ والقُرَب . كان لأمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) ارتفاعٌ طائل من أملاكه يُخرجه جميعه على الفقراء والضعفاء ، ويقتنع هو وعياله بالثوب الغليظ من الكِرْباس ، وبالقُرْص من خبز الشعير . وأما فتوحها وحروبها فإن خيلها بلغت إفريقية وأقاصى خراسان وعبرت النهر ، فإن عبيد الله بن العباس تولّى إمارة سمرقند وبها مات وفيها قبره ، فأول حروبها قِتالُ أهل الرِّدة .

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار ﴾

لما قُبض رسول الله (صلوات الله عليه وسلامه) ارتدَّ ناس من الأعراب عن الإسلام ، وامتنعوا عن أداء الزكاة ، وقالوا لو كان محمد نبياً لمَا مات ، فوعظهم ذَوُو اللب والعقل ، وقالوا لهم : أخبرونا عن الأنبياء (عليهم السلام) هل تُقرُّون بنبوّتهم ؟ قالوا نعم ، قالوا فهل ماتوا ؟ قالوا نعم ؟ قالوا فما الذى تنكِرونه من نبوّة محمد (عليه السلام) ؟ فلم ينجع القول فيهم ، فجهز أبو بكر (رضى الله عنه) إلى كل طائفة منهم جيشاً ، فتوجّهت الجيوش إليهم وقاتلتهم وكانت الغَلَبةُ للجيوش الإسلامية فأبادتهم قتلاً وأَسراً ، ورجع من تبقّى منهم إلى الإسلام وأدّى الزكاة . ومن فتوحها الكبار فتح الشأم

﴿ شرح كيفية ذلك ﴾

لما كانت سنةُ ثلاثَ عشْرةَ من الهجرة ، وهى السنة التى تُوُفِّىَ فيها أبو بكر، ورَجَع أبو بكر (رضى الله عنه) من الحج — شرع فى تجهيز الجيوش إلى الشام ، فبعث عسكراً كثيفاً جعل على كل قطعة منه أميراً ، وسمَّى لكل أميرٍ بلداً إن فتحه واستولى عليه كان له ، ثم أمدّهم بخالد بن الوليد (رضى الله عنه) فى عشرة آلاف ، فتكمَّل بالشام ستة وأربعون ألفَ مقاتلٍ ، وجرت بينهم وقائع وحروبٌ امتدت إلى أن مات أبو بكر، وبويع عمرُ بن الخطاب (رضى الله عنهما) فعَزَلَ عمرُ خالدَ بن الوليد (رضى الله عنهما) عن إمارة الجيش ، وكان قد أُمِّرَ ، ثم أمَّرَ على الناس أبا عبيدة بن الجراح (رضى الله عنه) ، فورد رسولُ عمر إلى الجيش بالشأم بكتاب عمر إلى أبى عبيدة بتوليته وعَزْلِ خالد ، واتفق وصول الرسول وهم مشغولون بالحرب ، فجعل الناس يسألون الرسول عن سبب قدومه ، فأخبرهم بالسلامة ووعدهم أنَّ وراءه مَدَداً لهم ، وكتم عنهم موت أبى بكر، ثم وصل إلى أبى عبيدة بن الجرَّاح فأخبره سرًّا بموت أبى بكر وناوله كتاب عمر بتوليته وعَزْلِ خالد ، فاستحيا أبو عبيدة من خالد وكَرِه أن يُعلمه بالعزل ، وهو قد بذل جُهده فى القتال ، فكتم أبو عبيدة الخبر عن خالد وصبَرَ حتى تمَّ الفتح وكُتِبَ الكتابُ باسم خالد ، ثم أعلمه بموت أبى بكر وبعزله فسلَّم إليهِ الجيش . وكان فتحُ دِمَشْق فى سنة أربع عشرة من الهجرة ، فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنهُ) ، وفى الدولة المذكورة كان فتح العراق وأخْذُ المُلْكِ من الأكاسرة .

﴿ شرح مبدأ الحال فى انتقال المُلْك من الأكاسرة إلى العرب ﴾

إنَّ الله تعالى بسابق علمه وبالغِ حكمته وعزة قدرته إذا أراد أمراً هيَّأ أسبابه ، وقد وصف نفسه عز وجل بقوله : « قلْ اللَّهمَّ مَالكَ المُلكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاء

وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . ولما أراد (جلَّ شأنه ، وعزَّ سلطانه) نقل الملك عن فارس إلى العرب أصدر من المُنذِرَات بذلك ما ملأ به قلوبهم وقلوب أوليائهم رُعْبًا .

فأولُ ذلك ارتجاسُ الإيوان وسقوطُ الشُّرُفات منهُ ، وذلك عند ميلاد الرسول (عليه أفضل الصلوات) ، وخُمودُ نار فارس ولم تكن خَمَدت قبل ذلك بألف عام وذلك فى عهد أنوشرْوَان العادل ، فلما رأى أنوشروان سقوطَ الشرفات وانشقاقَ الإيوان غَمَّه ذلك ، ولَبِس تاجه وجلس على سريره ، وأحضر وزراءه وشاورهم فى ذلك ، ففى تلك الحال وصل كتاب من فارس بخمود النار فازداد كِسْرَى غمًّا إلى غمِّه ، وفى تلك الحال قام الموبَذَان وقصَّ الرؤيا التى رآها ، قال : رأيت أصلح الله الملِك كأنَّ إبلًا صِعَافًا تقود خيلًا عِرَابًا ، قد قطعت دِجْلَة وانتشرت فى بلادها ، فقال له كسرى : فأىُّ شىءٍ يكون تأويلُ هذا ؟ قال : أصلح الله الملِك ، حادثٌ يحدُث من جهة العرب ، وفشا الحديث بذلك بين العجم ، وتحدث بهِ الناس فسَكَنَ الرعبُ قلوبَهم ، وثبتت هَيْبة العرب فى نفوسهم ، ثم تتابعت أمثال هذه المنذِرات الخواذلِ إلى آخر الأمر ، فإن رُسْتُمَ لمَّا خرج لمحاربة سعد ابن أبى وقاص ، رأى فى منامه كأن مَلَكًا قد نزل من السماء وجمع قِسِىَّ الفُرْس وختم عليها وصَعِد بها إلى السماء ، ثم انضمَّ إلى ذلك ما كانوا يشاهدونه من سَداد منطق العرب وطُمَأنينة نفوسهم وشدَّة صبرهم على الشدائد ، ثم ما جرى فى آخر الأمر من اختلاف كلمتهم بعد موت شَهريار وجلوسِ يزدجرد على سرير المملكة ، وهو صبى حَدَث ضعيف الرأى ، ثم الطامَّةِ الكبرى وهى انعكاس الريح عليهم فى حرب القادسية حتى أعمتهم بالغبار ، وعمَّتهم بالدمار ، وفيها قُتِل رُستم وانفلَّ جيشهم . فانظر إلى هذه الخواذل ، واعلم أن لله أمرًا هو بالغُهُ .

﴿ شرح الحال فى تجهيز الجيش إلى العراق واستخلاص المُلْكِ من فارس ﴾

كان ثَغْرُ فارس من أثقل الثغور على العرب وأعظمِها فى نفوسهم وأكثرِها هَيْبة ، وكانوا يكرهون غَزْوَه ويَجْتُبون عنه استعظاماً لشأن الأكاسرة ، ولما هو مشهور من تدويخهم الأمم ، حتى كان آخرُ أيام أبى بكر (رضى الله عنه) فقام رجل من الصحابة يقال له المُثَنَّى بن حارِثة (رضى الله عنهُ) ونَدَبَ الناس إلى قتال فارس وهوَّن عليهم الأمر ، وشجَّعهم على ذلك ، فانتدب معهُ جماعةٌ وتذكَّر الناسُ ما كان رسول الله (صلوات الله عليه) يَعدهم به من تَمَلُّك كنوزِ الأكاسرة . ولم يتمَّ فى ذلك أمرٌ فى خلافة أبى بكر ، حتى كانت أيام عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) ، وكتب إليه المثنَّى بن حارثة يخبره باضطراب أمور الفُرْس وبجلوس يزدجرْد بن شهريار على سرير الملك وبصِغَر سنه ، وكان قد جلس على السرير وعمره إحدى وعشرون سنة ، فقوِى حينئذٍ طمع العرب فى غَزْو الفرْس ، فخرج عمر (رضى الله عنهُ) وعَسكَرَ ظاهرَ المدينة ، والناس لا يعلمون أين يريد ، وكانوا لا يتجاسرون على سؤاله عن شىء ، حتى إن بعضهم سأله مرة عن وقت الرحيل فزجره ولم يُعْلِمه ، فكانوا إذا أعْضَلَ عليهم أمر ، وكان لابد لهم من استعلامه منهُ استعانوا عليه بعثْمان بن عَفَّان أو بعبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنهما) وإذا اشتدَّ الأمر عليهم ثَلثوا بالعبَّاس (رضى الله عنه) ، فقال عثمان لعمر : يا أمير المؤمنين ، ما بَلَغَكَ وما الذى تريد ؟ فنادى عمر (رضى الله عنه) الصلاة جامِعَة . فاجتمع الناس إليهِ فأخبرهم الخبر ، ووعظهم وندبهم إلى غَزْوِ الفرس وهوَّن عليهم الأمر ، فأجابوا جميعاً بالطاعة . ثم سألوه أن يسير معهم بنفسهِ ، فقال : أفعلُ ذلك إلا أن يجىء رأى هو خير من هذا . ثم بعث إلى أصحاب الرأى وأعيان الصحابة وعقلائهم فأحضرهم واستشارهم ، فأشاروا عليه بأن يقيم ويبعث رجلا من كبار الصحابة

ويكونَ هو من ورائه يُمِدُّه بالأمداد، فان كان فتحٌ فهو المطلوب، وإن هلك الرجل أرسل رجلا آخر. فلما انعقد إجماعهم على هذا الرأى صَعِد عمر المِنْبَرَ، وكانوا إذا أرادوا يكلمون الناس كلاماً عاماً صَعِد أحدهم المنبر، وخاطب الناس بما يُريد، فلمّا صَعِد عمر قال: «أيها الناس انى كنت عازماً على الخروج معكم، وإن ذوى اللب والرأى منكم قد صرفونى عن هذا الرأى وأشاروا بأن أُقيم وأبعث رجلاً من الصحابة يتولَّى أمر الحرب» ثم استشارهم فيمن يبعث، وفى تلك الحال وصل إليهِ كتاب من سَعْد بن أبى وَقّاص وكان غائباً فى بعض الأعمال، فأشاروا على عمَر بسعدٍ (رضى الله عنهما) وقالوا إنهُ الأسد عادياً، ووافق ذلك حُسْنَ رأى من عمر بن الخطاب (رضى الله عنهُ) فى سعد بن أَبى وقّاص، فاستحضره وولاّهُ حرب العراق وسلم الجيش إليهِ. فسار سعد بالناس وسار عمر بن الخطاب (رضى الله عنهُ) معهم فراسخ، ثم وعظهم وحثهم على الجِهاد وودَّعهم وانصرف إلى المدينة، وتوجَّه سعد، فجعل ينتقل فى البَرّية التى بين الحجاز والكوفة ويستعلم الأخبار، ورُسُلُ عمر تأتيه وكُتُبه يشير عليه فيها بالرأى بعد الرأى، ويُمِدُّه بالجنود بعد الجنود حتى استقرَّ رأيه عَلَى قَصْد القادِسيَّة، وهى كانت بابَ مملكة الفرْس.

فلما نزل سعد بالقادسية احتاج هو ومَنْ معهُ إلى الأقوات فبعث ناساً وأمرهم بتحصيل شيء من الغَنَم والبَقَر، وقد أجفل أهل السَوَاد قُدَّامَهم، فوجدوا رجلاً فسأَلوه عن الغنم والبقر فقال: لا عِلْمَ لى بذلك، وإذا هو الراعى، وقد أدخل الدوابَّ فى أَجَمَة هناك، قالوا فصاح ثور منها: كَذَبَ الراعى، ها نحن فى هذه الأجمة، فدخلوا إليها واستاقوا منها عِدَّةً وأحضروها إلى سعد، فاستبشروا بذلك وعدُّوها نُصْرَة من الله (تعالى). والثور إن لم يكن قد تلفَّظ بحروف يكذب بها الراعى فان صِياحه فى تلك الساعة حتى يستدلَّ بصياحهِ على

الدوابّ عند شدة الحاجة إليها تكذيبٌ صريح للراعى ، وهو من الاتفاقات العظيمة الدالة على النصر والدولةِ ، والاستبشارُ بهِ واجبٌ . وحينَ ورد الخبر إلى العجم بوصول سعد بالجيش ندبوا له رُستم فى ثلاثين ألف مقاتل وكان جيش العرب من سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف . ثم اجتمع إليهم بعد ذلك ناس ، فالتقوْا فكان العجم يضحكون من نَبْل العرب ويشبهونها بالمغازل .

وها هنا موضع حكاية تناسب ذلك لا بأس بإيرادها . حدثنى فَلَكُ الدين محمد بن أَيْدَمُرَ قال : كنت فى عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربىّ من مدينة السلام ، فى واقعتها العظمى سنة سِتٍ وخمسين وسِتمائة ، قال فالتقينا بنهر بشير من أعمال دُجَيْل . فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة ، وتحته فرسٌ عربى ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبلُ العظيم ، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حِمَار وفى يده رُمْح كانه المِغْزَل ، وليس عليه كُسوة ولا سلاح فيضحك منه كلُّ من رآه . ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكَرَّة فكسرونا كَسْرة عظيمة كانت مِفْتاحَ الشر ، ثم كان من الأمر ما كان .

ثم ترددت الرسل بين رستمَ وسعدٍ ، فكان البَدَوى يأتى إلى باب رستم وهو جالس على سرير الذهب ، وقد طرحت له الوسائد المنسوجة بالذهب ، وفُرِش له الفَرْش المنسوج بالذهب ، وقد لَبِس العجم التيجان وأظهروا زينتهم وأقاموا الفيلة فى حواشى المجلس . فيجىء البدوى ، وفى يده رمحه ، وهو متقلّد سيفه متنكّب قوسهُ ، فيربط فرسه قريباً من سرير رستم فيصيح العجم عليه ويهمون بمنعه فيمنعهم رستم ثم يستدنيه فيمشى إليه متكئاً على رمحه ، يطأ به ذلك الفَرْش وتلك

الوسائد فيخرقها بزُجّ رمحه، وهم ينظرون، فاذا وصل إلى رستم راجعه الحديث، فكان رستم لا يزال يسمع منهم حِكماً وأجوبة تَرُوعه وتهُوله.

فمن ذلك أن سعداً (رضى الله عنه) كان يبعث فى كل مرة رسولاً. فقال رستم لبعض من أُرْسل اليهِ: لِمَ لَمْ يبعثوا إلينا صاحبنا بالأمس؟ قال: لأن أميرنا يعدل بيننا فى الشدة والرخاء؛ وقال يوماً لآخر ما هذا المِغزَل الذى فى يدك؟ يعنى رمحه، فقال إن الجَمْرَة لا يضرُّها قِصَرُها؛ وقال مرة أخرى لآخر: ما بالُ سيفك أراه رثًّا؟ فقال: إنه خَلَقُ المغمد حديد المضْرب. فراع رستم ما رأى من أمثال هذا وقال لأصحابه: انظروا فان هؤلاء لا يخلو أمرهم من أن يكون صدقاً أو كذباً، فان كانوا كاذبين، فان قوماً يحفَظون أسرارهم هذا الحِفْظ، ولا يختلفون فى شيء، وقد تعاهدوا على كِتْمان سرهم هـذا التعاقد، بحيث لا يُظْهِر أحد منهم سرهم. لَقَوْمٌ فى غاية الشدَّة والقُوَّة، وإن كانوا صادقين فهؤلاء لا يقف حذاءهم أحد. فصاحوا حوله وقالوا. اللهَ اللهَ أن تترك ما أنت عليـه لشيء رأيتَـهُ من هؤلاء الـكلاب، بل صَمِّمْ على حربهم. فقال رستم: هو ما أقول لـكم، ولكنى معكم على ما تريدون، ثم اقتتلوا أياماً كان فى آخرها انعكاس الريح عليهم حتى أعماهم الغبار، فَقُتِل رستم وانفلّ الجيش، وغُنِمَتْ أموالهم، وأجْفَلَ الفُرْس يطلبون مخاضات دِجْلة ليقعوا فى الجانب الشرقيّ وتَبِعَهم سعد وعَبَرَ المخاضات، وقَتَل منهم مَقتَلَةً عظيمة أخرى بجَلُولاء وغنم أموالهم وأسر بنتاً لـكسرى. ثم كتب سعد إلى عمر (رضى الله عنهما) بالفتح، وقد كان عمر فى تلك الأيام شديد التطلع إلى أمر الجيش، فكان فى كل يوم يخرج إلى ظاهر المدينة راجلا يتنسَّم الأخبار، لعلَّ أحداً يصلُ فيخبرَه بما كان منهم، فوصل البشير من عند سعد بالفتح، فرآه عمر فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق، قال: فما فعل سعد والجيش؟ قال:

فتح الله عليهم ؛ كل ذلك والرجل سائر على ناقته وعمر يمشى فى ركابه ، وهو لا يعلم أنه عمر ، فلما اجتمع الناس وسلموا على عمر بإِمْرَة المؤمنين عَرَفه البدوى ، فقال : هلاَّ أعلمتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ قال : لا بأس عليك يا أخى ، ثم كتب عمر إلى سعد : قِفْ مكانك ولا تتبعهم واقتنع بهذا واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ولا تجعل بينى وبينهم بحراً ؛ فاتخذ لهم سعد الكُوفة ، واختط بها المسجد الجامع واختط الناس المنازل ومصَّرها سعد ، ثم حكم فى المدائن وملَكَ الكُنوز والذخائر .

﴿ ذِكر طُرَف مستملحة وقعت حينئذ ﴾

منها أن بعض العرب ظَفِرَ بجراب فيه كافور ، فأحضره إلى أصحابه فظنوه مِلْحًا ، فطبخوا طعاماً ووضعوا فيه كافوراً فلم يَرَوْا له طعماً ولم يعلموا ما هو ، فرآه رجل فعرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص خَلَقٍ يساوى دِرْهمين . ومنها أن بدوياً ظفر بحجر من الياقوت كبير يساوى مبلغاً عظيماً فلم يَدْرِ قيمتَه ، فرآه بعض مَنْ يعرف قيمته فاشتراه منه بألف درهم ، فبعد ذلك عرف البدوى قيمته ولامه أصحابه وقالوا له : هلا طلبت فيه أكثر من ذلك ؟ قال لو علمت أن وراء الألف عدداً أكثر من الألف لطلبته . ومنها أن بعضهم كان يأخذ فى يده الذهب الأحمر ويقول : من يأخذ الصفراء ويعطينى البيضاء ، يرى أن الفضة خير من الذهب .

﴿ ذكر ما آلت إليهِ حال يزدجرد ﴾

ثم إن يزدجرد هرب إلى خُرَاسان ، وما زال أمره يضعُف حتى قُتل فى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة بخراسان ، وهو آخر ملوك الأكاسرة ، وفى الدولة المذكورة دُوِّنت الدواوين ، وفُرِض العطاء للمسلمين ، ولم يكونوا قبل ذلك يعرفون ما الديوان .

﴿ شرح كيفية تدوين الدواوين ﴾

كان المسلمون هم الجند، وكان قتالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا، وكان لا يزال فيهم دائماً من يبذُل شَطْراً صالحاً من ماله فى وجوه البرّ والقُرَب، وكانوا لا يريدون على إسلامهم ونصرهم لنبيهم (صلوات الله عليه وسلامه) جزاءً إلاّ من عند الله (تعالى)، ولم يفرض النبي (صلوات الله عليه وسلامه) ولا أبو بكر (رضى الله عنه) لهم عطاءً مُقرَّراً. ولكن كانوا إذا غزَوْا وغنِموا أخذوا نصيباً من الغنائم قرَّرته الشريعة لهم، وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد أُحضر إلى مسجد الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) وفُرِّق فيهم على حسب ما يراه (صلى الله عليه وسلم) وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبى بكر (رضى الله عنه).

فلما كانت سنةُ خمسَ عشرةَ من الهجرة وهى خلافة عمر (رضى الله عنهُ) رأى أن الفتوح قد توالت، وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت، وأن الحُمُول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريقَ تلك الأموال فيهم، ولم يكن يَعْرِفُ كيف يصنع، وكيف يَضْبط ذلك؛ وكان بالمدينة بعض مَرَازبةِ الفُرْس. فلما رأى حَيْرَة عمر قال له: يا أمير المؤمنين، إن للأكاسرة شيئاً يُسمُّونهُ ديواناً، جميعُ دَخْلهم وخرْجهم مضبوط فيهِ لا يشِذُّ منهُ شىء، وأهل العطاء مُرَتَّبون فيهِ مراتبَ لا يتطرَّق عليها خَلَل؛ فتنبه عمر (رضى الله عنه) وقال: صِفْه لى، فوصفه المَرْزُبان، فَفَطِن عمر لذلك ودوَّن الدواوين وفرض العطاء، فجعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقرَّراً، وفرض لزوجات الرسول (صلوات الله عليهِ وسلامه) ولسَرَاريه وأقاربه حتى استنفد الحاصلَ، ولم يدَّخر فى بيت المال شيئاً، قالوا فقام إليه رجل وقال: يا أمير المؤمنين، لو تركتَ فى بيوت الأموال شيئاً يكون عُدَّة لحادث إن حدث!

فزجره عمر وقال : كلمةٌ ألقاها الشيطان على فيك ، وقانى الله شرَّها ، وهى فِتْنة لمن بعدى ، إنى لا أعِدُّ للحادث الذى يحدُث سِوَى طاعة الله ورسوله ، فهى عُدَّتنا التى بها بَلَغْنا ما بلغناه ؛ ثم إنّ عمر رأى أنْ يجعل العطاء على حسب السبق إلى الإسلام وإلى نُصْرَة الرسول (عليه الصلاة والسلام) فى مواطن حروبه . ثم استخدم الكتَّاب فى الدواوين وأمرهم بترتيب الطبقات وضَبْط العطاء . فقالوا بمن نبدأ يا أمير المؤمنين ؟ فأشار ناس من الصحابة عليهِ بأن يبدأ بنفسهِ ، وقالوا أنت أمير المؤمنين وتقديمك واجب . فكَرِه عمر ذلك وقال : ابدأوا بالعبَّاس عَمّ رسول الله (صلوات الله عليهِ) وبنى هاشم ثم بمن بعدهم طبقةً بعد طبقة ، وضَعُوا آل الخطاب حيث وضعهم الله (عز وجل) ؛ فاعْتُمِد ما أشار بهِ وجرى الأمر على ذلك مُدَّة خلافته وخلافة عثمان (رضى الله عنهما) ؛ ثم فى آخر خلافته خطر له تغيير هذا الرأى ، وأن يُفرض لكل واحد من المسلمين أربعةُ آلاف وقال : ألف يجعلها نَفَقَة لعياله إذا خرج إلى الحرب ، وألف يتجهَّز بها ، وألف يصحَبها معهُ ، وألف يرتفق بها . فمات عمر (رضى الله عنهُ) قبل إتمام هذا الرأى .

ومن وقائعها المشهورة وقعةُ الجمل .

﴿ شرح مبدأ وقعة الجمل وكيفية الحال فى ذلك ﴾

لما قُتِل عثمانُ بن عفان رضى الله عنهُ اجتمع الناس وقصدوا منزل أمير المؤمنين علىّ (عليه السلام) ، وسألوه تَوَلّىَ أمرهم ، فأبى عليهم وقال : لا حاجة لى فى أمركم . فألحُّوا عليه إلحاحاً شديداً ، واجتمعوا إليهِ من كل صَوْب يسألونه ذلك حتى أجاب ، فبايعه الناس فسار فيهم بسيرة الحق لا تأخذه فى الله لَوْمَة لائم ، وكانت حركاته وسكناته (عليهِ السلام) جميعُها لله وفى الله لا يقضى بها حقَّ أحد ، وكان لا يأخذ ولا يُعْطِى إلاَّ بالحق والعدل ، حتى إن أخاه عقيلاً وهو ابن أبيه وأمه

طلب من بيت المال شيئاً لم يكن له بحق فمنعهُ عليهِ السلام وقال : يا أخى ليس لك فى هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن اصبر حتى يجئ مالى وأعطيك منهُ ما تريد ، فلم يَرْضَ عقيل هذا الجواب وفارقهُ وقصد معاوية رضى الله عنهُ بالشأم ، وكان لا يُعْطِى وَلَدَيْه الحسَنَ والحُسَيْنَ عليهما السلام أكثر من حقِّهما ؛ فانظر إلى رجلٍ حَمَلَه وَرَعُه على هذا الصنيع بولديه و بأخيه من أبويه .

فلما سار فيهم هذه السيرة ثَقُل على بعض الناس فِعلُه ، وكرهوا مكانهُ . فخرج الزُّبَيْر وطَلْحَة (رضى الله عنهما) ، بعد ما بايعاه إلى مكة ، وكانت عائشة زوجة الرسول (صلوات الله عليهِ وسلامه) بمكة ، قد خرجت إليها ليالىَ حُوصِرَ عثمان بن عفان (رضى الله عنهُ) ، فاتفقا معها على عدم الرضا بامارة علىّ وعلى الطلب بدم عثمان ، ونسبوا علياً (عليه السلام) إلى أنه ألَّبَ الناس على عثمان وجرَّأهم على قتله (وما زال علىّ (عليه السلام) من أكبر المساعدين لعثمان الذَّابِين عنهُ ، وما زال عثمان يلجأ إليهِ فى دفع الناس عنهُ فيقوم (عليه السلام) فى دفعهم عنهُ القيامَ المحمود) ، وفى آخر الأمر لمّا حُوصِر عثمان أرسل علىٌّ (عليه السلام) ابنهُ الحسنَ (عليهِ السلام) لنُصْرَة عثمان (رضى الله عنهُ) ، فقال إن الحسن (عليهِ السلام) استقتل مع عثمان ، وكان عثمان يسأله أن يَكفَّ فيُقسِمُ عليه وهو يبذُل نفسهُ فى نُصْرَته ، وأما طلحة رضى الله عنه فانه كان من أكبر المساعدين على عثمان ، وهذا تشهد به جميع التواريخ .

وأما عائشة رضى الله عنها فانها كانت قد خرجت من المدينة إلى مكة ليالىَ حُوصِرَ عثمان بن عفان ، ثم رَجَعَت من مكة إلى المدينة فَلَقِيَها فى الطريق بعضُ أخوالها فقالت له ما وراءك ؟ قال : قُتِل عثمان ، قالت : فما صنع الناس بعده ؟ قال : بايعوا عليًّا ، قالت : ليت هذه انطبقت على هذه إنْ تَمَّ الأمر لصاحبك ،

ثم رجعت إلى مكة وهى تقول : قُتِل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطْلبَنَّ بدَمِهِ ، فقال لها الرجل لِمَ ؟ والله إن أوَّل من أمَالَ حروفه لأنتِ ، والله لقد كُنتِ تقولين اقتلُوا نَعْثلاً فقد كفر ، وكان ذلك لَقَباً لعثمان ، فقالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلتُ وقالوا ، وقولى الأخير خَيْرٌ من قولى الأول ؛ ولما رَجَعَتْ إلى مكة اتفقتْ مع الزبير وطلحة على ما ذكرناه من الطلب بدم عثمان وسُخْطِ إمارة علىّ ، واتَّفَقَ معهم مَرْوَانُ بن الحَكَمِ وهو ابن عمِّ عثمان ، وقالوا للناس إن الغَوْغَاء من أهل الامصار وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المسكين ، يعنى عثمان ، فقتلوه ظلماً وعُدْوَاناً فسفكوا الدم الحرام فى البلد الحرام فى الشهر الحرام ، ثم استمالوا أناساً وعزموا على قصد البَصْرَة واستمالة أهلها والتَّقَوِّى بها على قتال علىّ (عليهِ السلام) ، فلما انتهى ذلك إلى أمير المؤمنين ، قام فخطب الناس وأعلمهم الحال ، وقال انها فتنة وسأُمْسِكُ الأمر ما استمسك بيدى ؛ ثم بلغه ما هم فيه من الجموع والتصميم على الحرب فنَهَدَ اليهم فى جيش من المهاجرينَ والأنصار .

وقد كانت عائشة رضى الله عنها فى توجُّهها إلى البَصْرَة اجتازت بماء يقال له الحَوْأب ، فنبحتها كلابُه . فقالت للدليل ما اسم هذا الموضع ؟ قال الحوأبُ . فصرخت بأعلى صوتها وقالت رُدُّونى « إنَّا للهِ وَإِنَّا إليهِ رَاجِعُونَ » سمِعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول عند نِسائه « أيتُكُنَّ تَنْبَحُها كِلاَبُ الحَوْأب ؟ » ، ثم عزمتْ على الرجوع ، فقالوا لها إن الدليل كَذَبَ ولم يعرف الموضع ، وقالوا لها إن لم تسيرى من هذا الموضع وإلاّ أدْرَكَكم علىّ بن أبى طالب فيه فهلكتم ؛ فسارت وسار علىّ (عليه السلام) فالتقى الجمعان بظاهر البصْرة ، وجرت خطوب وحروب ، ففى بعضها التقى (عليهِ السلام) وطلحة والزبير ، فقال علىّ (عليه السلام) لطلحة : يا طلحة ، تطلُب بدم عثمان ؟ فلعن الله قَتَلَةَ عثمان ، يا طلحةُ أجئتَ

بعرس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تقاتل بها وخبّأت عِرْسك فى البيت ، أَمَا بايعتنى ؟ قال بايعتُك والسيفُ على عُنُقِى ، فقال علىّ عليهِ السلام للزبير : يا زبيرُ ما أخرجك ؟ قال أنت ، ولا أراك أهلاً لهذا الأمر ولا أولى به مِنّا ، فقال علىّ عليهِ السلام : لقد كُنّا نَعُدُّك من بَنى عبد المطلِب حتى بلغ ابنُك ابنُ السّوء ففرّق بيننا عبد الله بن الزبير . وذكّره على أشياء وقال له : أتذكرُ لمّا قال رسول الله (صلوات الله عليهِ وسلامه) لتُقاتلنّه وأنت ظالم له ؟ قال : اللّهُمَّ نعم ، ولو ذكرْتُ لما سِرْتُ مَسِيرى هذا ، ووالله لا أقاتلك أبداً ؛ فانصرف أمير المؤمنين عليه السلام إلى أصحابه وقال : أمّا الزبير فقد أعطى الله عهداً ألّا يقاتلكم . ثم إن الزبير عزم على ترك الحرب فخدعهُ ابنه عبد الله ، وما برح به حتى كَفَّرَ عن يمينه وقاتل ولمّا ترَاءى الجمعان كان عسكر عائشة وطلحة والزبير (رضى الله عنهم) ثلاثين ألفاً ، وعسكر علىّ (عليه السلام) عشرين ألفاً ، فقَبْلَ أن تنشِبَ الحرب وعظهم أمير المؤمنين (عليه السلام) وندبهم إلى الصُّلح وبذل لهم كلّ ما ليس عليه فيه غَضَاضةٌ من جهة الدين . فمالوا شيئاً إلى الصلح ، وباتوا على ذلك ؛ ثم فى الغدَاة نَشِبَ القتال بين القبيلَيْن ، وجرت مناوشات وحروب أفضت إلى نُصْرَة جيش أمير المؤمنين (عليه السلام)

فأما الزبير فانهُ لمّا رأى النُّصْرَة عليهم ردَّ رأس فرسه ومرَّ ، فتَبِعهُ رجل من عرب البَصْرَة فتبِعهُ عُمَيْر بن جُرْمُوز فقتله بوادى السباع ، وأتى إلى علىّ (عليه السلام) بسيفه فقال للحاجب إسْتَأذِنْ لقاتل الزبير فقال علىّ (عليهِ السلام) بَشِّرْ قاتلَ ابن صَفِيَّةَ بالنار (وصفيّة أمُّ الزبير وهى عمّة أمير المؤمنين عليه السلام) ولما رأى سيفه قال : سيفٌ طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله (صلوات الله عليه) .

وأمّا طلحة فجاءه سهم عائر فى رجله فأعْطَبَه ، فدخل البصرة رَدِيفاً لغلامه وقد امتلأ خُفّه دماً وهو يقول : اللهم خُذ لعثمان منّى حتى ترضى ، فمات بدارٍ

خَرِبة من دور البَصرة ، وقبره اليومَ بالبَصرة فى مشهد محترَم عندهم ، إذا اعتصم به خائف أو طريد لا يجسُر أَحد كائناً مَن كان على إخراجه منه ، ولأهل البصرة فى طلحة اعتقاد عظيم إلى يومنا ، وقيل إنّ الذى قتل طلحة مروانُ بن الحكم .

وأمّا عائشة (رضى الله عنها) فانها كانت على جَمَلٍ فى هَوْدج وقد أُلْبِس هودجُها الدروعَ والنسائجَ الحديد ، فلما اشتد القتال وانفلّت جموعها عُرْقِب الجمل فوقعَ ورُفِعَ هودجها محْملاً ووضع فى مكان بعيد عن الناس ، وكان أخوها محمد بن أبى بكر من أصحاب علىّ (عليه السلام) وابن زوجته أسماء بنت عُمَيْس (رضى الله عنها) ، فأمَرَه علىّ (عليهِ السلام) أن يَمْضى إلى أخته وينظرَ أهى سليمة أم أَصابها شىء من جِرَاحٍ ؟ فمضى إليها فرآها سليمة ، ثم أدخلها ليلاً إلى البصرة ؛ ثم إنّ أميرَ المؤمنين عليهِ السلام أذِن للناس فى دَفْن القتلى وكانوا عشرة آلاف من القبيلَيْن ؛ ثم أمر عليهِ السلام بجمع الأسلاب وأدخلها إلى المسجد الجامع بالبصرة ، ونادى فى الناس من عرف شيئاً من قماشه فليأخذه ؛ ثم إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أحسن إلى عائشة غاية الإحسان وجهزها بكل ما ينبغى لمثلها ، وأذِن لها فى الرجوع إلى المدينة ، وبعث معها كلّ مَنْ نجا مِمّن خرج معها إلاّ مَنْ أحبَّ المقَام واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات لأجل مُؤانَسَتِها فى الطريق ، وسيَّرها صُحْبة أخيها محمد بن أبى بكر مكرَّمة محترَمة ؛ فلما كان يومُ رحليها حضر علىّ (عليهِ السلام) وحضر الناس فقالت عائشة (رضى الله عنها) : يا بَنِىَّ (وإنّما قالت ذلك لأن نساء النبى عليهِ السلام هنَّ أمهات المؤمنين كذلك قال الله تعالى ورسوله صلوات الله عليهِ) « لا يَعتِب بعض على بعض ، إنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلاّ ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه على مَعْتَبتى لَمنَ الأخيار » وقال علىّ عليهِ السلام « صدقتْ والله ما كان بينى

وبينها إلاّ ذاك ، وإنها لزوجة نبيّكم فى الدنيا والآخرة » ثم سارت وشيّعها عليه السلام أميالا ، وأرسل بنيهِ معها مَسيرة يوم ، وتوجهت إلى مكة وأقامت بها إلى أيام الحج ثم حجّت وانصرفت إلى المدينة ، وكانت وقعة الجمل فى سنة ستٍ وثلاثين من الهجرة . ومن وقائعها المشهورة وقعة صِفّين .

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك ﴾

لما انصرف أمير المؤمنين (عليه السلام) من وقعـة الجمل ، أرسل إلى مُعاوية رضى الله عنه يعرِّفه اجتماعَ الناس على بَيْعَته ، ويُعْلِمه ما كان من وقعة الجمل ، ويأمُره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار ، وكان معاوية (رضى الله عنه) أميراً بالشأم من قِبَل عثمان (رضى الله عنه) ، وكان ابن عَمه . فلماَّ ورد إلى معاوية (رضى الله عنه) رسولُ أمير المؤمنين علىّ (عليه السلام) خاف معاوية (رضى الله عنه) من علىّ (عليه السلام) وعَلِم أنه متى استتبَّ الأمر له عزله ولم يستعمله . وقد كان ابن عباس والمُغيرةُ بن شُعْبَةَ (رضى الله عنهما) أشارا على أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يُقِرَّ معاوية (رضى الله عنه) بالشأم مدةً حتى يبايع الناس ويتمكّن ثم يعزِلَه بعد ذلك ، فلم يُطِعْهما عليهِ السلام ، وقال : إنى إن أقررته على إمارته ولو يوماً واحداً كنتُ عاصياً فى ذلك اليوم لله تعالى ، ولم تكن الخُدَع والحِيَل من مذهب علىّ (عليه السلام) ولم يكن عنده غيرُ مُرِّ الحق ؛ فحين ورد الرسول الى معاوية (رضى الله عنه) طاوله ، ثم استشار بعمْرو بن العاص (رضى الله عنه) ، وكان أحد الدُّهاة ، وكان معاوية (رضى الله عنه) قد تألَّفه واستماله ليتقوّى برأيهِ ودَهائهِ ، فأشار عمرو بن العاص على معاوية (رضى الله عنهما) أن يُظْهر قميص الدم الذى قُتل فيهِ عثمان بن عفان وأصابعَ زوجته (رضى الله عنهما)

ويعلِّق ذلك على المنبر ، ثم يجمَع الناس ويبكيَ عليهِ ويُلصقَ قتل عثمان بعليّ (رضى الله عنهم) ويطالبَه بدمه ، ليميل اليهِ أهلِ الشأم ويقاتلوا معهُ ، فأخرج معاوية (رضى الله عنهُ) القميص والأصابع وعلّقه على المنبر وبكى واستبكى الناس وذكرهم بِمُصاب عثمان (رضى الله عنه) ، فانتدب أهلَ الشأم من كلّ جانب وبذلوا له الطلب بدم عثمان (رضى الله عنه) والقتالَ معه على كل من آوَى قتَلَتَه . ثم كتب معاوية (رضى الله عنه) الى أمير المؤمنين (عليه مسلام) كتاباً يذكر فيه ذلك . فحينئذ تجهّز عليّ (عليه السلام) للقتال وكاتبَ الناس ليجتمعوا معه ، وكذلك صنع معاوية (رضى الله عنه) . ثم التقوْ بصِفِّين من أرض الشأم فجرت بينهم مُناوشات وحروب كان أوّلها أن معاوية وأصحابه (رضى الله عنهم) سبقوا إلى شريعة الماء فملكوها ومنعوا أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) من الماء ، ولم يكن هناك شريعة غيرها ، فلما أُخْبِرَ عليّ (عليه السلام) بذلك أرسل إلى معاوية رضى الله عنه رسولاً يقول له : إن من مَذهبنا ألاّ نبدأكم بقتال حتى نحتجَّ عليكم وننظر فيما جئنا له وتنظرون ، وقد منع أصحابك الناس من الماء فابعثْ حتى يُخَلّوا سبيل الماء ، وان شئتم أن نترك ما جئنا له وتكون مقاتلتنا على الماء فيكون الغالب هو الشارب فعلنا ذلك . فقال معاوية (رضى الله عنهُ) لأصحابه : ما تشيرون ؟ قال قوم من بني أمية : نرى أن نمنعهم الماء حتى يموتوا عَطَشاً أو يرجعوا لطلب الماء فتكون هزيمة . فقال عمرو بن العاص (رضى الله عنه) : « أرى أن نُخَلِّيَ لهم سبيل الماء فإن القوم لا يعطَشون وأنت ريّان » . فأخر معاوية (رضى الله عنهُ) الجواب وقال سأنظر ؛ فاقتتل الناس على الماء ، وأمدّ عليّ (عليه السلام) أصحابه ، وأمدّ معاوية (رضى الله عنه) أصحابه ، ونَشِبت الحرب والتحم القتال ، فملك أصحاب عليّ (عليه السلام) الشريعة ،

فأرادوا منع أصحاب معاوية (رضى الله عنهُ) فأرسل إليهم علىّ (عليه السلام) وقال : خذوا حاجتكم من الماء ولا تمنعوهم منه ؛ ودام عَلَى ذلك مدة حتى كاد عسكر علىّ (عليه السلام) أن يَغْلبوا ، وظهرت أمارات الفتح ، نخاف عمرو بن العاص (رضى الله عنه) من الهلاك ، فأشار عَلَى معاوية (رضى الله عنهُ) برفع المصاحف عَلَى الرماح والدعاء إلى ما فيها من أمر الله (عزَّ وجل) . فلما رُفعت المصاحف فَترأ كثر الناس عن الحرب ، وجاءوا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وقالوا : يا علىّ أَجِبْ إلى كتاب الله (عزَّ وجلَّ) فوالله إن لم تفعل لنحملنَّكَ كارهاً إلى معاوية (رضى الله عنه) أو لنفعلَنَّ بك كما فعلنا بابن عفَّان (رضى الله عنهُ) . فقال لهم علىّ (عليهِ السلام) : يا قوة إنها خُدْعَة منهم ، وإنهم ليس فيهم من يعمل بهذه المصاحف ، أَوَ لَسْتم عَلَى بيِّنةٍ من ربكم ؟ فامضوا لشأنكم وقاتلوا عدوَّكم ، فلم يفعلوا وغلبوه ، فأجاب إلى ترك القتال ، ثم أرسل إلى معاوية (رضى الله عنهُ) رسولاً يقول له : ما الذى تريد برفع هذه المصاحف ؟ قال : نحَكِّم منا رجلًا ومنكم رجلًا ، ونُقْسِم عَلَى الرجلين أن ينصحا الأمة ويعملا بما فى كتاب الله (عزَّ وجلّ) وما لم يجداه فى كتاب الله حملاه عَلَى السنَّة والجماعة ، فأىُّ شىء حكما به قَبلناه؛ فتراضى الناس جميعاً بذلك إلا أمير المؤمنين (عليهِ السلام) فإنه رَضِى كارهاً مغلوباً وَنَفَرٌ يسير من بطائنهِ كالأشتر وابن عباس (رضى الله عنهم) وغيرهما . وانعقد الاجماع على تحكيم رجلين . فأما أهل الشأم فاتفقوا على أن يكون الحَكَمُ من جهتهم عمرو بن العاص (رضى الله عنه) ، داهية العرب . وأما أهل العراق فطلبوا أبو موسى الأشعرىَّ (رضى الله عنه) ، وكان شيخاً مُغفَّلاً فلم يستصلحه أمير المؤمنين (عليه السلام) للتحكيم ، وقال : إن كان ولا بد من التحكيم فدعونى أُرْسِلْ عبد الله بن عباس ، فقالوا : ألا والله هو أنت وأنت هو ؛ قال : فالأشتر ، قالوا : فهل سَعَّرَ الأرض غير الأشتر ؟ قال :

فقد أبيتم إلا أبا موسى ؟ قالوا : نعم ، قال : فافعلوا ما شئتم ، فاتفق الناس على أبي موسى وعمرو بن العاص (رضى الله عنهما) وتواعدوا إلى شهور ، وسكنت الحرب ، وانصرف الناس إلى أمصارهم ، ورجع معاوية (رضى الله عنه) إلى الشام وأمير المؤمنين (عليه السلام) إلى العراق . ثم بعد شهور سار الحكمان ليجتمعا بدومة الجندل وكانت ميعاد الحكمين ، وسار ناس من الصحابة ليشهدوا ذلك المقام ، وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) قد أرسل صُحْبة أصحابه عبدَ الله ابن العباس (رضى الله عنه) ، فلما اجتمع الحكمان قال عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعرى : يا أبا موسى ألستَ تعلم أن عثمان قتِلَ مظلوماً ؟ قال أشهدُ . قال : ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال : بَلَى ، قال عمرو : فما منعك منهُ وبيتهُ فى قريش كما قد علمت ؟ فان خِفْتَ أن يقول الناس ليست له سابقة ، فقل وجدته ولىَّ عثمانَ الخليفةِ المظلوم والطالبَ بدمه الحسنَ السياسة والتدبير ، وهو أخو أم حَبِيبَة زوج النبى (صلوات الله عليه) وكاتبهُ وقد صَحِبهُ . وعرَّض عمرو لأبى موسى بولاية ، ووعده عن معاوية بأشياء ، فأبى أبو موسى وقال : معاذَ الله أن أوَلِّىَ معاوية وأن أقبل فى حكْم الله رِشْوَة ! فقال له عمرو : فما تقول فى ابنى عبد الله ؟ وكان لعمرو بن العاص ابنٌ اسمه عبد الله من خِيار الصحابة (رضى الله عنهم) ، فأباه أبو موسى وقال لعمرو : إنك غَمَسْته معك فى هذه الفتنة ولكن هل لك فى إحياء اسم عمر بن الخطاب ؟ وندَبه إلى عبد الله بن عمر ، فأباه عمرو ، فلماَّ لم يتفقا قال له عمرو : يا أبا موسى فأىُّ شىء هو رأيك ؟ قال أبو موسى : رأيى أن نخلع عليًّا ومعاوية (رضى الله عنهم) مِنْ هذا الأمر ونُرِيحَ الناس من هذه الفتنة وندعَ أمر الناس شُورَى فيختار المسلمون لأمرهم من يُجْمِعون عليه . قال عمرو (رضى الله عنه) : نِعْمَ ما رأيت ، وأنا معك على ذلك ، ولاح

لعمرو وجهُ الحيلة ، وكان قد عوّد أبا موسى الأشعرى أن يتقدمه فى الكلام ، يقول له أنت صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأكبر سنًّا . فتعوّد أبو موسى أن يتكلم قبل عمرو ، فتقدم أبو موسى وقال : إنى وعَمْرا قد اتفقنا على أمر نرجو فيه صلاحَ المسلمين . فتقدم عمرو وقال : صدَقَ وبَرَّ ، تقدمْ يا أباموسى وأعْلِم الناس بما اتفقنا عليه . فقام ابن عباس وقال لأبى موسى : وَيْحَكَ إنى لأظنه قد خدعك وقد أوهمك أنه اتّفق معك على ما تريد ، ثم قدّمك لتعترف به ، فاذا اعترفت أنْكَرَه ، فانه رجل غادر ، فان كنتما قد اتفقتما على شيء فقدِّمْه ايقوله قَبْلك . فقال أبو موسى : إنا قد اتفقنا ، ثم قال : إننا قد اتفقنا على أن نخلع عليا ومعاوية وندع أمر المسلمين شُورَى يختارون من أجمعوا عليه وإنى قد خلعت عليا ومعاويةَ من الخلافة كما يُخْلَعُ الخاتم من الإصبع ، فتقدم عمرو بن العاص (رضى الله عنه) وقال : أيها الناس قد سَمِعتم ما قال ، وأنه قد خلع صاحبه ، وأنا أيضاً قد خلعتُهُ معه وأثْبَتُّ صاحبى معاوية . فأنكر أبو موسى وقال : إنه غدَرَ وكَذَبَ وما على هذا اتفقنا . فلم يُسْمَعُ منه ، وتفرّق الناس ، ومضى عمرو بن العاص وأهل الشام إلى معاوية وسلّموا عليه بالخلافة ، ومضى ابن عباس وأصحاب علىّ (عليه السلام) إلى أمير المؤمنين وأخبروه بما جرَى . وأما أبو موسى فان أهل الشأم تطلبوه فهرب إلى مكة . وعلى ذلك انفصل أمر صفِّين . وكان ابتداؤه فى سنة سِتٍ وثلاثين وانقضاؤه فى سنة سَبْع وثلاثين .

﴿ حديث الخوارج وما كان منهم وما آلت بهم الحال إليه ﴾

لمّا جرَى أمر التحكيم على الوجه المشروح عاد الذين أشاروا بالتحكيم وألزموا أمير المؤمنين (عليه السلام) الرضا به ، فندِموا عليه ونفروا واتَوْا عليًّا (عليهِ السلام) وقالوا : لا حُكْمَ إلاّ لله . قال علىّ (عليه السلام) : لا حُكم إلاّ لله . قالوا :

فما لك حَكَّمْتَ الرجال ؟ قال : إنى لم أرض بقضية التحكيم وأنتم الذين رضِيتموها .
وإنى أعلمتكم أنها مَكيدة من أهل الشأم ، وأمرتكم بقتال عدوِّكم منهم ، فأبيتم
إلاّ التحكيم ، وغلبتمونى على رأيى ، فلما لم يبق بدٌّ من التحكيم ، استوْثقتُ
وشَرَطت على الحكمين أن يعملا بكتاب الله عز وجل ، وأن يُحْيِيَا ما أحيا الكتاب ،
ويُميتا ما أمات ، فاختلفا وخالفا كتاب الله وعملا بالهوى ، فنحن عَلَى الرأى الأول
فى قتالهم . قال الخوارج : أمَّا نحن فلا رَيْبَ أنَّا رَضِينا بالتحكيم فى أول الأمر ،
لكنَّنا ندِمنا عليه وعَلِمنا أنَّا كنا مُخطئين ، فأنت إنْ أقررت عَلَى نفسك بالكفر
واستغفرت الله من خِطْأتك وتضييعك وتحكيمك الرجال رجعنا معك إلى قتال
عدوِّك وعدوِّنا ، وإلاّ فهانحن قد نابَذْناكَ . فوعظهم بكل قول ، وبصَّرهم بكل
وجه فلم يرجعوا . واجتمعوا امماً من أهل البصرة والكوفة وغيرهم وقصدوا
النَّهْرَوان ، وكان رأيهم أن يأتوا بعضَ المدن الحصينة فيتحصنوا بها ويقاتلوا فيها .
وصدرت منهم أمور متناقضة تدل عَلَى أنهم يخبِطون خَبْطَ عَشْواء : منها أن رُطَبَةً
سقطت من نخلة فتناولها رجل ووضعها فى فيه فقالوا له : أكلتها غصباً وأخذتها
بلا ثمن ، فألقاها . ومنها أن خِنزيراً لبعض أهل القُرى مرَّ بهم فضربه أحدهم
بسيفِهِ فعقره ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ، فمضى الرجل إلى صاحب الخنزير
وأرضاه . ومنها أنهم كانوا يقتُلون النفس التى حُرِّمت إلاّ بالحق : قتلوا عبد الله
ابن خَبَّاب (رضى الله عنهُ) ، وكان خَبَّاب من كبار الصحابة ، وقتلوا عِدَّة نساء
وسبَوْا وفعلوا أفاعيل من هـذا القبيل . فلمَّا بلغ عَليًّا (عليهِ السلام) أمرُهم وقد
كان خَطَبَ الناس فى الكوفة وندبهم إلى قتال أهل الشأم وإعادةِ الحرب جَذَعَةً
قالوا : يا أمير المؤمنين أين نمضى وندع هؤلاء الخوارج يَخْلُفُونَنا فى عيالنا وأموالنا ؟
سِرْ بنا إليهم فإذا فرغنا من قتالهم رجعنا إلى قتال أعدائنا من أهل الشأم ، فسار

(عليه السلام) بالناس إلى الخوارج فَلَقِيَهُم عَلَى النهروان وأبادهم ، فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا .

﴿ كرامة لأمير المؤمنين عليّ صلوات الله عليه ﴾

لما التقى الخوارج بالنَهْرَوان أجفلوا قُدَّامه إلى ناحية الجِسْر ، فظن الناس أنهم قد عبروا الجسر ، فقالوا لعليّ (عليهِ السلام) : يا أمير المؤمنين ، إنهم قد عبروا الجسر ، فالْقَهُم قبل أن يبعُدوا ، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ما عبروا ، وإن مصارعهم دون الجسر ، ووالله لا يُقْتَل منكم عشرة ولا يبقى منهم عشرة ، فشكَّ الناسُ فى قوله ، فلما أشرفوا عَلَى الجسر رَأَوْهم لم يعبُرُوا ، فكرَّ أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) وقالوا له : هو كما قلتَ يا أمير المؤمنين ، قال : نعم ، والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ؛ فلما انفصلت الوقعة وسكنت الحرب اعْتُبِرَ القتلى من أصحاب عليّ (عليه السلام) فكانوا سبعة ، وأما الخوارج فذهبت طائفة منهم قبل أن تنشَبَ الحرب وقالوا : واللهما ندرى عَلَى أىّ شىء نقاتل عليّ بن أبى طالب ؟ سنأخذ ناحية حتى ننظر إلى ماذا يؤول الأمر ؛ وأما الباقون فثَبَتوا وقاتلوا فهلكوا جميعُهم ؛ ثم إن أمير المؤمنين (عليه السلام) لمَّا انقضى أمر الخوارج رجع إلى الكوفة ونَدَب الناس إلى قتال أهل الشام فتثاقلوا ، فأَعاد القولَ عليهم ووعظهم وحثهم عَلَى الجهاد فقالوا : يا أمير المؤمنين كلّتْ سيوفُنا ، وفَنِيَتْ نِبالنا ، ومَلِلْنا من الحرب فأَمْهِلنا نُصْلِحْ أُمورنا ونتوجَّهْ ؛ وكان قد عسكر ظاهر الكوفة ، فأَمهلهم وأمرهم أَن يوطِّنوا نفوسهم على الحرب ، ونهاهم عن غِشيان أهاليهم حتى يرجعوا من الشأم ؛ فصاروا يتسلّلون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكَر منهم ؛ فَبطَل رأْيُه (عليه السلام) وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين .

﴿ وفاة الأربعـــة ﴾

وفاة أبي بكر رضى الله عنه : أوَّلُ من مات منهم أبو بكر ، مات بالمدينة حَتْفَ أنفهِ فى سنة ثلاثَ عشْرَة ؛ وكان مرضه انتقاضَ لسعة الحيَّـة التى لسعته ليلةَ الغار ؛ وَدُفِن عند النبى (صلوات الله عليـه وسلامه) فى بيت عائشة ابنته (رضى الله عنها) زوج الرسول ، وكان الرسول (صلوات الله عليه) لمَّا قُبِضَ قُبِضَ فى بيتها ، فَدُفِنَ أبو بكر عنده ، وعَهِد إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) واستخلفه على الأمة بعده

مَقْتَل عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لمَّا وَضع عمر بن الخطاب (رضى الله عنه الخرَاج) اغتاظ من ذلك أبو لُؤلُؤَة غلام المُغيرَة بن شُعْبَةَ لأنه كان قد وضع الخراج على مولاه ، وكان عمر بن الخطاب لَقِيَ أبا لؤلؤة فقال له : اصنع لى رحًى ، فقال أبو لؤلؤة لأصْنعَنَّ لك رحى تدور مع الدهر ، فقال عمر : يُهدّدنى العبد ؛ فطعَنَه ، وهو فى الصلاة ، فَبقِيَ ثلاثة أيام ومات ، ودُفن فى تُرْبة النبى (عليه السلام) ، وذلك فى سـنة ثلاث وعشرين من الهجرة . وأما أبو لؤلؤة فاجتمع الناس عليه فقتلَ منهم جماعة ثم أُخِذَ وقُتِل

ذِكْر الشورَى وصفة الحال فى ذلك : لمَّا طُعِن عمر اجتمع إليه الناس وسألوه عمن يتولّى الأمرَ بعده ، فجعل الأمر شورَى (والشورى فى اللغة هى المشاورة) ومعنى هذا أن عمر لمّا أحسَّ بالموت نظر فيمن يَعْهد إليه ويوليِّـه أمر الأمة ، فلم يَصِحَّ رأيه فى رجل واحد . فجعلها فى ستَّةٍ من أكابر الصحابة ، وهم أصحاب الشورى : أمير المؤمنين علىّ (عليه السلام) وعثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عَوْفٍ ، وسعد بن أبى وقَّاص (رضى الله عنهم) ، وقال : كلٌّ من

هؤلاء صالحٌ للأمر بعدى ؛ وأمَرَهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام ، ثم يُجْمِعوا على واحد من هؤلاء الستة ؛ وكان طلحة (رضى الله عنه) غائباً ، فقال عمر إن قَدِم طلحة قبل الأيام الثلاثة وإلاّ فأَمضُوا أمركم ، وأقام عليهم رجلاً من الأنصار ، وقال : إنَّ الله أعزَّ بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً من الأنصار واستحِثَّ هؤلاء الرَّهْطَ حتى يختاروا رجلاً ، وقال : « إن اجتمع خمسة ورضُوا واحداً منهم وأَبَى واحد فأشدَخ رأسه بالسيف ؛ وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رءوسهما ؛ وإن رضى ثلاثةٌ منهم رجلاً وثلاثةٌ رجلاً فحَكِّموا عبد الله بن عمر » يعنى ابنه « فبأى الفريقين حَكَم فليختاروا رجلاً منهم » وكان قد أمر بحضور ابنه فى ذلك المَقام مشيراً ، ولم يجعل له من الأمر شيئاً « فان لم تختاروا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدُ الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس » فلم يَجْرِ مما قال شىء ؛ بل لمَّا مات بويع عثمان بن عفان وكان من الأمر ما كان .

مقتل عثمان بن عفان : وسببه أنّ ناساً من المسلمين نقَموا عليه تَجَاوُزَه لطريقة صاحِبَيْه أبى بكر وعمر ، (رضى الله عنهم) من التقلُّل والكفّ عن أموال المسلمين وكان هو قد فرّق جملة منها على أقاربه ووسَّع على عياله وأهله ، فمن جملة ما فعل أنه أعطى عبد الله بن خالد بن أَسِيد خمسين ألف درهم وأعطى مروان بن الحكم خمسة عشَرَ ألفاً ، ولم يكن المسلمون اعتادوا مثلَ هذا التبذير ، وعهدُهم قريبٌ بضبط أبى بكر وعمر ، (رضى الله عنهما) . فنفِروا من ذلك ، وجرت بينهم وبينه معاتبات ومقاولات ، فاعتذر إليهم بأنّ أبا بكر وعمر (رضى الله عنهما) منعا أنفسهما وأهلهما احتساباً لله وتركا حقّ نفوسهما ، وأنا صاحب عِيال مددت يدى فوسَّعْتُ علىّ وعلى أهلى بشىء من هذا المال فان سَخِطتم هذا فأمرى لأمركم تبَعٌ ، فقالوا : أأحسنت وأنصفت إذ أعطيت عبد الله بن خالد خمسين ألفاً ومروان

خمسة عشر ألفاً ؟ قال : فانى استعيد ذلك منهما ، واستعاد ما أعطاهما . وكان إذا عاتبوه عَلَى صادرات أموره التى يحمله عليها ويحسِّنها له مروان بن الحكم ، يعتذر مرَّة ويلتزم لهم ما يشيرون به عليه ، ويحتجُّ مرَّة . وفشا الأمر فاجتمع ناس من أهل الأمصار عَلَى حربه ، فجاء أهل مصر وناس من كل صُقْع وعزموا عَلَى قتله . فخرج ليلاً وجاء إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال له : يا ابنَ عمّ ، لى عليك حقٌّ وقد قصدتُك ، ولك عند هؤلاء القوم مَنزِلةٌ ، وهم يَقبلون قولك وقد ترى جُرأتهم علىّ ، فاخرجُ إليهم ورُدَّهم عنِّى . فرَكبَ علىّ (عليه السلام) وردَّ الناس عنهُ ، وضَمِن لهم عنه حُسْنَ السيرة ، فرجعوا ، ثم أعضل الخطب وزيَّنَ له مروان بن الحكم أموراً نقمها الناس ، فاجتمعوا عليهِ من كل صَوْب وأحاطوا بهِ وحصروه فى داره ، فأرسل إلى علىّ (عليه السلام) يستنصره ، فأرسل له ابنَه الحسن (عليهِ السلام) ، فقاتل عنهُ قتالاً شديداً حتى كان يستكِفُّهُ وهو يقاتل عنهُ ويبذُل نفسه دونه ، وتكاثر الناس عليهِ فدخلوا عليه الدار وخَبَطوه بالسيوف ، وهو صائم ، والمصحف فى حِجْره ، وهو يقرأ فيه ، فوقع المصحف بين يديه وسال الدم عليه ، فقامت زوجته نائلة لتلتقى عنه الضرب بيدها ، فأصاب السيفُ أصابعَها فأبانها ، (وهى الأصابع التى كان يعلِّقها معاوية رضى الله عنه عَلَى مِنْبَرِ الشام مع قميص عثمان ليرقِّق الناس بذلك) فولَّت المرأةُ دَهِشَةً . ثم قُتِلَ عثمان (رضى الله عنه) واحتزُّوا رأسه ، فوقع نساؤه عليه وصِحْنَ و بكَيْنَ فقال بعضهم دعوه ، فتركوه ، ثم داس رجل من أهل الكوفة يقال له عُمَيْر بن ضابِىء البُرْجِمِىّ أضلاعه فكسرها ، ثم نُهِبَتْ داره حتى اخِذ ما عَلَى النساء ، ثم حُمِلَ فى تابوت بعد أيام ليُدْفَنَ ، فقعد جماعة عَلَى الطريق يُريدون رَجْمَه فأرسل أمير المؤمنين علىّ (عليه السلام) إليهم فردَّهم عن ذلك ، ودُفن قريباً من البقيع ، ثم بعد ذلك اشترى معاوية

(رضى الله عنهُ) ما حَوْلَ قبره ومَزَجَه بمقابر المسلمين ، وأباح للناس الدفن حوله ، وكان ذلك فى سنة خَمْسٍ وثلاثين من الهجرة ، وسُمِّيَ يومُ قتله يوم الدار ، لأنهم هجموا عليهِ فى داره وقتلوه بها .

مقتل أمير المؤمنين علىّ عليهِ السلام : نُقِل من عِدَّة جهات أن أمير المؤمنين (عليهِ السلام) كان يقول دائماً : ما يمنع أشقاكم أن يَخْضِب هذه من هذا ، يعنى لِحْيَتَه بدم رأسه ، وكان إذا رأى عبد الرحمن بن مُلجَم (لعنه الله) يُنشد :

(وافر)

أريد حِبَاءه فيريدُ قتلى عَذِيرَكَ من خليلك من مُرَادِ

وكان يقال له إذا جرى على لفظه مثلُ هذا يا أمير المؤمنين ، فَلِمَ لا تقتله ؟ فيقول كيف أقتل قاتلى ؟ وهذا يدل على أن رسول الله (صلى الله عليهِ وسلم) أعْلَمَه بذلك فى جملة ما أعلمه بهِ ؛ ومما يؤكّد هذا ما رُوِىَ عن أَنَسِ بن مالك (رضى الله عنهُ) قال مَرِضَ علىّ (عليهِ السلام) فدخلتُ عليهِ أعوده وعنده أبو بكر وعمر (رضى الله عنهما) فجلسنا عنده ساعةً فأتى رسول الله (صلوات الله عليهِ) فنظر فى وجهه ، فقال له أبو بكر (رضى الله عنهُ) يا نبىّ الله : إنّا نراه مائتاً ، فقال : « لن يموت هذا الآن ، ولن يموت حتى يُمْلَأَ غيظاً ، ولن يموت إلاّ مقتولا » . وكان علىّ (عليهِ السلام) دائماً يحسن إلى ابن مُلْجَم (لعنهُ الله) . قالوا فلما دخل شهر رمضان من سنة أربعين ، كان علىّ (عليهِ السلام) يُفْطِر ليلةً عند الحسن وليلةً عند الحسين ، وليلةً عند ابن أخيه عبد الله بن جعفر الطيّار (عليهم السلام) ، فاذا أكل لا يزيد على ثلاث لقَم ويقول : إنما هى ليلة أو ليلتان ، ويأتى أمر الله وأنا خَمِيص ، فلم يمض إلاّ ليالٍ قلائل حتى قُتِل (عليهِ السلام) ؛ وقيل إنهُ قُتِل فى شهر ربيع الآخر ، والأول أصح وهو المعوَّل عليه .

وأما كيفية قتله (عليه السلام) فهى أنهُ خرج من داره بالكوفة أولَ الفجر، فجعل ينادى : الصلاةَ (يرحمكم الله) . فضربهُ ابن ملجم (لعنه الله) بالسيف على أمِّ رأسه ، وقال الحُكْمُ لله لا لك يا علىّ ، وصاح الناس وهرب ابن ملجم ، فقال أمير المؤمنين : لا يفوتكم الرجل ؛ فشدّ الناس عليه فأخذوه ؛ واستناب علىّ (عليه السلام) فى صلاة الصبح بعضَ أصحابه وأُدْخِل دارَه فقال : أَحْضِروا الرجل عندى ، فلما حضر عنده قال له : يا عدوَّ الله ، أَلَم أُحسن إليك ؟ قال : بَلَى قال : فما حملك على هذا ؟ قال : شَحَذته أربعين صباحاً ، وسألت الله أن يقتل به شرّ خَلْقِهِ ؛ فقال أمير المؤمنين « لا أُراكَ إلاّ مقتولاً به ، ولا أُراكَ إلاّ من شرّ خلق الله » ثم قال عليه السلام : « النفسُ بالنفس ، إن هَلَكْتُ فاقتلوه كما قتلنى ، وإن بَقِيتُ رأيتُ فيه رأيى ، يا بَنى عبد المطلب لا تَجَمَّعُوا من كلِّ صَوْب تقولون قُتِل أمير المؤمنين ؛ ألا لا يُقْتَلَنَّ بى إلاّ قاتلى » ثم التفت إلى ابنه الحسن (عليه السلام) وقال : « انظر يا حسن إذا أنا متّ من ضربتى هذه فاضربه ضَرْبة بضربة ولا تمثِّلَنَّ بالرجل ، فانى سمعت رسول الله (صلوات الله عليه) يقول « إياكم والمُثْلَةَ ولو بالكلب العَقُور » ؛ ثم وصَّى بنيه بتقوى الله تعالى ، وباقامة الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلِّها ، وحسن الوضوء ، وغَفْر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصِلَةِ الرَّحِمِ ، والحلم عن الجاهل ، والتفقُّه فى الدين ، والتثبُّتِ للأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجِوار ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش ؛ ثم كتب وصيَّته ولم ينطِق إلاّ بلا إله إلاّ الله حتى قُبِض (صلوات الله عليه وسلامه) ؛ فلما قُبِض بعث الحسنُ (عليه السلام) إلى ابن مُلْجَم فأحضره ، فقال للحسن : هل لك فى أمر ؟ إنى والله قد أعطيت الله عهداً ألاّ أعاهد عهداً إلاّ وفَيْتُ به ، وإنى عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل عليًّا ومعاوية

أو أموت دونهما ، نخلِّ بيني وبين معاوية حتى أمضىَ وأقتله . ولك عهد الله علىّ أنى إنْ لم أقتله أو قتلتُه وسلِمتُ أن أجيء إليك حتى أضع يدى فى يدك » فقال الحسن : لا والله حتى تذوق النار ؛ ثم قدَّمه فقتله ، وأخذه الناس فأدرجوه فى بوارىّ(١) وأحرقوه بالنار .

وأما مدفن أمير المؤمنين عليه السلام فانه دُفِن ليلاً بالغَرِىِّ ، ثم عفَا قبره إلى أن ظهر حيث مشهده الآن (صلوات الله عليه وسلامه) .

وأما السبب الذى حمل ابن ملجم (لعنهُ الله) على قتله ، فهو أن ابن ملجم كان أحدَ الخوارج ، فاجتمع برجلين من الخوارج ، وتذاكروا مَنْ قتل أميرُ المؤمنين (عليه السلام) منهم بالنهْرَوَان ، وقالوا ما فى الحياة بعد أصحابنا نفْعٌ ؛ وتواعدوا على أن يقتل كل واحد منهم واحداً من ثلاثة علىّ بن أبى طالب ومعاوية وعمرو ابن العاص (رضى الله عنهم) ، فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم عليًا ، وقال الآخر : أنا أكفيكم معاوية ، وقال الآخر أنا أكفيكم عَمْراً ؛ فأما ابن مُلْجَم (لعنهُ الله) فانه رأى امرأة جميلة من بنات الخوارج فَهَوِيَها نخطبها . فقالت له أريد كذا وكذا وأريد أن تقتل علىّ بن أبى طالب ، فقال لها ما جِئْتُ إلاّ لقتله ، والتزم لها أنه يقتله ، ثم قتله وقُتِل بعده ؛ وأما الآخر فانه مضى إلى معاوية فقعد له حتى خرج فضربه بالسيف على فخِذه فلم يصنع طائلاً ، وتطبَّبَ لها معاوية فَبَرِئَ وقَتَل الرجل ، وقيل لم يقتله ؛ وأما الآخر فمضى إلى مصر لقتل عمرو بن العاص فقعد له ، فاتفق أن عمرا انحرف مِزَاجُه فى تلك الليلة فلم يخرج فى صبيحتها إلى الصلاة ، واستناب بعضَ أصحابه . فلما طلع اعتقده الرجلُ عمرا فضربه فقتله . فقبضوه وأحضروه إلى عمرو ، فلما رأى الناسَ يسلّمون عليه بالأمارة ، قال : مَنْ هذا ؟ قالوا : الأمير عمرو بن العاص ، قال فمَنْ قتلتُ ؟ قالوا نائبهُ ، وكان اسمهُ خارجةَ ،

(١) جمع بارىّ أو باريّة : الحصير

فقال الرجل لعمرو بن العاص : أماَ والله يا فاسق ما أردت غيرَكَ ! فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ؛ ثم قدَّمه عمرو فقتله ؛ ولما بلغ عائشةَ رضى الله عنها قتْلُ علىٍّ عليه السلام قالت (طويل)

فألقت عصاها واستقرّ بها النوَى   كما قَرَّ عيناً بالإِياب المسافِرُ

﴿ الدولة الأموية ﴾

وهى التى تسلمت الملك من الدولة الأولى

لمَّا قُتل أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) بايع الناس الحسن بن علىٍّ (عليهما السلام) . فمكث شهوراً حتى اجتمع هو ومعاوية فتصالحا المصلحة الحاضرة التى كان الحسن (عليه السلام) أعْلَمَ بها ، وسلم الخلافة إليه وتوجَّهَ نحو المدينة ، وبويع معاوية (رضى الله عنه) بالخلافة العامةِ ، ودُعِىَ بأمير المؤمنين ، وذلك فى سنة أربعين من الهجرة .

﴿ ذكر شىء من سيرة معاوية ووصف طَرَف من حاله ﴾

هو معاوية بن أبى سُفيان صَخْر بن حَرْب بن أمَيَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَناف ، كان أبوه أبو سفيان أحدَ أشياخ مكة ، أسلم فى السنة التى فَتحَ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلّم) فيها مكة ، وأسلم معاوية وكَتَبَ الوَحْىَ فى جملة من كَتَبه بين يدى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ؛ وكانت أمهُ هِنْد بنت عُتْبة شريفةً فى قريش ، أسلمت عامَ الفتح ؛ وكانت فى وقعة أُحد لمَّا صُرِع حَمْزَةُ بن عبد المطلب (رضى الله عنه) عمُّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) من طعنة الحربة التى طُعِنها ، جاءت هند فمثَّلت بحمزة ، وأخذت قطعة من كَبده فمضغتها حَنَقاً عليه ، لأنه كان قد قتل رجالا من أقاربها ، فلذلك يقال لمعاوية ابن آكلة الأكباد

ولمَّا فتح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة حضرت إليهِ متنكِّرة في جملة نساءٍ من نساء مكة أتينَ ليبايعنَه ، فلمَّا تقدَّمت هند لمبايعته اشترط (صلوات الله عليه وآله) شروط الإسلام عليها ، وهو لا يعلم أنها هند ، فأجابتهُ بأجوبة قويَّة على خوفها منـهُ ، فمما قال لها وقالت قال لها (صلوات الله عليه وآله وسلم) : « تبايعنني عَلَى ألاَّ تقتُلْنَ أولادكنَّ » وكانوا في الجاهلية يقتلون الأولاد ، فقالت هند : « أمَّا نحن فقد ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا يوم بدر » فقال : « وعلى ألاَّ تعصيننَي في معروف » قالت : « ما جلسنا هذا المجلسَ وفي عزمنا أن نعصيَك » قال : « وعلى ألاَّ تسْرِقْن » قالت : « والله ماسَرَقْتُ عمري شيئًا اللهم إلاَّ أنني كنت آخذ من مال أبي سفيان شيئاً في بعض الوقت » ؛ وكان أبو سفيان زوجها حاضراً فحينئذٍ علم رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنها هند ، فقال هند ؟ قالت : نعم يا رسول الله ، فلم يقل شيئًا لأن الإسلام جَبَّ ما قبله . وأما معاوية (رضي الله عنهُ) فكان عاقلاً في دُنْياه لبيباً عالماً حليماً مَلِكاً قوياً جيِّـد السياسة حَسَنَ التدبير لأمور الدنيا عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً ، يحلُم في موضع الحلم ، ويشتدُّ في موضع الشدَّة ، إلاَّ أن الحِلْم كان أغلبَ عليه ، وكان كريماً باذلاً للمال ، محباً للرياسة مشغوفاً بها ، كان يُفضِل على أشراف رعيته كثيراً ، فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبي طالب (رضي الله عنهم) يَفِدون عليهِ بدِمَشْق فيُكرم مثواهم ويُحسن قِرَاهم ويقضي حوائجهم ، ولا يزالون يحدِّثونه أغلظ الحديث ويَجْبَهُونه أقبح الجَبْهِ وهو يداعبهم تارةً ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلاّ بالجوائز السنيَّة والصِّلات الجمَّة ، قال يوماً لقَيْس بن سعد بن عُبادة (رضي الله عنه) وهو رجل من الأنصار : « يا قيس والله كنت أَوَدّ أن تنكشف

الحروب التي كانت بيني وبين عليّ (عليه السلام) وأنت حيّ » فقال قيس : « والله إني كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين » فلم يقل له شيئاً ، وهذا من أجمل ما كانوا يخاطبونه به !

وبعث إلى رجل من الأنصار بخمسمائة دينار فاستقلّها الأنصاري وقال لابنه : خذها وامض إلى معاوية فاضرب بها وجهه وردُّها عليه ، وأقسم على ابنه أن يفعل ذلك ، فجاء ابنه إلى معاوية ومعه الدراهم ، فقال : يا أمير المؤمنين إنّ أبي فيه حِدَّة وسرعة ، وقد أمرني بكيت وكيت ، وأقسم عليّ ، وما أقدر على مخالفته ؛ فوضع معاوية يده على وجهه وقال افعلْ ما أمرك أبوك وارفُق بعمّك ؛ فاستحيا الصبيُّ ورمى بالدراهم ، فضاعفها معاوية وحملها إلى الأنصاري ، وبلغ الخبرُ يزيدَ ابنه ، فدخل على معاوية غضبانَ وقال : « لقد أفرطت في الحلم حتى خِفْتُ أن يُعَدَّ ذلك منك ضعفاً وجُبْناً » فقال معاوية : « أيْ بُنَيَّ إنه لا يكون مع الحِلم ندامة ولا مَذَمَّة، فامض لشأنك ودعني ورأيي » وبمثل هذه السيرة صار خليفة العالَم ، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كلُّ من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة . وكان معاوية (رضى الله عنه) من أدهى الدهاة : رُوِيَ أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال لجلسائه : تذكرون كِسْرَى وقَيْصَر ودهاءهما وعندكم معاوية ؟ ومن دَهائه ما اعتهده من استمالة عمرو بن العاص ، وكان عمرو بن العاص أحد الدُّهاة ، وكان أوَّلَ ما نَشِبت الفتنة بين أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) ومعاوية معتزلاً للفريقين ، فرأى معاويةُ أن يستميله ويتقوّى برأيه ودهائه ومكره ، فاستماله ووصل حبله بحبله ، وولّاه مصر ، ودخل معهُ في تلك المداخل ، وفعل في صِفِّين تلك الأفاعيل . ولم يكن بينهما مع ذلك مودّة قلبية ، وكانا يتباغضان سراً ، وربما ظهر ذلك على صفحات وجوههما ، وفَلَتات ألسنتهما : طلب أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين من معاوية أن يخرج إلى مُبارزته ، فقال له عمرو بن العاص (رضى الله عنه) :

قد أنصفك ولا يَحْسُن بك النُّكول عن مبارزته ، فقال له معاوية : غَشَشْتني وأحببت قتلى ، أَلست تعلم أن ابن أبي طالب لا يبرُز له أحد إلاّ قتله !

وقال معاوية يوماً لجلسائه : ما أَعجَبُ الأشياء ؟ فقال يزيد : أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعَمُه شيء من تحته ، ولا هو منوط بشيء من فوقه ، وقال آخر : أعجب الأشياء حظٌّ يناله جاهل ، وحرْمان يناله عاقل ؛ وقال آخر : أعجب الأشياء ما لم يُرَ مثلهُ ، وقال عمرو بن العاص : أعجب الأشياء أن المُبْطِل يغلب المُحِقَّ ، يعرِّض بعليّ (عليه السلام) ومعاوية ؛ فقال معاوية : بل أعجب الأشياء أن يُعْطَى الانسانُ ما لا يستحق إذا كان لا يُخاف ، يعرِّض بعمرو ومصر ، فنفث كل منهما بما فى صدره من الآخر .

واعلم أنَّ معاوية كان مربِّى دول ، وسائسَ أمم ، وراعىَ ممالك ، ابتكر فى الدولة أشياء لم يسبِقْه أحد إليها . منها أنه أول من وضع الحَشَمَ للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التى يصلّى الملك أو الخليفة بها فى الجامع منفرداً من الناس ، وذلك لخوفه مما جرى لأمير المؤمنين (عليه السلام) فصار يصلى منفرداً فى مقصورة ، فاذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف ؛ وهو أول من وضع البرِيد لوصول الأخبار بسرعة .

﴿ كلام فى معنى البريد ﴾

البريد : أن يُجعل خيلٌ مُضمَّرات فى عِدَّة أماكن ، فاذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها ، وقد تعِب فرسه ، رَكِب غيرَه فرساً مستريحاً . وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة . وأما معناه اللغوى فالبريد هو اثنا عشَرَ ميلاً ، وأظن أن الغاية التى كانوا قدروها بين بريد وبريد هى هذا القدر ؛ وقال الصاحب علاَء الدين عطا ملك فى جهان كشاى « ومن جملة الأشياء وضعُهم البريد بكل مكان طلباً لحفظ الأموال ، وسرعة وصول الأخبار ، ومتجدِّدات

الأحوال» وما أرى للبريد فائدة سوى سرعة وصول الأخبار؛ فأما حفظ الأموال فأىُّ تعلُّق له بذلك .

ومما اخترع معاوية (رضى الله عنهُ) من أمور الملك ديوان الخاتم ، وهذا ديوان معتبر من أكابر الدواوين ، لم تزل السُّنة جارية بهِ إلى أواسط دولة بنى العباس فأُسْقِط ، ومعناه أن يكون ديوانٌ ، وبهِ نُوَّاب ، فاذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أحْضِر التوقيع إلى ذلك الديوان ، واثبِتَتْ نسختهُ فيهِ ، وخُزِم بخيط ، وخُتِم بشَمَعٍ ، كما يُفعَل فى هذا الزمان بِكُتُب القضاة ، وخُتم بخاتم صاحب ذلك الديوان .

وكان الذى حمل معاوية (رضى الله عنهُ) على اختراع هذا الديوان أنهُ أحال رجلاً على زياد بن أبيه أمير العراق بمائة ألف درهم ، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب (وكانت تواقيعهم تصدر غير مختومة فجعل المائة مائتين) فلمّا رفع زياد حسابه إلى معاوية (رضى الله عنهُ) أنكر معاوية ذلك ، وقال : ما أحلته إلاّ بمائة ألف ، ثم استعادها منهُ ، ووضع ديوان الخاتم ، فصارت التواقيع تصدُر منهُ مختومة لا يدرى أحدٌ ما فيها ، ولا يتمكن أحد من تغييرها .

وكان معاوية (رضى الله عنهُ) مصروف الهمة إلى تدبير أمر الدنيا ، يهُونُ عليه كلُّ شىء إذا انتظم أمرُ المُلْك؛ فانظر إلى وصف عبد الملك بن مروان له فانه لحظَ فيه هذا المعنى ؛ قالوا إنّ عبد الملك بن مروان مرّ بقبر معاوية (رضى الله عنه) فترحَّم عليه ، فقال له رجل : قبرُ من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال « قبر رجل كان والله فيما عَلمتهُ ينطق عن علم ، ويسكت عن حلم ، كان إذا أعطى أغنى ، وإذا حارب أفنى . » ووصفه أيضاً عبد الله بن العبّاس (وكان من النُّقاد) فقال

« ما رأيت أَلْيَق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك » . وقال له بعض بنى أمية « والله لو قَدَرْت أن تستكثر بالزِّنْج لاستكثرتَ بهم لينتظم لك أمر الملك » .

وكان معاوية (رضى الله عنهُ) نَهِما شحيحاً عند الطعام على كرمِهِ وسماحته : فأما نَهَمُهُ فقالوا إنه كان يأكل فى كل يوم خمس أَكَلاتٍ آخرُهن أغلظهن ، ثم يقول : يا غلام ، ارفع فوالله ما شَبِعت ولكن مَلِلْت ، ورُوِىَ أنهُ أُصْلِح له عجل مشوىّ فأكل معه دَسْتاً من الخبز السَّميذ وأربع فرانىّ وجَدْياً حاراً وآخر بارداً سِوَى الألوان . وَوُضع بين يديه مائة رِطْل من الباقِلى الرَّطْب فأتى عليه ؛ وأما شحُّه على الأكل فان ابنَ أبى بكرة دخل عليه ومعه ابنه فجعل ابنه يأكل أكلاً مُفْرِطاً ومعاوية يَلحَظهُ ، وفَطِن ابن أبى بكرة لحَنَقِ معاوية ، وأراد أن ينهَى ابنه عن كثرة الأكل ، فلم يتفق له ذلك ، وخرجا من عند معاوية (رضى الله عنه) ؛ ففى الغد حضر الأب وليس معه ابنه ، فقال له معاوية : ما فعل ابنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، انحرف مِزاجه ، قال : قد علمت أن تلك الأكلة ما كانت تتركه حتى تهيضَه . وهاهنا موضع حكاية حسنة تدلُّ على كرمٍ ومروءة ونُبْل : كان بعض الوزراء مشغوفاً بالأكل ، ويحب كلَّ من يأكل معه وكلُّ من كان أكثرَ أكلا كان أقربَ إلى قلبه ، فاتفق أنه قصد بعضَ الأكابر من العَلَوِيّين وكَمَّلَ عليه وجوهاً من خَراج وضمان وغير ذلك ، وطالبه بها فوَكَّل عليه فى نفس داره أعنى دار الوزير ؛ ففى بعض الأيام مُدَّ السِماط بين يدَى الوزير ، فقال العَلَوىّ للموكَّلين به : إنى جائع ، فهل تأذنون أن أخرج إلى السماط وأنتم معى فآكلَ وأعود إلى هذا الموضع ، وكان العلَوىّ قد فَطِن لطبع الوزير فى ذلك ، فاستحيَوْا منه وأذنوا له فى ذلك ، فخرج وجلس فى أُخْرَيات السماط ، وجعل يأكل بِنَهَم ، فلحَظَه الوزير وهو مقبل عَلَى الأكل ، فاستدناه ورفعه إلى صدر المجلس وقدَّم إليه من

أطايب ذلك الطعام ، وكلما بالغ فى الأكل زادت بشاشة الوزير وطلاقته ، فلما رُفِع الطعام استدعَى الوزير كانوناً فيه نار، وأحضر الحساب الذى رُفِع على الرجل به . وقال : أيها السيد ، قد أراحك الله من هذا المال ، وأنت فى حِلّ منهُ ، ووالله وحقِّ جدك (صلوات الله عليه) ليس عندى بهذا الحساب ولا فى الديوان به غيرُ هذه النسخة ، ثم ألقاها فى الكانون ، فاحترقت وأُفْرِج عنه ، وأذِن له فى الرّواح إلى منزله .

وكانت وفاة معاوية رضى الله عنه فى سنة ستين من الهجرة ، ولما أدركته الوفاة أوصى إلى ابنه يَزِيد وصيَّة تدل على عقله ولبِّه وخِبْرته بالأمور ومعرفته بالرجال ، فلم يعمل يزيد بشىء منها ، وقد أثبتُّها هاهنا لحسنها وسَدادها

قالوا لمَّا مَرض معاوية (رضى الله عنه) مرضَهُ الذى مات فيه دَعا ابنه يزيد فقال له « يا بُنىَّ إنى قد كفيتك الشدَّ والترحال ، ووطَّأْت لك الأمور ، وذلَّلت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ؛ فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك ، فأكرِمْ من قدِم عليك منهم ، وتعهدْ من غاب ؛ وأنظر أهل العراق فان سألوك أن تعزِل كل يوم عاملا فافعل ، فانّ عَزْل عامل أيسرُ من أن يُشْهَرَ مائةُ ألف سيف ؛ وانظر أهل الشام ، وليكونوا بطانتك ، فان رابك من عدوك شىء فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فارْدُدْ أهل الشام إلى بلادهم ، فانهم إن أقاموا بها تغيرت أخلاقهم ؛ وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة من قريش : الحسين بن علىّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر (رضى الله عنهم) : فأما ابن عمر فرجلٌ قد وَقَذَته العبادة ، واذا لم يَبْقَ أحدٌ غيره بايعك . وأمَّا الحسين بن علىّ فهو رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يُخرجوه ؛ فان خرج وظَفِرتَ به فاصفح عنه ، فان له رَحِماً ماسَّة ، وحقاً عظيماً ،

وقرابة من محمد (صلوات الله عليه وسلامه) . وأما ابن أبى بكر فان راى اصحابَهُ صنعوا شيئاً صَنَعَ مثله ، ليست له همة إلا فى النساء واللهو ؛ واما الذى يَجْثُم لك جُثُوم الأسد ويراوغُك مراوغة الثعلب فان امْكَنَتْهُ فُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير، فانهو وثب عليك فظَفِرْتَ به فقطِّعه إرْباً إرْباً، واحقُن دماء قومك ما استطعت.

وفى هذه الوصية دليل على ما سبق من وُفُورِ رغبته فى تدبير الملك وشدة كلَفِهِ بالرياسة .

﴿ ثم مَلَكَ بعده ابنُه يزيد ﴾

كان مُوَفَّر الرغبة فى اللهو والقنْص والخمر والنساء والشعر . وكان فصيحاً كريماً شاعراً مُفْلِقاً . قالوا بُدِئَ الشعر بملك وختم بملك ،إشارة إلى امرئ القيس وإليه ، فمن شعره (بسيط)

جاءت بوجهٍ كأن البدرَ بَرْقَعَهُ — نوراً على مائسٍ كالغصن معتدِلِ
إحدى يديها تُعَاطِينى مُشَعْشَعَةً — لخدِّها عَصْفَرَتْه صِبْغَةُ الخجل
ثم استبدَّت وقالت وهى عالمةٌ — بما تقول وشمسُ الراح لم تَفِلِ
لا ترحلنَّ فما أبقيتَ من جَلَدِى — ما أستطيع به توديعَ مرتحِـلِ
ولا من النوم ما أَلْقَى الخيالَ به — ولا من الدمع ما أبكى على الطَلَل

كانت ولايته على أصح القولين ثلاثَ سنين وستةَ أشهر؛ فى السنة الأولى قَتَلَ الحسينَ بنَ علىّ (عليهما السلام) وفى السنة الثانية نَهَبَ المدينة وأباحها ثلاثة أيام ، وفى السنة الثالثة غزا الكعبة :

فنبدأ بشرح قتْلِ الحسين (عليه السلام)

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على وجه الاختصار ﴾

هذه قضية لا أُحب بَسْطَ القول فيها استعظاماً لها واستفظاعاً ، فانها قضية لم يَجْرِ فى الاسلام أعظمُ فُحْشاً منها ، ولعَمْرى إنّ قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) هو الطامةُ الكبرى ، ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسَّبْيِ أو التمثيل ما تقشعرُّ له الجلود ، واكتفيتُ أيضاً عن بسط القول فيها بشهرتها ، فانها أشهر الطامات ، فلعن الله كلَّ من باشَرَها وأمر بها ورضِيَ بشىء منها ولا تقبَّلَ الله منهُ صَرْفاً ولا عدلاً وجعله من (الأَخْسَرِين أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الْحَياةِ الدُّنْيا وَهَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) وجملةُ ما جرى فى ذلك أن يزيدَ (لعنه الله) لما بويع لم يكن له همّ إلاّ تحصيلَ بيْعة الحسين (رضى الله عنه) والنفر الذى حَذَّره أبوه منهم ، فأرسل إلى الوليد بنِ عتبة بن أبى سفيانَ وهو يومئذٍ أميرُ المدينة يأمره بأخذ البيعة عليهم ، فاستدعاهم فحضر الحسين (عليه السلام) عنده ، فأخبره بموت معاوية (رضى الله عنه) ، ودعاه إلى البيعة فقال له الحسين (عليه السلام) : « مثلى لا يبايع سرًّا ولكن إذا اجتمع الناس نظرنا ونظرتَ » ، ثم خرج الحسين (عليه السلام) من عنده وجمع أصحابه وخرج من المدينة قاصداً مكة متأبّياً من بيعة يزيد آنفاً من الانخراط فى زُمرة رعيته ، فلما استقر بمكة اتصل بأهل الكوفة تأبِّيهِ من بيعة يزيد ، وكانوا يكرهون بنى أميـة ، خصوصاً يزيد لقبح سيرته ومجاهرته بالمعاصى واشتهاره بالقبائح ، فراسلوا الحسين (عليه السلام) وكتبوا إليه الكتب يدعونه إلى قدوم الكوفة ، ويبذلون له النُّصْرَة على بنى أمية ، واجتمعوا وتحالفوا على ذلك ، وتابعوا الكُتُبَ إليه فى هذا المعنى ، فأرسل إليهم ابنَ عمِّه مسلمَ بنَ عَقيل بن أبى طالب (رضى الله عنه) فلما وصل إلى الكوفة فشا الخبر إلى عُبَيْد الله بنِ زياد (لعنه الله وأحلّه دارَ الخِزْى) ، وكان يزيد قد أمَّره على

الكوفة حين بلغه مراسلةُ أهلِها الحسينَ (عليه السلام) وكان مسلم قد التجأ إلى دار هانئ بنِ عُرْوَة (رضى الله عنهُ) وكان من أشرف أهل الكوفة، فاستدعاه عبيدُ الله بن زياد، فطلبه منه فأبى، فضربَ وجهه بالقضيب فَهَشَمهُ، ثم احْضِرَ مسلم بنُ عَقيل (رضى الله عنهم) فَضُرِبت عنقه فوق القصر فهوى رأسه، وأتبع جثّتَه رأسَه، وأما هانئ فأُخْرِج إلى السوق، فضُرِبت عنقه، وفى ذلك يقول الفرَزْدَق (طويل)

وإن كُنتِ لا تدرِينَ ما الموتُ فانظرِى   إلى هانئٍ فى السوق وابنِ عَقيلِ
إلى بَطَلٍ قد هشّم السيفُ وجههُ   وآخرَ يهوِى من طَمارِ قتيلِ

ثم إنّ الحسين (عليه السلام) خرج من مكة متوجِّهاً إلى الكوفة، وهو لا يعلم بحال مسلم، فلمّا قرُب من الكوفة علم بالحال ولَقِيَه ناس فأخبروه الخبرَ وحذَّروه فلم يرجع، وصمّم على الوصول إلى الكوفة لأمر هو أعلمُ بهِ من الناس، فأرسل ابنُ زياد إليهِ عسكراً أميرُه عمر بنُ سعد بنِ أبى وقّاص، فقاتل الحسين (عليه السلام) وأصحابُهُ حين التقى الجمعان قتالاً لم يشاهد أحدٌ مثله، حتى فَنِىَ أصحابُهُ، وبَقِىَ هو (عليه السلام) وخاصّتُهُ، فقاتلوا أشدَّ قتال رآه الناس، ثم قُتِلَ الحسين (عليه السلام) قِتْلةً شنيعة. ولقد ظهر منهُ (عليه السلام) من الصبرِ والاحتسابِ والشجاعةِ والورعِ والخِبْرَةِ التامّةِ بآداب الحرب والبلاغةِ، ومن أهله وأصحابهِ (رضى الله عنهم) من النصرِ له، والمُواساة بالنفس، وكَراهِيَة الحياة بعده، والمقاتلةِ بين يديه عن بصيرة، ما لم يُشَاهَدْ مثلُه، ووقع النهبُ والسَّبْىُ فى عسكره وذَراريه (عليهم السلام)، ثمَّ حُمِل النساء ورأسُه (صلواتُ الله عليه)

إلى يزيدَ بن معاوية بدِمَشْق ، فجعل ينْكُتُ ثنايا الحسين (عليه السلامُ) بالقضيب ، ثمّ رَدَّ نساءه إلى المدينة .

وكان قَتْلُ الحسين (عليهِ السلام) فى يوم عاشوراء من سنة إحدى وستين .

﴿ شرح كيفية وقعة الْحَرَّة ﴾

ثم ثَنَّى بقتال أهل مدينة سيِّدنا (رسولِ الله صلواتُ الله عليه وسلامُه) ، وهى وَقعةُ الحَرَّةِ (بالحاء المفتوحة غير معجمة) ومبدأ الأمر فيها أَنَّ أهلَ المدينة كَرِهوا خلافةَ يزيدَ وخلعوه ، وحصروا مَنْ كان بها من بنى أُميَّة وأخافوهم ، فأرسل بنو أُميَّة رسولاً إلى يزيد يُعلمه حالَهم ، فلما وصل الرسولُ إلى يزيد وأخبره بذلك تمثَّل . (طويل)

لقد بدَّلوا الحِلمَ الذى فى سَجِيَّتى ... فَبَدَّلتُ قومى غِلْظَةً بليانِ

ثم نَدَبَ إليها عَمْرَو بنَ سعيد فأحجم عنها ، وأرسل يقولُ له إنى قد ضبطتُ لك الأمور والبلاد ، وأما الآن إذا صارت دِماء قُرَيْشَ تُهَراق بالصعيد فلا أُحِبُّ أن أتولَّى ذلك ، فندب عبيدَ اللهِ بنَ زياد لذلك فاعتذَرَ وقال : والله لا جمعتُهما للفاسق ، أقتلُ ابنَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأغزو مدينته والكعبة ! فندب إليها مسلمَ بنَ عُقْبَةَ المرِّىّ ، وكان شيخاً كبيراً مريضاً إلاّ أنه كان أحدَ جَبابرة العرب وشياطينهم ، وقيل إنّ أباه قال له : إنْ خالفك أهلُ المدينة فارمِهم بمسلم بنِ عقبة . فتوجَّهَ إليها مسلمُ بنُ عقبة وهو مريض فحاصَرَها من جهة الْحَرَّة (وهو موضع بظاهر المدينة) فَنُصِبَ لمسلم بن عقبة كرسىٌّ بين الصفين ، وجلس يحرِّضُ أصحابَهُ على القتال حتى فتحَها ، وقُتِلَ فى تلك الوقعةِ جماعة من أعيانها ، فيقال إن أبا سعيد الْخُدْرِىَّ (رضى الله عنه) ، صاحبَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم وآلهِ) خاف فأخذ سيفه وخرج إلى كهف هناك ليدخلَ إليه ويعتصمَ به ،

فتبعه بعض أهل الشأم ، فخافه أبو سعيد وسَلَّ سيفه عليه ليُروِّعه ، فسلَّ الآخر سيفه ، فلما وصل إلى أبى سعيد قال له (لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأقْتُلَكَ) فقال له الشأمىُّ : مَنْ أنت ؟ قال أنا أبو سعيد ، قال : صاحبُ رسول الله ؟ قال نعم ، فمضى وتركه . ثم أباح مسلمُ بنُ عقبة المدينةَ ثلاثاً ، فقتَلَ ونهبَ وسَبَى وسُمِّىَ مسلمُ بنُ عقبة مُسْرِفا .

﴿ شرح كيفية غزو الكعبة ﴾

ثم ثلّثَ يزيدُ بغزو الكعبة ، فأمر مسلمَ بنَ عقبة بقصْدِها وغزْوِها بعد فراغه من أمر المدينة ، فتوجَّه مسلم إليها ، وكان عبد الله بنُ الزبير بها وقد دعا إلى نفسه وتَبِعَه أهلُ مكة ، فمات مسلم فى الطريق واستَخْلَف على الجيش رجلاً كان يزيد أوصاه بتأميره إن هَلَك ، فمضى بالجيش إلى مكةَ وحصَرَها ، وبرز ابنُ الزبير إليه فى أهل مكة ونَشِبت الحرب ، وقال راجز أهل الشأم : (رجز)

خَطّارَة مثلُ الفَنِيقِ المُزْبِدِ   يُرْمَى بها أعوادُ هذا المسجدِ

وهم فى ذلك إذ ورد نَعْيُ يزيدَ فرجعوا .

ثم ملك بعده ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية : كان صبيًّا ضعيفاً ، مَلك أربعين يوماً ، وقيل ثلاثةَ أشهر ، ثم قال للناس : إنى ضَعُفتُ عن أمركم فالتمستُ لكم مثلَ عمرَ بنَ الخطاب (رضى الله عنهُ) فلم أجد ، فالتمستُ ستةً مثلَ أهل الشورَى فلم أجد ، فأنتم أولَى بأمركم ، فاختاروا له مَنْ أحببتم ، فما كنتُ لأتزوَّدَها ميّتاً ، وما استمتعت بها حيًّا ، ثم دخل داره وتغيَّبَ أياما ومات ، وقيل مات مسموماً ، وليس له من الأخبار ما يُؤْثَر .

ثم ملك بعده مروان بن الحكم : هو مَرْوان بن الحكم بنِ أبى العاصِ بن أميَّة ابنِ عبد شمس بنِ عبد مَناف .

ولمَّا مات معاوية بنُ يزيد بنِ معاوية ماجَ الناس ، فأراد أهلُ الشام بنى أمية ، وأراد غيرُهم عبدَ الله بنَ الزبير ، ثم غلب مَنْ رأيُه فى بنى أمية ، لكنهم اختلفوا فيمن يُولُونه ، فمال ناسٌ منهم إلى خالدِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ ، وكان فصيحاً بليغاً ، وقيل إنهُ أصاب عملَ الكيمياء ، وكان صبياً ، ومال ناسٌ إلى مروانَ بنِ الحكم لسنِّهِ وشيْخُوختِهِ ، وكرهوا خالداً لصبْوته ، ثم بايعوا مروان ، وقاد الجنودَ وفتحَ مصر ، وكان يقال له : ابنُ الطريد وذلك لأن أباه الحكمَ طرده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن المدينـة ، فلما وَلِىَ عثمان بنُ عفان (رضى الله عنه) ردَّه إليها ، وأنكر المسلمون ذلك منهُ ، فاحتجَّ بأَن رسول الله (صلى الله عليه وسلم وآله) وَعَدَه بردِّه ، ورُوِيَت أحاديثُ وأخبارٌ فى لعنةِ الحكمِ بنِ العاص ولعنةِ مَنْ فى صُلْبه ، وضعَّفها قوم ، وكان مروان حينَ بُويعَ قد تزوَّج أم خالد زوجةَ يزيدَ بنِ معاوية ، ليُصغِّرَ بذلك من شأن خالد فيَسْقُطَ عن درجة الخلافة ، فدخل خالد يوماً على مروان فشتمهُ مروان ونسبه إلى الْحُمْق ، ليُصغِّرَ أمرَه عند أهل الشأم ، فخجِلَ خالد ودخل على أمهِ وأخبرها بما قال له مروان ، فقالت : لا يَعْلَمَنَّ أحد أنك أعلمتنى وأنا أكفيك ، ثم إن مروان نام عندها ليـلة فوضعت على وجهه وسادةً ولم ترفعها حتى مات ، وأراد ابنه عبدُ الملِك أن يقتلها فقيـل له : يتحدَّثُ الناس أنَّ أباك قتلته امرأة ! فتركَها ؛ وكانت ولايةُ مروان تسعةَ أشهر وبعضَ شهر ، وذلك تأويلُ قولِ أمير المؤمنين : إن له إمْرَةً كلعْقَةِ الكلبِ أنفَهُ .

وفى تلك الأيام أخذَت الشِّيعَةُ بثأر الحسين (عليه السلام) .

﴿ شرح كيفية ذلك على وجه الاختصار ﴾

لمَّا هَدأَتِ الفِتْنَةُ بعدَ قتل الحسين (عليه السلام) وهَلَك يزيدُ بن مُعاوية اجتمع ناس من أهل الكوفةِ ونَدِموا على خِذلانهم الحسينَ (عليه السلام) ومُقاتلَتِهم

له ، ونصرهم لِقَتَلَتِهِ بعد إرسالهم إليه ، واستدعائهم منه القدومَ عليهم وبذلِهم له النصر ، وتابوا من ذلك : فسُمُّوا التوَّابين . ثمَّ إنهم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم فى الطلب بثأره ومقاتلةِ قَتَلَتِهِ وإقرارِ الحقِّ مقرَّه فى رجل من آل بيتِ نبيِّهم (صلواتُ الله عليه وسلامه) ، وأمَّروا عليهم رجلاً منهم يُقال له سليمانُ بنُ صُرَد (رضى الله عنه) ، فكاتبَ الشيِّعة بالأمصار يَنْدُبهم إلى ذلك ، فأجابوه بالموافقة والمسارعة ، ثم ظهرَ فى تلك الأيام المختارُ بن عبيد الثقفِى ، وكان رجلاً شريفاً فى نفسه عالىَ الهمة كريماً ، فدعا محمد بن علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) ، وهو المعروف بابن الحنفيَّة ، وكانت تلك الأيام أيامَ فِتن ؛ وذلك أنَّ مروان كان خليفةً بالشأم ومصرَ مبايَعاً جالساً عَلَى سرير الملك ؛ وعبدُ الله بن الزُبَيْرِ خليفةٌ بالحجاز والبَصْرَة مبايَعٌ ، معه الجنودُ والسلاحُ ؛ والمختار بن أبى عبيد بالكوفة ومعه الناسُ والجنودُ والسلاحُ وقد أخرج أميرَ الكوفة عنها ، وصار هو أميرَها يدعو إلى محمد بنِ الحنفية .

ثم إنَّ المختارَ قوِيَتْ شوْكته ففتك بقتلة الحسين ، فضرب عنق عمر ابنِ سعد وابنهِ ، وقال : هذا بالحسين وابنه علىٍّ ، ووالله لو قتلت به ثُلثَىْ قريش ما وَفوا بأنملةٍ من أناملهِ ، ثم إنّ مروان أرسل عبيدَ الله بنَ زياد فى جيش كثيف ، فأرسل إليه المختارُ إبراهيم بن مالك الأشترَ فقتله بنواحى الموصل ، وأرسل برأسه إلى المختار فأُلقِىَ فى القصر ، فيقال إنّ حيَّةً دقيقة تخطّتْ رءوس القتلى ، ودخلتْ فى فم عبيدِ الله فخرجتْ من مَنْخِره ، ثم دخلتْ فى مَنْخِره فخرجتْ من فِيه ، فَعلَتْ مِراراً ، ثم إنّ عبد الله بن الزُّبَيْرِ أرسل أخاه مُصْعَباً وكان شجاعًا إلى المختار فقتله ؛ ومات مروان بن الحكم فى سنة خمس وستين وبُويع ابنهُ عبدُ المَلك

ثم ملك ابنه عبد الملك بن مروان : كان عبد الملك لبيباً عاقلاً عالماً ملكا جباراً قوىَّ الهيبة شديد السياسة حسَن التدبير للدنيا ، فى أيامه نُقِلَ الديوان من الفارسية إلى العربيـة ، واختُرِعت سِياقة المستعْربين ، وهو أول من نَهَى الرعيَّةَ عن كثرة الحديثِ بحَضْرَة الخلفاء ومراجعتهم ، وكانوا يتجرءون عليهم ، (وقد تقدم شرحُ ذلك) ، وهو الذى سلّط الحجّاجَ بنَ يوسفَ عَلَى الناس وغزا الكعبةَ وقتَل عبدَ الله بنَ الزبير وأخاه مُصْعَباً مِنْ قبله .

ومن طريف ما وقع فى ذلك أنَّ عبد الملك لمَّا أرسل يزيدُ بنُ معاويةَ الجيشَ لقتال أهل المدينة وغزْوِ الكعبة امْتَعَضَ عبدُ الملك من ذلك غايةَ الامتعاض ، وقال : ليت السماء انطبقتْ على الأرض ، فلمَّا صار خليفة فعل ذلك وأشدَّ منهُ ، فإنَّه أرسل الحجاجَ لحصار ابن الزبير وغزْوِ مكة ، وكان عبدُ الملك قَبلَ الخلافةِ أحدَ فقهاء المدينة ، وكان يُسمَّى حمامةَ المسجد لمداومته تِلاوةَ القرآن ، فلما مات أبوه وبُشّر بالخلافة أطْبَقَ المصحف ، وقال هذا فراقُ بينى وَ بينِك وتصدّى لأمور الدنيا وقيل إنّه قال يوماً لسعيدِ بنِ المسيِّب : ياسعيدُ ، قد صرتُ أفعلُ الخير فلا أُسَرُّ به ، وأصنعُ الشرَّ فلا أُساء بهِ ، فقال لهُ سعيدُ بنُ المسيِّبِ : الآنَ تكاملَ فيك موتُ القلب . وفى أيامهِ قُتِل عبدُ الله بن الزبير وأخوه مُصْعَب أميرُ العراق .

فأمَّا عبدُ الله بنُ الزبير فانهُ كان قد اعتصَمَ بمكةَ ، وبايعه أهلُ الحجاز وأهلُ العراق ، وكان عظيمَ الشُّحِّ ، فلذلك لم يتمَّ أمرُه ، فأرْسلَ الحجَّاجُ إليهِ فحاصره بمكة ورَمَى الكعبة بالمَنْجنِيق ، وحاربه وخذَله أهلهُ وأصحابُه ، فدخل على أمّه وقال لها : « يا أمت ، قد خذانى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبقَ معى غيرُ نفَرٍ يسير ومَنْ ليس عنده اكثرُ من صبْرِ ساعة ، والقوم يُعطوننى ما أردتُ من الدنيا فما رأيك ؟ » فقالت له : « أنت أعلمُ بنفسك ، إن كنتَ تعلمُ

أنك على حق فامض لشأنك ولا تمكِّن من رقبتك غِلمانَ بنى أُميّة ، وإن كنتَ إنَّما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنت ، أهلكتَ نفسَكَ ومَنْ معك ، وكم خُلودك فى الدنيا ؟ القتل أحْسَن » فقال : يا أمت : « إنّى أخافُ إنْ قتلونى أنْ يمثِّلوا بى » ، قالت : « يا بُنىّ ، إنّ الشاةَ لا يضرُّها سَلخُها بعد ذبحها » وما زالت تحرِّضه بهذا وأشباهِهِ حتى خرج فصمّم على المناجزة فقُتِل ، وَأَرْسَلَ الحجَّاجُ بالبشارة إلى عبد الملك وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين .

وأما أخوه مُصعَبُ بنُ الزبير أميرُ العراق فكان شجاعًا جميلاً جليلَ القدر مُمدَّحًا ، تزوّج سُكَيْنَة بنتَ الحسين (عليه السلام) وعائشة بنتَ طَلْحَة وجمعهما فى داره ، وكانتا من أعظم النساء قدراً ومالا وجمالا ، فقال عبدُ الملك يوماً لجلسائه : من أشجعُ الناس ؟ قالوا : أنت ، قال : لا ، لكِنْ أشجعُ الناس مَنْ جمع فى داره بين عائشةَ بنتِ طلحةَ وسُكَيْنَة بنتِ الحسين ، يعنى مُصْعَبا ، ثمَّ تجهَّز عبدُ الملك لقتال مُصْعَب وودَّع زوجته عاتِكَةَ بنتَ يزيدَ بن معاوية ، فلما ودّعها بكتْ فبكى جواريها لبكائها ، فقال عبدالملك : قاتَلَ اللهُ كُثيِّرَ عزَّةَ ، كأنه شاهَدَ هذا حين قال :

(طويل)

إذا ما أراد الغزْوَ لم يَثْنِ همَّه حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يزينها
نَهَتْهُ فلمَّا لم تَرَ النهىَ نافعاً بكتْ فبكى ممَّا شَجاها قَطينُها

ثم ثار إلى حَرْب مُصْعَب ، فالتقيا بأرض دُجَيْل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً وقُتل مُصْعَب ، وذلك فى سنةِ إحدَى وسبعين .

وكان عبدُ الملك أديباً ذكياً فاضلاً ، قال الشَّعبيُّ ما ذاكرتُ أحداً إلاّ وجدتُ لى الفضلَ عليه إلاّ عبدَ الملك بنَ مروان ، فإنى ما ذاكرته حديثاً إلاّ زادنى فيهِ ، ولا شعراً إلاّ زادنى فيهِ .

وقيل لعبد الملك : لقد أسرعَ اليك الشيبُ ، قال : « شيَّبنى صعودُ المنابر والخوفُ من اللحن » (وكان اللحنُ عندهم فى غاية القبح) ومن آرائه ما أشار به وهو صبيٌّ على مسلم بنِ عُقْبةَ المُرِّىّ حين أرسله يزيدُ بنُ معاوية لقتال أهل المدينة ، فوصلها وبنو أميَّة محاصَرون بها ثم أخرجوا ، فلما لَقيَهم مسلم ابن عقبة استشار بعبد الملك بنِ مروان وكان حدَثًا ، فقال له : الرأىُ أن تسيرَ بمَنْ معك فإذا انتهيتَ إلى أدنى نخلِها نزلتَ ، فاستظَلَّ الناسُ فى ظِله وأكلوا من صَفْوه ، فإذا أصبحتَ مَضَيْتَ وتركت المدينة على اليَسار ، ثم درتَ بها حتى تأتيَهم من قِبَل الحرَّة مُشرِّقًا ، ثمَّ تستقبلُ القومَ ، فإذا استقبلتهم وقد طلعتِ الشمس عليهم طلعتْ بين أكتافِ أصحابك فلا تُؤْذيهم ، بل يصيبُ أهلَ المدينة أذاها ويرَوْن من ائتلاف بَيْضِكم وأسنةِ رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترَوْنَه أنتم ما داموا مُغرِّبين ، ثمَّ قاتِلْهم واسْتَعِن بالله . وقال عبد الملك يوماً لجلسائه : ما تقولون فى قول القائل ؟ (طويل)

أهيمُ بدَعْدٍ ما حَييتُ فإنْ أمُتْ   فوَا حَربا مِمَّنْ يَهيمُ بها بَعْدِى

قالوا : معنًى حسَن ، قال : هذا ميِّت كثيرُ الفُضول ، ليس هذا معنًى جيداً ، قالوا : صدقت ، قال : فكيف كان ينبغى أن يقول ؟ فقال رجل منهم : كان ينبغى أن يقول : (طويل)

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   أوَكِّلْ بدعد مَنْ يهيم بها بعدى

قال عبد الملك : ما أحسنتَ ، قالوا : فكيف ينبغى أن يكون ؟ قال كان ينبغى أن يقول : (طويل)

أهيم بدعد ما حييت فان أمت   فلا صَلَحَت دعد لِذِى خُلَّة بعدى

قالوا : أنت يا أمير المؤمنين أشعرُ الثلاثة ؛ ولما اشتدَّ مرضُه قال أصعِدونى على شَرَف فأصعدوه إلى موضع عال ، فجعل يَتنسَّم الهـواء ثم قال : يا دنيا ، ما أَطْيبُكِ ؟ إنّ طويلكِ لقصير وإن كثيرَكِ لحقير ، وإن كنا منك لفى غُرور ، وتَمثَّل بهذين البيتين . (خفيف)

إن تُناقِشْ يكن نِقَاشُكَ يا ر ... بِّ عذاباً لا طَوْقَ لى بالعذاب
أو تجاوَزْ فأنت ربٌّ صَفُوحٌ ... عن مُسِيءٍ ذُنُوبُه كالتراب

ولما مات صلى عليهِ ابنُهُ الوليدُ فتمثَّل هِشام ابنُه الآخَر : (طويل)

فما كان قيْسٌ هُلْـكُه هُلكُ واحدٍ ... ولكنَّه بنْيانُ قوم تَهَدَّما

فقال له الوليد : اُسكتْ ، فأنت تتكلم بلسان شيطان ، ألاَ قلتَ كما قال الآخَر (طويل)

إذا سيِّدٌ مِناَّ مَضَى قام سيدٌ ... قؤُولٌ لما قال الكرامُ فعُولُ

وأوصي عبد الملك بنُ مروان أخاه عبدَ العزيز حين مضى الى مصر أميراً عليها فقال له : «اُبسُطْ بِشْرك ، وأَلِنْ كَنَفَكَ ، وآثِرْ الرفقَ فى الأمور ، فانه أبلغُ بك ، وانظُر حاجبَك فليكنْ من خير أهلِك فانه وجهك ولسانك ، ولا يقِفَنّ أحدٌ ببابك إلاّ أعلمك مكانَه لتكون أنت الذى تأذنُ له أو تردُّه ، وإذا خرجتَ إلى مجلسك فابدأ بالسلام يأنَسُوا بك ، وتَثْبُتْ فى قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى اليك مُشْكل فاستظهِرْ عليه بالمشاورة فانَّها تفتحُ مغاليقَ الأمور ، وإذا سَخِطتَ على أحد فأخِّر عقوبته ، فانك على العقوبة بعد التوقُّف عنه ، أقدرُ منك على ردِّها بعدَ إمضائِها » . وكانت وفاته فى سنة سِتٍّ وثمانين .

﴿ ثم ملك ابنه الوليد ﴾

كان الوليدُ من أفضل خُلفائِهم سيرةً عند أهل الشأم ، بَنَى الجوامعَ : جامعَ دِمَشْق وجامعَ المدينـة (على ساكنها أفضلُ السلام) والمسجدَ الأقصى ، وأعطى المجذَّمين ومنعهم من سؤال الناس ، وأعطى كلَّ مُقْعَد خادماً ، وكلَّ ضرير قائداً ، وفتح فى خلافته فُتُوحاً عِظاماً : منها الأندلسُ وكاشْغَرُ ، والهند ، وكان شديدَ الـكلَف بالعمارات والأبنية واتخاذِ المصانع والضِّياع ، وكان الناس يلتقُون فى زمانه فيسألُ بعضُهم بعضاً عن الأبنية والعمارات . وكان أخوه سليمانُ يحبُّ الطعام ، فـكان الناس فى خلافته إذا التقَوْا سَأَل بعضُهم بعضاً عن الطعام . وكان عمرُ بنُ عبد العزيز صاحبَ عِبـادة وتِلاوة ، فـكان الناس إذا تلاقَوْا فى أيامه سأل بعضهم بعضاً : ما وِرْدُك ؟ الليلةَ وكم تحفظُ من القرآن ؟ وكم تقومُ من الشهر ؟ وهذا من خواصِّ الملك التى تقدَّم شرحُها . وكان لحَّاناً لا يحْسِن النحوَ ، وعاتبه أبوه عبدُ الملك على اللحن وقال له : إنهُ لا يَلِى العربَ إلاَّ مَنْ يُحسن كلامَهم ، فدخل الوليدُ بيتاً ، وأخذ معهُ جماعةً من علماء النحو ، وأقام مدَّة يشتغل فيهِ ، فخرج أجهلَ مما كان يومَ دُخوله ؛ فلما بلغ ذلك عبدَ الملك قال : قد أعْذَرَ !

﴿ ثم ملك بعده أخوه سليمانُ بنُ عبد الملك ﴾

كانت أيامُهُ ذاتَ فتوح متوالية ، وكان غَيُوراً شديد الغَيْرَة ، وكان نَهِماً فيقال : إن الطَّبَّاخ كان يأتيه بالشِّواء فلا يصبِر حتى يبرُدَ فيأخُذه بكمه وكان فصيحاً بليغاً ؛ وها هنا موضع حكاية قال الأصمعىُّ : كنتُ مرةً أفاوضُ هرون الرشيد ، فجرى حديثُ أصحاب النَّهَم ، فقلت : كان سليمان بنُ عبد الملك شديد النهم ،

وكان إذا أتاه الطبَّاخُ بشِواء تلقَّاهُ فأخذه بأكمامه ، فقال الرشيد : ما أعلمَكَ يا أُصْمعِيُّ بأخبار الناس ، لقد اعترضت منذ ايام جِبابَ سليمانَ فوجدت أثر الدُّهن فى أكمامها فظننتهُ طيباً ، قال الأصمعىّ : ثم أمر لى بجُبَّة منها . وقيل : إنّ سليمان لَبسَ يوماً حُلّة خضراء وعِمامة خضراء ونظر فى المرآة فقال : أنا الملكُ الفتى ! ثم نظرتْ إليه جارية من جواريه فقال : ما تنظرين قالت : (خفيف)

أنت نِعْمَ المتاعُ لو كنتَ تَبقى غيرَ أنْ لا بقاء للإنسانِ

ليس فيما علمتُه فيك عيبٌ كان فى الناسِ غيرَ أنك فان

فلم تمض إلاّ جمعةٌ واحدة حتى مات ، وكانت وفاته فى سنة تِسعٍ وتسعين

﴿ ثم ملك بعده عمرُ بنُ عبد العزيز بنِ مروان ﴾

لمّا مرِض سليمان بنُ عبد الملك مَرْضتَه التى مات فيها عزم على أن يُبايع لبعض أولاده ، فنهاه بعضُ أصحابه ، وقال له : يا أميرَ المؤمنين إنه مما يَحْفَظُ الخليفةَ فى قبره ، أن يستحفظَ على الناس رجلاً صالحاً ، فقال سليمان : أستخيرُ الله وأفعلُ ثم استشاره فى عمرَ بن عبد العزيز ، فأشار عليه به وأثنى عليه خيراً ، فكتب سليمانُ عهْدَه إلى عمر بن عبد العزيز وختمه ودعا أهلَ بيته وقال : بايعُوا لمن قد عَهِدتُ إليه فى هذا الكتاب ، ولم يُعْلِمهم به ، فبايعوا ، ثم لمّا مات جمعهم ذلك الرجلُ الذى أشار عليه بعمرَ بنِ عبد العزيز ، وقد كتمَ موتَ سليمانَ عنهم ، وقالِ لهم : بايعوا مرَّةً أخرى ، فبايعُوا ، فلما رأى أنه قد أحْكم الأمر أعْلَمَهم بموت سليمان

وكان عمر بنُ عبد العزيز من خِيار الخلفاء ، عالماً زاهداً عابداً تقيًّا وَرِعًا ، سار سِيرَةً مَرْضِيَّة ، ومَضَى حميداً ، وهو الذى قطع السبَّ عن أمير المؤمنين (صلواتُ الله عليه وسلامه) وكان بنو امية يَسُبُّونه على المنابر ، قال عمر بن عبد العزيز : كان أبى عبد العزيز بنُ مروان يمرُّ فى خُطْبَته يهُذُّها هَذًّا ، حتى إذا

وصل إلى ذكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام تَتَعْتَعَ ، قال : فقلت له ذلك فقال : يا بُنَيَّ ، أدركتَ هذا منى ؟ قلت ، نعم ، قال : يا بنى ، اعلم أنّ العوام لو عرفوا مِنْ عليّ بن ابى طالب ما نعرفهُ نحن لتفرّقوا عنا إلى ولده ، فلما وَلِيَ عمر بنُ عبد العزيز الخلافةَ قطع السبَّ وجعل مكانه قوله (تعالى) : « إِنَّ اللهَ يأمُرُ بالْعَدْلِ وَالْإحْسَانِ وَإِيتاء ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » . ومدحه الشعراء على ذلك ، فمن مدحه عَلَى ذلك كُثَيِّر عَزَّة بقوله : (طويل)

وَلِيتَ فلم تشتُم عليًّا ولم تُخِفْ ... بَرِيًّا ولمْ تَتْبَعْ مقالةَ مُجْرِمِ
وقلتَ فصدَّقتَ الذى قلتَ بالذى ... فعلتَ فأضحى راضياً كلُّ مُسْلِم
وقد لَبِسَتْ لبْسَ الهَلُوكِ ثيابها ... وأبْدَت لك الدنيا بخدٍّ ومِعْصم
وتُومِضُ أحياناً بعين مَرِيضةٍ ... وَتبْسِم عنْ مِثلِ الجُمانِ المنظَّم
فأعرضتَ عنها مُشْمَئِزاً كأنما ... سَقَتْكَ مَدُوفاً من سِمامٍ وعَلْقَم
وقد كنتَ منها فى جبالِ أُرُومِها ... ومن بحرِها فى زاخرِ السيلِ مُفْعَم

ورثاه الشريفُ الرضىُّ الموسَوىّ بقوله : (خفيف)

يا ابنَ عبدِ العزيز لو بكتِ العيـ ... ـنُ فتى من أُميَّةٍ لَبكَيْتُكْ
أنت أنقذتَنا من السبِّ والشتـ ... ـمِ فلو أمكنَ الجزاءُ جزَيْتك
غيرَ أنى أقولُ إنك قد طِبْـ ... ـتَ وإن لم يطِبْ ولم يَزْكُ بيتك
ديرَ سَمْعَانَ (لا عدتْكَ الغوادِى) ... خيرُ مَيْتٍ من آل مروان مَيْتُكْ

وإليه الإشارة بقولهم الاشجُّ والناقص أعدلا بنى مروان

وسيجىء ذكرُ الناقص فيما بعد إن شاء الله (تعالى) . وكانت وفاته بدَيْر سمعان فى سنة إحدى ومائة

﴿ ثم ملك بعده يزيدُ بنُ عبد الملك ﴾

كان خليعَ بنى أمية ، شُغِفَ بجاريتين : اسم إحداهما سلامةُ واسم الأخرى حبابة ، فقطع معهما زمانهُ ، قالوا فغنّتْ يوماً حبابة : (كامل)

بَيْنَ التَّراقى واللَّهاةِ حرارةٌ ما تطمئنُّ ولا تسوغ فتبرُدُ

فأهوى يزيد بنُ عبد الملك ليطيرَ ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، لنا فيك حاجة ، فقال والله لأطيرَنّ ، قالت : فعلى مَن تدعُ الأمة ؟ قال : عليكِ ، وقبّل يدَها فخرج بعضُ خدمه وهو يقول : سَخِنت عينُك فما أسخفَك ! فانظر إلى هذا وَإلى أبيه عبدِ الملك حين خرج إلى قتال مُصْعب بنِ الزبير وصدّتْه عاتكة بنتُ يزيد بنِ معاويةَ فلم يلتفت إليها واستشهد بذينك البيتين ، وقد سبق شرح ذلك فى ترجمة عبد الملك بنِ مروان . ولم تكن دولة يزيد طائلةً ، ولا وقع فيها من الفتوح والوقائع ما تَحْسُن حكايتهُ ، وكانت وفاتُه فى سنة خمسٍ ومائةٍ عِشقاً وصبَابة .

﴿ ثم مَلك بعده أخوه هِشام بنُ عبد الملك ﴾

كان هشام بخيلاً شديدَ البخل إلاّ أنه كان غزير العقل حليماً عفيفاً ، امتدّت أيامه وجرى فيها وقائع ، فمن وقائعها الشهيرة قتلُ زيدِ بنِ علىّ بنِ الحسينِ بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليه السلام) .

﴿ شرح مقْتل زيد بنِ علىّ بنِ الحسين إمامِ الزيدية رضى الله عنه ﴾

كان زيدٌ من عظماء أهل البيت (عليهم السلام) علماً وزُهْداً وورَعًا وشجاعةً وديناً وكرماً ، وكَان دائماً يحدِّثُ نفسَه بالخلافة ، ويرى أنه أهلٌ لذلك ، وما زال هذا المعنى يتردّدُ فى نفسِه ، ويظهرُ على صَفَحاتِ وجهه وفَلَتات لسانه ،

حتى كانت أيامُ هِشام بنِ عبد الملك ، فاتَّهمه بوديعةٍ لخالد بنِ عبد الله القَسْرىّ أميرِ الكوفة ، فحمَلَه إلى يوسفَ بنِ عمر أميرِها فى ذلك العصر فاستحلفه أنَّ ما لخالدٍ عنده مالاً ، وخلَّى سبيله ، فخرج ليتوجَّه إلى المدينة فتَبِعَهُ أهلُ الكوفة وقالوا له : أين تذهبُ يرحمُك الله ومعك مائةُ ألفِ سيف نضرب بها دونَك ، وليس عندنا من بنى أميَّة إلاّ نفرٌ قليل ؟ لو أن قبيلةً واحدةً منا صمدَت لهم لكفتهم بإذن الله . ورغَّبوه بهذا وأمثالهِ ، فقال لهم : يا قوم ، إنى أخاف غَدْرَكم ، فإنكم فعلتم بجدِّى الحسين (عليهِ السلام) ما فعلتم ، وأبى عليهم ، فقالوا : نناشِدُك الله إلاّ ما رجعت ، ونحن نبذُل أنفسَنا دونك ونعطيك من الأَيْمان والعُهود والمواثيق ما تثِقُ بهِ ، فإنَّا نرجو أن تكون المنصورَ ، وأن يكونَ هذا الزمانُ الزمانَ الذى يهلِكُ فيه بنو أميَّة ، فلم يزالوا به حتى ردُّوه . فلما رجع إلى الكوفة أقبلت الشيِّعة تختلف إليه يبايعونه ، حتى أحصى ديوانُه خمسةَ عشرَ ألفاً من أهل الكوفة سوى أهلِ المدائن والبَصْرَة ووَاسطٍ والموصل ، وأهل خراسان والرىّ وجُرْجان والجزيرة ، وأقاموا بالكوفة شهوراً . ثم لمَّا تمَّ الأمر لزيد وخفقت الألويةُ على رأسه ، قال : الحمد لله الذى أكملَ لى دينى ، والله إنى كنتُ أستَحْيى من رسول الله (صلى الله عليهِ وآله وسلم) ، أن أرد عليه الحَوْضَ غداً ولم آمُرْ فى أُمته بمعروف ولم أنْهَ عن مُنكر ، فلمَّا اجتمع الناس مع زيد أظهر أمرَه ، ونابذَ مَن خالفه فجمع له يوسفُ بنُ عمر جُموعًا وبرز إليه ، وَعَبَّى كلٌّ منهما أصحابه والتقى الفريقان وجرَى بينهم قتال شديد ، فتفرَّق أصحاب زيد عنهُ وخذلُوه ، فبقىَ فى شِرْذِمة يسيرة فأبْلَى هو (رضى الله عنهُ) بَلاءً حسناً ، وقاتل قتالاً شديداً ، فجاءه سهم فأصاب جَبينه ، فطلب حَدَّاداً فنزَعَ السهمَ من جبينه فكانت فيهِ نفسُهُ ، فمات (رضى الله عنهُ) من ساعته ، فحفر له أصحابُه فى ساقيَةٍ ودفنوه فيها وأجرَوا

الماء على قبره خوفاً أن يمثّلوا به ، فلما استظْهر يوسفُ بنُ عمرَ أميرُ الكوفة تطلّب قبرَ زيدٍ فلم يعرفْهُ ، فدلّه عليهِ بعضُ العبيد ، فنبشهُ وأخرجهُ فصلبَهُ ، فبقى مدةً مصلوباً ، ثم أُحْرق وذُرِّىَ رَمادُه فى الفُرات (رضى الله عنه وسلّم عليهِ ، ولعن ظالميه وغاصبيه حقَّه ، فلقد مضى شهيداً مظلوماً) .

وفى أيامه انبثَّتْ دُعاةُ بنى العباس فى البلاد الشرقية ، وتحركتْ الشيِّعة خِفْيَةً ، وغزتْ جنودُ هِشامٍ التركَ بما وراء النهر ، وكانت لجنوده الغَلَبة ، ثمّ بعد ذلك قُتِلَ خاقان .

﴿ ثم مَلَك بعده الوليدُ بنُ يزيد بنِ عبد الملك ﴾

كان من فِتيان بنى أمية وظرَفائهم وشُجْعانهم وأجوادهم وأشِدّائهم ، منهمكاً فى اللهو والشرب وسَمَاعِ الغِناء ، وكان شاعراً محسناً له أشعارٌ حسنة فى العتاب والغزَل ووصْف الخمر ، فمن جيّد شعره ما كتبهُ إلى هشام بنِ عبد الملك وقد عزم على خلعه ، وكان هشام لما رأى استهتارَ الوليد بالمعاصى وعكُوفَه على اللذات طمع فى الخلافة لابنهِ ، وأراده عَلَى أن يخْلَع نفسَه ، وتناوَلَه بلسانه وتهدَّده ، فكتب إليه الوليد بنُ يزيد : (طويل)

كفرْتَ يداً من مُنْعِمٍ لو شكرْتَها ... جزاكَ بها الرحمنُ ذو الفضل والمنِّ
رأيتُك تَبْنِى جاهـداً فى قطيعتى ... ولو كنتَ ذا حَزْمٍ لهدَّمتَ ما تَبْنى
أراكَ على الباقينَ تجْنِى ضَغينةً ... فيا وَيْحَهُمْ إن مُتَّ من شرّ ما تَجْنى
كأنّى بهِمْ يوماً وأكثرُ قولهمْ ... ألا ليتَ أنَّا حينَ يا ليتَ لا يغنى

وقد سرق الناس معانيه وأوْدَعوها أشعارَهم . فمن سرَق معانيه أبو نواس ، أخذ معانيه فى وصف الخمر .

ومما يُحكى عن الوليد بن يزيد أنه استفتح فألاً فى المصحف فخرج «وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» فألقاه ورماه بسهام وقال: (وافر)

تُهَدِّدُنِى بجبارٍ عنيدٍ نَعَمْ أنا ذاكَ جبارٌ عنيدُ

إذا ماجئتَ ربَّك يومَ بعْثٍ فقلْ يا ربِّ خرَّقنى الوليد

فلم يلبث بعد هذا إلاّ يسيراً حتى قُتل، وكان السبب فى قتله أنه كان قبل الخلافة على ما وصفنا من اللهو والشرب وانتهاك حرمات الله (عزَّ وجل) فلما أفضت إليه الخلافة لم يَزْدَدْ إلاّ انهماكاً فى اللذات، واستهتارًا بالمعاصى، وضمَّ إلى ذلك ما ارتكبه من إغضاب أكابر أهله والإساءة إليهم وتنفيرِهم، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيتهِ وهجموا عليه وقتلوه، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك وذلك فى سنة ستٍّ وعشرين ومائةٍ .

﴿ ثم ملك بعده يزيدُ بنُ الوليد بنِ عبد الملك ﴾

كان يُظهر التنسك، وكان يقال إنه قَدَرىّ، وسُمى الناقصَ لأنه نقص من أَعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليدُ بنُ يزيد بن عبد الملك، فسمى الناقصَ لهذا السبب. ولما بُويع بالخلافة خطب الناس وقال لهم كلاماً حسناً أنا مُثْبتهُ هاهنا لحسنهِ، خطبهم وذكرَ الوليد بنَ يزيد وإلحادَه، وقال: سيرتُه كانت خبيثة وكان منتهكاً لحرمات الله فقتلتُه ثم قال: «أيها الناسُ إن لكم علىَّ ألاّ أضع حجراً على حجر، ولا لَبِنَةً على لَبِنَةٍ، ولا أكرِى نهرًا، ولا أكنزُ مالاً، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أَسُدَّ ثغره وخَصاصةَ أهله بما يُغْنيهم، فما فَضَل منه نَقَلْتُه إلى البلد الآخر الذى يليهِ، ولا أُغلق بابى دونكم، ولكم أَعْطياتُكم فى كل سنة، وأرزاقُكم كلَّ شهر، حتى يكونَ أقصاكم كأدناكم، فإن وَفَيْتُ لكم بما قلتُ

فعليكم بالسمع والطاعة وحسن الموازرة ، وإن لم أفِ فلكم أن تخلعونى إلاّ أن أتوب ، وإن كنتم تعلمون أن أحداً ممن يُعْرَف بالصلاح يُعطيكم من نفسه ما قد بذلتُ لكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أوّل من يبايعهُ معكم ، إنه لا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق »

أقول إن هذا الكلام حَسَن بالنسبة إلى ذلك الزمانِ وإلى اصطلاح أهله ، فإن هذه الشرائطَ هى التى كانت معتبرَة عندهم فى استحقاق الرياسة ، فأمّا فى هذا العصر فلو افتخر ملك من الملوك بأنّه لا يكْرِى نهراً ولا يضع حجراً عَلَى حجر أو ندبَ رعيَّته إلى تمليك غيره لعُدَّ سفيهاً ، ولكان جديراً فى اصطلاحهم بأن يُملّكَ غيرَه

وفى تلك الأيام شرع حَبْلُ بنى أميَّة يضطرب ، وشرعت الدولة العباسية تنبع ، وانبعثت الدعاة فى الأمصار . وكانت وفاته فى سنة ستٍّ وعشرين ومائة

﴿ ثم ملك بعده أخوه إبراهيمُ بنُ الوليد بنِ عبد الملك بنِ مروان ﴾

كانت تلك الأيامُ أيامَ فتن ، وكان حَبْل بنى أميَّة قد اضطرب ، فلمَّا مات يزيد ابنُ الوليد بنِ عبد الملك بُويع أخوه إبراهيمُ بيْعةً لم تكن بطائل ، فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناسٌ بالإمارة ، وناسٌ ربما لا يسلّمون عليه بواحدة منهما ، واضطرب أمرهُ فمكث سبعين يوماً ، وسار إليه مروان بنُ محمد بنِ مروان فخلعه ، وبُويعَ له بالخلافة ، وجلس على سرير المملكة ، وذلك بعد حروب وفتن ووقائعَ يشيب منها الطفل .

﴿ ثم ملك بعده مروان بنُ محمد بنِ مروان ﴾

هو آخر خلفاء بنى أميَّة وعنه انتقلت الدولة إلى بنى العبَّاس ، ويقال له الجَعْدِىّ ويقال له الحِمَار ، وإنما لُقّبَ بالحِمار قالوا لصبره فى الحرب ، وكان شجاعا

صاحبَ دَهاء ومكْر، وكانت أيامه أيامَ فتن وَهرْج وَمرْج، ولم تَطُلْ أيامه حتى هزمته الجيوشُ العباسية وتبعته إلى بلادِ مصر. فقُتل بقرية اسمها بوصيرُ من قُرى الصعيد، وذلك سنةَ اثنتين وثلاثين ومائة؛ فى أيامه خرج عبد الله بنُ معاوية ابنِ عبدِ الله بن جعفرِ بنِ أبى طالب.

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار ﴾

لما اضطرب حَبل بنى أمية وبويع مروان ثارت الفتن بين الناس، واختلفت كلمتهم، فكلٌّ يرى رأياً ويذهبُ مَذهباً، وكان بالكوفة رجل من ولد جعفر الطيّار (عليه السلام) اسمه عبد الله بنُ معاوية بن عبد الله بن جعفرِ بن أبى طالب، وكان فاضلاً شاعرًا فحدثته نفسه بالأمر، ورأى أهلُ الكوفة اختلافَ الأمور بدِمَشْق واضطرابَ حبل بنى أميّة، فحضروا إلى هذا عبدِ الله وبايعوه واجتمعوا حولَهُ خلائقَ، فبرَز إليهم أمير الكوفة يوْمئذٍ فقاتلهم بمن معه، وتصابر الفريقان مدة، ففى آخر الأمر طلب أهلُ الكوفة لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر الأمانَ من أمير الكوفة ليتوجهوا أينَ شاءوا من بلاد الله، وكان أمير الكوفة ومن معه قد ملوا من القتال، فأعطاهم الأمان، فتوجّه عبد الله إلى المدائن وَعبرَ دِجلة وغلب على حُلوان وما قاربها، ثم توجّهَ إلى بلاد العجم فغلب على تلك الجبال وهَمذان وأصفهان والرّى، والتحق به قوم من بنى هاشم وَبقِىَ على ذلك مدة.

وكان أبو مسلم الُخْراسانىُّ قد قويتْ شوْكته، فسار إلى هذا عبدِ الله فقتله، ثم أظهر الدولة العباسية، ثم ظَهرت الدولة العباسية واشتهرت دعوتُها.

﴿ ذكر انتقال الملك من بنى أمية إلى بنى العباس ﴾

لا بُدّ قبل الخَوْض فى ذلك من مقدمة يُشْرَح فيها ابتداء أمر أبى مسلم الخراسانى ، فإنه رجلُ الدولة وصاحبُ الدعوة ، وعلى يدِه كان الفتحُ

﴿ شرح ابتداء أمر أبى مسلم الخراسانى ونسبهُ ﴾

أما نسَبهُ ففيه اختلاف كثير لا فائدة فى استقصاء القول فيه ، فقيل هو حُرٌّ من ولد بُزُرْجِمهر وإنه وُلِدَ بأصفهان ونشأ بالكوفة ، فاتصل بإبراهيم الإمام ابنِ محمد بنِ على بنِ عبد الله بنِ العباس ، فغيّر اسمه وكناهُ بأبى مسلم وثقّفه وفقّهه حتى كان منه ما كان .

وقيل هو عَبْدٌ ، تنَقّل فى الرِّق حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سَمْتهُ وعقلهُ ، فابتاعه من مولاه وثقفه وفهّمه ، وصار يُرسله إلى شيعته وأصحاب دعوته بخُرَاسان ، وما زال علَى ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هو فانه لما قويت شوكته ادّعى أنه ابنُ سليط بن عبد الله بنِ العباس ثم ترسَّل أبو مسلم لإبراهيمَ الإمام إلى خراسان ودعا اليه سرًّا ، وما زال على ذلك حتى ظهرت الدعوة وتمَّ الأمر .

﴿ مقدمة أخرى قبل الخوض فيها ﴾

قال الله (تعالى) « وَتِلْكَ الْأَيَامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » .

وعزّى بعضُ الحكماء بعضَ الملوك عن مملكة خرجت عنه فقال : لو بقيَتْ لغيرك لما وَصلتْ إليك .

واعلمْ (عَلمْتَ الخير) أن هذه دولةٌ من كبار الدول ، ساست العالمَ سياسة ممزوجة بالدِّين والمُلْك ، فكان أخيارُ الناس وصُلحاؤهم يُطيعونها تديُّناً ، والباقون يطيعونها

رَهْبة أو رغبة ، ثم مكثت فيها الخلافة والملكُ حدودَ سِتّمائةِ سنةٍ ، ثم طرَتْ عليها دولٌ كدولة بنى بُوَيْه ، وكانت عظمتها كما علمتَ ، وفيها كبشُهم وفحلهم عضد الدولة . فناخسرو . وكدولة بنى سلجوق وفيها مثلُ طغرلبك ، وكالدولة الخوارزِمشاهية وفيها مثلُ علاء الدين ، وجريدة عسكره مشتملةٌ على أربعِمائةِ ألفِ مُقاتل ، وكدولة الفاطميين بمصر وقد وجَّهوا عسكراً صُحبةَ عبدٍ من عبيدهم اسمُه جوهرٌ لم يُرَ عسكرٌ أكثفُ منه ، حتى قال فيه شاعرهم وهو محمد بن هانىء المغربى . (طويل)

فلا عسكرٌ من قَبلِ عسكرِ جوهرٍ تخُبُّ المطايا فيه عشْراً وتُوضِعُ

ولخوارجَ خرجوا فى أثنائها بجموع كثيرة ، وحُشور عظيمة ، كل ذلك ولم يزلْ ملكهم ، ولم تقوَ دولةٌ على إزالة ملكهم ومحوِ أثرهم ، بل كان الملكُ من هؤلاء المذكورين يجمعُ ويحتشِد ويجرُّ العساكر العظيمة ، حتى يصلَ إلى بغداد ، فاذا وصل التمس الحضور بين يدى الخليفة فإذا حضر قبل الأرض بين يديه ، وكان قُصارى ما يتمناه أن يُوَلّيَهُ الخليفة ويعقِدَ له لواءً ويخلَع عليه ، فإذا فعل الخليفةُ ذلك قبَّلَ الملك الأرضَ بين يديه ومشى فى رِكابه راجلاً ، والغاشيةُ تحتَ إبطه ، كما فعل مسعود السلطان مع المسترشد ، فان المسترشِد وقعت بينه وبين مسعود مُنابذة أدّتْ الى مُحاربة ، فخرج المسترشد بعسكر كثيف وصُحْبتُه جميعُ أرباب الدولة ، فالتقى هو والسلطان مسعودٌ بظاهر مَراغة فاقتتلوا ساعة ، ثم انكشف الغُبار وقد انهزم أصحاب المسترشد ، واستولى عسكرُ مسعود ، فانجلى الغبار والخليفة ثابتٌ على ظهر فرَسه ، وفى يده المصحف وحَواليه القراء والقضاةُ والوزراء لم ينهزم أحد منهم ، وانما انهزم المقاتلون ، فلما نظر السلطان مسعود اليهم أرسل مَنْ قادَ دابة الخليفة وأدخله إلى خيْمة قد نُصِبتْ له ، وأخذ أربابَ

دولته فحبسهم فى قلعة قريبة من تلك النواحى ، ثم غَنِموا جميع ما كان فى عسكر الخليفة ، وبعد ايام اجتمع السلطان بالخليفة وعاتبه على فعله ، ثم تقرَّر بينهم أمرُ الصلح فاصطلحا ، وركب الخليفة الى مُخَيَّم عظيم ضربه لأجله السلطان ، فلما ركب الخليفة أخذ السلطانُ مسعود الغاشية ومشى فى ركابه ، ثم جرى من قَتْل المسترشد ما نذكره بعد هذا .

فهذه الدولُ جميعُها طرَتْ على دولة بنى العباس ، ولم تقوَ نفْسَ أحد على إزالة ملكهم ومَحْو آثارهم ، وكانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تُدانيها منزلة أحدٍ آخرَ من العالمَ ، حتى إن السلطان هولاكو لما فتحَ بغداد وأراد قتلَ الخليفةِ أبى أحمدَ عبدِ الله المستعصم ، ألقوْا إلى سَمْعِه أنه متى قُتل الخليفة اختلّ نظامُ العالم واحتجبتِ الشمس وامتنع القَطر والنبات ، فاستشعر لذلك ، ثم سأل بعضَ العلماء فى حقيقة الحال عن ذلك ، فذكر ذلك العالِم له الحقّ فى هذا ، وقال إن علىّ بنَ أبى طالب كان خيراً من هذا الخليفة بإجماع العالمَ ثم قُتل ولم تجْرِ هذه المحذورات ، وكذلك الحسين ، وكذلك أجداد هذا الخليفة ، قتُلوا وجرى عليهم كلُّ مكروه ، وما احتجبت الشمس ولا امتنع القَطْر ، فحين سمِع ذلك زال ما كان قد حَصَل فى خاطره ، واعتذر ذلك العالِم عن هـذا القول ، بأن هيبة السلطان كانت عظيمة وسطوته مرهوبة ، فما تجاسرتُ أن أقول بين يدَيْهِ غيرَ الحق . فهذا كان اعتقاد الناس فى بنى العباس ، وما قويتْ دولة من الدول عَلَى إزالة مملكتهم ومحو أثرهم سوى هذه الدولة القاهرة (نشر الله إحسانها وأعلى شأنها) .

فان السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقَتَل الخليفة محا أثَرَ بنى العباس ، كلَّ المحو ، وغيَّر جميعَ قواعِدهم ، حتى إن الذى كان يتلفَّظ باسم بنى العباس كان على خطر من ذلك .

﴿ وها هنا موضع حكاية ﴾

حدثنى نصر المليسى" الحبشى أحدُ خُدَّام السلطان ، (مدَ الله معْدَلته ، وأعلى فى الدارين درجته) ، وكان قبل ذلك للخليفة المستعصم قال : لما مُلِكتْ بغداد أخرجونى وأنا صغير فى جملة الخدم ، فلازمْنا خِدْمة الدركاه أياماً ، فلما بَعدْنا عن بغداد أحْضرَنا السلطان هولا كو يوماً بين يديه ، وكان علينا زىُّ الخلافة ، فقال : أنتم كنتم قبل هذا للخليفة ، وأنتم اليومَ لى ، فينبغى أنكم تخدمُون خدمة جيّدة بنصيحة ، وتُزيلون من قلوبكم اسمَ الخليفة ، فذاك شىء كان ومضى ، وإن آثرتم تغييرَ هذا الزىّ ، والدخولَ فى زِيّنا كان أصلحَ ، قال : قلنا : السمعُ والطاعة ثم غيَّرْنا زِيّنا ودخَلْنا فى زيهم

﴿ شرح ابتداء الدولة العباسية ﴾

رُوىَ أن الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) ، كان يجرى على لفظه الشريف ما معناهُ البشارةُ بدولة هاشمية ، فزعم ناس أنهُ قال : تكون لرجل من ولدى ، وزعم ناس أنهُ (عليهِ الصلاة والسلام) قال لعمه العباسِ (رضى الله عنـهُ ، وسلم عليه) : إنها تكون فى ولدك ، وأنهُ حين أتاه بابنه عبدِ الله أذَّنَ فى أذنهِ وتفَلَ فى فيهِ ، وقال : « اللهم فقهّه فى الدين وعلّمهُ التأويل » ثم دفعهُ إلى أبيه وقال له خذ إليك أبا الأملاك ، فمن زعم هذا الزعم قال إن الدولة العباسية هى الدولةُ المبشَّرُ بها ، وكانت دولة بنى أميَّة مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة ثقيلةَ الوطْأةِ مستهتَرة بالمعاصى والقبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون هذه الدولة صباحَ مساءَ وكان محمد بنُ علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) ، وهو المعروف بابن الحنفِيَّة ، قد اعتقد فيه الناس أنهُ صاحبُ الدولة بعد قتل أخيهِ الحسينِ (عليه

السلام) ما عدا الإمامية فان اعتقادهم إمامةُ علىّ بنِ الحسين زين العابدين (عليه السلام) وإمامة بنيهِ واحدٍ بعد واحد إلى القائم محمدِ بن الحسن (عليه السلام).

فلماّ مات محمد بنُ الحنفية (عليه السلام) أوصى إلى ابنهِ أبى هاشم عبدِ الله، وكان أبو هاشم من رجال أهل البيت (عليهم السلام)، فاتفق أنه قصد دِمَشق وافداً على هِشام بن عبد الملك، فبَرَّهُ هِشام ووَصله، ثم رأى من فصاحته ورياسته وعلمهِ ما حَسَده عليهِ وخاف منهُ، فبعث إليه وقد رجَع إلى المدينة من سَمَّه فى لبن، فلما علم بذلك عدل إلى محمدِ بن علىّ بن عبد الله بنِ العباس وكان نازلاً بالحُمَيْمَةِ من أرض الشأم، فأعلمه أنهُ ميت وأوصى إليه، وكان صُحْبتهُ جماعة من الشيعَة فسلَّمهم إليه وأوصاه فيهم ثمّ مات (رضى الله عنهُ)، فتهوَّس محمد بنُ علىّ بنِ عبد الله بالخلافة منذ يومئذٍ، وشرع فى بثّ الدعاة سِرًّا، وما زال الأمر على ذلك حتى مات، وخلّفَ أولادَه، وهم جماعة: منهم إبراهيم الإمامُ والسفاحُ والمنصور، فقام ابراهيم الإمامُ بالأمر بعد أبيه واستكثر من إرسال الدُّعاة إلى الأطراف، خصوصاً إلى خُراسان، فإنهم كانوا أشدَّ وثوقاً بأهل خراسان من غيرهم من أهل الأمصار.

أما أهل الحجاز فقليلون، وأما أهل الكوفة والبَصْرة فكان أهل البيت مذعورين لما جَرَى منهم على أمير المؤمنين (عليهِ السلام) والحسن والحسينِ (عليهما السلام) من الخِذْلان والغدر وسفك الدم، وأما أهلُ الشأم ومصرَ فهواهم فى بنى أميَّة، وحُبُّ بنى أمية قد رسخ فى قلوبهم، فلم يبقَ لهم من يسكنون إليه من أهل الأمصار إلاّ أهل خُراسان.

وكان يقال إنّ الراياتِ السودَ الناصرَةَ لأهل البيت تخرج من خُراسان، فأرسل إبراهيم الامامُ جماعة من الدُّعاة إلى خراسان وكاتب مشايخها ودهاقينها،

فأجابوه ودعَوْا إليه سرًّا ، وأرسلَ فى آخر الأمر أبا مسلم ، فمضى إلى هناك وجمع الجموع ، كلُّ ذلك والأمرُ سرٌّ ، والدعوة مخفية لم تظهر بعد .

فلماَّ كانت أيامُ مروان الحمارِ بنِ محمدِ بن مروانَ آخرِ خلفاء بنى أمية ، كثُر الهَرْج والمَرْج ونمَى الشرُّ وثارت الفتن ، واضطرب حبل بنى أمية واختلفتْ كلمتُهم وقتَلَ بعضُهم بعضاً — أظهر أبو مسلم دعوةَ بنى العباس واجتمع اليه كلُّ مَنْ له فى ذلك رأىٌ من أهل خراسان ، وجرَّ عسكراً كثيفاً ليقاتلَ به أميرَ خراسان ، وهو نصر بنُ سيَّار ، فلما بلغ نصراً حالُ أبى مسلم وجموعِه ، راعهُ ذلك فكتب إلى مروانَ الحمار : (وافر)

أرَى بين الرَّماد وَميضَ نارٍ ويُوشِكُ أن يكونَ لها ضِرَامُ
فإنْ لم يُطْفِها عُقلاءُ قومٍ يكونُ وَقُودَها جثثٌ وهَامُ
فإنَّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى وإنَّ الحربَ أولُها كلامُ
فقلتُ مِنَ التعجُّب ليتَ شِعرى أأيْقاظٌ أميَّةُ أمْ نِيامُ

فكتب اليه مروانُ : إنّ الحاضرَ يَرَى ما لا يرى الغائب ، فاحْسِم أنت هذا الداءَ الذى قد ظهرَ عندكَ ، فقال نصر بنُ سيار لأصحابه : أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نَصْرَ عنده ، وتواترت الأخبار إلى مروان بهذا الأمر ، وحبْله كلما جاء خبرٌ اضطرب ، وأمرُه فى كل يوم يَضْعُفُ ، ثم بلغه أن الذى تدعو الدُّعاة اليه هو إبراهيمُ بنُ محمد بنِ علىّ بنِ عبد الله بن العباس أخو السفاحِ والمنصورِ ، فأرسل إليه وقَبض عليه وأحضره إلى حَرَّان فحبسه فيها ثم سَمَّه فى الحبس فمات .

ثم جرتْ بين أبى مسلم وبين نصرِ بنِ سَيَّار وغيرِه من أمراء خراسان حروبٌ ووقائعُ ، كانت الغَلَبة فيها المسوَّدة وهم عسكر أبى مسلم ، وإنما سُمُّوا المسوَّدة

لأن الزّيّ الذى اختاروه لبنى العباس هو لونُ السواد، فانظر إلى قدرة الله (تعالى) وأنه إذا أراد أمراً هيَّأ أسبابه، وإذا أراد أمراً فلا مردَّ لأمره.

لما قدَّر انتقالَ المُلك إلى بنى العباس هيَّأ لهم جميعَ الأسباب، فكان ابراهيم الامام بن محمد بنِ علىّ بنِ عبد الله بن العباس بالحجاز أو بالشأم جالساً على مُصلاَّه، مشغولاً بنفسهِ وعبادتهِ ومصالِح عياله، ليس عنده من الدنيا طائل، وأهل خراسان يقاتِلون عنه ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه، وأكثرُهم لا يعرفه ولا يفرِّق بين اسمه وشخصه. وانظر إلى إبراهيم الإمام؛ هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز أو بالشأم، وله مثلُ هذا العسكر العظيم فى خراسان يبذلون نفوسهم دونه، لا يُنفِق عليهم مالاً ولا يُعطِى أحدَهم دابَّة ولا سلاحًا، بل هم يجْبون إليه الأموال ويحملون إليه الخراج فى كل سنة.

ولما قدّر الله (تعالى) خِذلان مروان وانقراضَ ملك بنى أمية كان مروان خليفةً مبايعاً، ومعه الجنود والأموال والسلاح، والدنيا بأجمعها عنده، والناس يتفرَّقون عنه، وأمرُه يضعف، وحبله يضطرب، فما زال يضمحلُّ حتى هُزم وقُتل (فتعالى الله)

ولما غلب أبو مسلم على خراسان واستولى على كُوَرِها وقويَتْ شوكته، سار إلى العراق بالجنودِ، وكان لما قبَضَ مروانُ على إبراهيم الإمام وحبسه بحرَّان خاف أخواه السفَّاحُ والمنصورُ وجماعةٌ من أقاربهم فهرَبوا وقصدوا الكوفة، وكان لهم بها شيعة: منهم أبو سَلَمَة حفصُ بنُ سليمان الخَلّالُ، وكان من كبار الشيعة بالكوفة، وصار بعد ذلك وزيراً للسفَّاح، ثم قتله السفاح، وسيَرِدُ ذكرهُ عند ذِكْرِ الوزراء، فأخلى لهم أبو سَلَمة الخَلّالُ داراً بالكوفة، وأمر لهم بها، وتولى خدمتَهم بنفسه، وكتم أمرهم، واجتمعت الشيعة إليه، وقويَتْ شوكتهم،

فوصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، فدخل عَلَى بنى العباس وقال : أيُّكُم ابن الحارثيَّة ؟ فقال له المنصور : هـذا ، وأشار إلى السفاح (وكانت أُمُّه حارِثيَّة) فسلَّم أبو مسلم عليه بالخلافة ، وخرج السفاح ومعه إخوته وعُمومته وأقارِبه وأكابر الشيعة ، وأبو مسلم بين يديه إلى الجامع ، فصلى وصَعِد المنبر وأظهر الدعوة وخَطَب الناسَ وبويع بالخلافة ، وذلك فى سـنة مائة واثنتين وثلاثين . وهذا اولُ دولة بنى العباس وآخرُ دولة بنى أُمية .

ثم عَسكَرَ السفاح ظاهرَ الكوفة ، ووفد عليه الناس من الأمصار يبايعونه ، فلما اجتمع عنده النـاس وقَوِيَت شوكته نَدَب رجلاً من أقاربه لقتال مروانَ الِحمار ، فانتدب لذلك عمُّه عبدَ الله بنَ علىّ وكان من رجال بنى العباس ، فتوجه عبد الله بنُ على إلى مروان فلقيه بالزاب ، ومع مروان مائةٌ وعشرون ألفَ مقاتل ، ولا يكون مع عبد الله بنِ على إلاّ الأقلُّ من ذلك . فصَنع الله (تعالى) لعبد الله بنِ علىّ أنواعَ الصُّنع ، وخُذِل مروانُ كلَّ الِخْذلان ، فانظر واعتبر !

﴿ شرح كيفية الوقعة بالزاب وخِذلانِ مروان وانهزامِهِ ﴾

لما التقى عَلَى الزاب مروانُ الِحمارُ وعبدُ الله بنُ علىّ ، قال مروان لبعض أصحابه : إن غابت شمسُ هذا النهارِ ولم يقاتلونا فالخلافةُ فينا ، ونحن نسلّمها فى آخر الزمان إلى المسيح (عليه السلام) وأمر أصحابَه بالكفِّ عن القتال ، وقصد أن ينقضىَ النهار ولا يقع قتال ، ثم أرسل إلى عبد الله بنِ علىّ يسأله الموادَعَة ، فقال عبد الله : كذَبَ ، لا تزول الشمس حتى أُوطِئَهُ الخيلَ إن شاء الله (تعالى) ، فكان من الاتفاقات الطريفة ان صِهرْ مروانَ حَمل عَلَى قطعة من عسكر عبد الله بنِ علىّ فردّه مروان وشتمه فلم يقبل ، ونَشِب القتال ، فأمر عبدُ الله بنُ علىّ أصحابه

بالمناجزة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح ، ونادى عبد الله بن على : يا رب ، حتى متى نُقتَلُ فيك ؟ ونادى : يا أهل خراسان ، يا لثارات إبراهيم الامام ، واشتد القتال ، فصار مروان إذا أمر طائفة من العسكر بشيء قالوا : قل للطائفة الأخرى ، وبلغ من أمره انه قال لصاحب شرطته : انزل إلى الأرض ، فقال : لا والله ، لا آلق نفسى فى التهلكة ، فقال له مروان لأفعلن بك ، وتهدده ، فقال وددت أنك تقدِرُ على ذلك ، ثم رأى مروان فترة أصحابه ومناجزة أصحاب عبد الله ابن على ، فوضع مروان ذهباً كثيرًا قُدّامَ الناس ، وقال : أيها الناس ، قاتِلوا وهذا المال لكم ، فصار الناس يمدّون أيديهم إلى المال ، ويتناولون منهُ شيئاً شيئاً ، فقال بعض الناس لمروان : إن الناس قدّموا أيديهم إلى المال ولا نأمن انهم يذهبون به ، فأمر ابنَهُ أن يسير فى أواخر العسكر فمن وجد معه شيئاً من المال قتَله ، فرجع ابنُه برايته ليتعهد ما قال فرأى الناسُ الرايةَ راجعة ، فنادوا : الهزيمةَ الهزيمةَ ، فانهزم الناس ومروانُ أيضاً ، وعبروا دِجْلَةَ ، فكان مَنْ غرق أكثرَ ممن قُتل ، وتلا عبد الله بنُ على : « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ثم انتقل إلى عسكر مروان ، وغنِم ما فيه ، وأقام بهِ سبعةَ أيام .

﴿ شرح مقتل مروان الحمار ﴾

ثم إن مروان مضى منهزماً حتى وصَل الموصِل ، فقطَع أهلُها الجسرَ ومنعوه من العُبور ، فنادى أصحابُه : يا أهل الموصِل ، هـذا أمير المؤمنين يريد العبُور ، فناداهم أهلُ الموصِل : كذبتم ، أميرُ المؤمنين لا يفرّ ، وسبَّه أهل الموصِل وقالوا له : الحمدُ لله الذى أزال سلطانكم وذهب بدولتكم ، الحمد لله الذى أتانا بأهل بيت نبينا ، فلما سَمِع ذلك سار إلى بلد وعبر دجْلة وأتى حرّانَ ثم منها إلى دِمَشْق ثم منها

إلى مصر ، وتبعه عبدُ الله بن عليّ ، ثم أرسل خَلْفَه بعضَ أصحابه فرآه بقرية من قرى الصعيد اسمها بوصيرُ ، فخرج إليهم ليلاً مروانُ وقاتلهم ، فقال لجند بنى العباس أميرُهم : إن أصبحنا ورأوا قِلّتنا أهلكونا ولم ينج منا أحد ، فناجزوا القومَ ، وكسر جفنَ سيفهِ ، وفعل أصحابهُ مثله ، وحملوا عليهم فانهزموا ، وحمل رجلٌ على مروانَ فطعنه وهو لا يعرفه فصرعه ، وصاح صائح : صُرع أمير المؤمنين ، فابتدروه ، فسبق إليه رجلٌ من أهل الكوفة فاحتزّ رأسه ثم نُفِضَ الرأسُ وقُطِع لسانُه فأكلته هرّة كانت هناك ، ثم حُمِل الرأس إلى السفّاح فوصل إليه وهو بالكوفة ، فلما رآه سجد ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك ، وأظفرنى بك ، ولم يُبْقِ ثأرى قِبَلك ، وتمثل : (بسيط)

لو يَشْربون دمى لم يُرْوِ شارِبَهُمْ ... ولا دماؤُهُمُ للغيظِ تُرْوِينى

ثم صفا المُلْك للسفّاح .

﴿ الدولة العباسية ﴾

﴿ وهى التى تسلمت الملك من الدولة الأموية ﴾

واعلَمْ أن الدولة العباسية كانت دولةً ذاتَ خُدَع ودهاء وَغدْر ، وكان قِسْمُ التحيل والمخادعة فيها أوفرَ من قِسم القوّة والشدّة ، خصوصاً فى أواخرها ، فإن المتأخرين منهم بطّلوا قوة الشدّة والنجدة ، ورَكنوا إلى الحِيَل والخُدَع . وفى مثل ذلك يقول كشاجم مشيراً إلى موادعة أصحاب السيوف وعداوةِ أصحاب الأقلام ومقاتلة بعضهم لبعض : (طويل)

هنيئاً لأصحاب السيوف بَطَالةٌ ... تُقَضَّى بها أوقاتُهم فى التنعمِ

فكم فيهمُ من وادِعِ العيشِ لم يَهِجْ ... لحربٍ ولم يَنْهَدْ لِقِرْنٍ مُصَمِّمِ

يروح ويغدو عاقداً فى نجاده   حساماً سليمَ الحدِّ لم يَتثــلّم
ولكنْ ذوُو الأقلام فى كل ساعة   سيوفُهُمُ ليست تجفُّ من الدّم

وفيها يقول بعض الشعراء حين قَتلَ المتوكلُ وزيرَه محمد بنَ عبد الملك الزيات :

(وافر)

يكاد القلبُ من جزَع يطيرُ   إذا ما قيل قد قُتِل الوزيرُ
أميرَ المؤمنين قتلتَ شخصاً   عليـه رحا كُمُ كانت تدور
فمهلاً يا بنى العباس مهلاً   لقد كُوِيَتْ بغدركُمُ الصدور

إلاّ أنها كانت دولةً كثيرةَ المحاسن جمّة المكارم ، أسواقُ العلوم فيها قائمة ، وبضائعُ الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظّمة ، والخيرات فيها دارّة ، والدنيا عامرة ، والحرمات مرعيَّة ، والثغور محصَّنة . وما زالت عَلَى ذلك حتى كانت أواخرُها ، فانتشر الجْبرْ ، واضطرب الأمر ، وانتقلت الدولة . وسيَرِد ذلك فى موضعه مشروحًا إن شاء الله (تعالى) . وهذا أوان الشروع فى ذكر خليفةٍ خليفةٍ

﴿ أول خليفة مَلَكَ منهم السفّاح ﴾

هو أبو العباس عبدُ الله بنُ محمد بنِ علىّ بن عبد الله بنِ العباس بنِ عبد المطلب ، بويع فى سنة مائة واثنتين وثلاثين

كان كريماً حليماً وقوراً عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الأخلاق ، ولمّا بويع واستوْسَق له الأمر تتبّعَ بقايا بنى أُمية ورجالَهم فوضع السيفَ فيهم

وفى بعض أيامه كان جالساً فى مجلس الخلافة وعنـده سليمان بن هشام ابنِ عبد الملك وقد أكرمه السفّاح ، فدخل عليه سَديفُ الشاعر فأنشده :

(خفيف)

لا يغرَّنْكَ ما ترى من رجال   إنّ تحت الضلوع داءً دويّاً

فضعِ السيفَ وارفع السَّوْطَ حتى　　لا ترَى فوقَ ظهرها أمَوِيًّا

فالتفت سليمان وقال : قتلتنى يا شيخ ! ودخل السفّاح واخذ سليمان فقُتِل .

ودخل عليه شاعر آخر وقد قُدِّم الطعام وعنده نحوُ سبعين رجلاً من بنى أمية فأنشده : (خفيف)

أصبحَ الملكُ ثابتَ الأساسِ　　بالبهاليل من بنى العباسِ
طلبوا وَتْرَ هاشم فشفوْها　　بعد مَيْل من الزمان وياس
لا تقيلنَّ عبدَ شمسٍ عِثاراً　　واقطعَنْ كلَّ رَقْلَة وغِراس
ذُلُّها أظهرَ التوددَ منها　　وبها منكم كحزِّ المواسى
ولقد غاظنى وغاظ سِوائى　　قربهم من نمارقٍ وكراسى
أنزلوها بحيثُ أنزلها اللهُ　　بدارِ الهوانِ والإتعاس
واذكروا مصرعَ الحسين وزيدٍ　　وقتيلاً بجانب المِهْراس
والقتيلَ الذى بحرّان أضحى　　ثاويا بين غُربْة وتناس

فالتفت أحدهم إلى من بجانبه وقال قتَلَنا العبد ! ثم أمر بهم السفّاح فضُربوا بالسيوف حتى قُتلوا ، وبَسَط النُّطُوع عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً

وبالغ بنو العباس فى استئصال شأْفة بنى أمية حتى نبشوا قبورهم بدِمَشْق ، فنبشوا قبر معاوية بن أبى سفيان (رضى الله عنهُ) فلم يجدوا فيهِ إلاّ خيطاً مثل الهباء ، ونبشوا قبر يزيد فوجدوا فيه حُطاما كأنه الرَّماد . ولمَّا قتَلَ رجالهم واستصفى أموالهم قال . (بسيط)

بنى أميةَ قد أفنيت جمعَكمُ　　فكيفَ لى منكمُ بالأولِ الماضِى
يُطيبُ النفسَ أنّ النار تجمعُكمْ　　عُوِّضتم من لظاها شرَّ مُعْتاض

مُنيتمُ (لا أقال اللهُ عثرَتكُمْ) بليثٍ غابٍ إلى الأعداء نهّاض
إن كان غيظى لفوت منكم فلقد رَضِيتُ منكم بما ربّى به راض

ثم لم تطل مدّةُ السفّاح حتى مات بالأنبار فى سنة مائةٍ وستٍّ وثلاثين .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لا بد قبل الخوض فى ذلك من تقديم كلماتٍ فى هذا المعنى فأقول :

الوزير وسيطٌ بين المَلك ورعيتهِ ، فيجب أن يكون فى طبعه شَطْرٌ يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلاً من الفريقين بما يُوجِب له القبولَ والمحبةَ . والأمانةُ والصدقُ رأسُ ماله . قيل إذا خان السفير بَطَلَ التدبير ، وقيل ليس لمكذوب رأى ، والكفاءةُ والشهامة من مهمانه ، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته ، ولا يستغنى أن يكون مِفضالا مطعاماً ليستميل بذلك الأعناق ، وليكون مشكوراً بكل لسان . والرفقُ والأناة والتثبُّت فى الأمور والحلم والوقار والتمكُّنُ ونفاذُ القول مما لا بدَّ له منه

لمّا استوزر الناصرُ وزيرَه مؤيدَ الدين محمد بنَ برز القمىّ خَلَعَ عليه خِلَعَ الوزارة ، ثم جلس القمىّ فى منصِبِ الوزارة والناس جميعاً بين يديه ، فبرز من حضرة الخليفة مكتوبٌ لطيف فى قدْرِ الخِنْصر بخط يد الناصر ، فقُرِئَ على الجمع فكان فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد بنُ برز القمىّ نائبُنَا فى البلاد والعباد ، فمن أطاعه فقد أطاعنا ، ومن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله أدخله الجنة ، ومن عصاه فقد عصانا ، ومن عصانا فقد عصَى الله ، ومن عصى الله أدخله النار . »

فَنَبُل القمىّ بهذا التوقيع فى عيون الناس ، وجلّت مكانته وقامت له الهيبة فى الصدور .

والوزارة لم تتمهدْ قواعدُها وتتقررْ قوانينُها إلا فى دولة بنى العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن مقنَّنَةَ القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباعٌ وحاشية ، فاذا حدث أمرٌ استشار بذوى الحِجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مَجْرَى وزير ؛ فلمّا ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمِّىَ الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً .

قال أهل اللغة : الوَزَرَ الملجأ والمعتصَم ، والوِزْرُ الثِقْل ، فالوزير إما مأخوذ من الوِزْر فيكون معناه أنه يحمل الثِقْل ، أو يكون مأخوذاً من الوَزَر فيكون المعنى أنه يُرْجَع ويُلْجَأُ إلى رأيه وتدبيره ، وكيف تقلَّبَتْ لفظة «وزر» كانت دالة على الملجأ والثِقل .

أولُ وزير وَزَرَ لاول خليفة عباسى حَفْصُ بنُ سليمان أبو سَلَمَةَ الخَلّالُ ، كان مولًى لبنى الحارث بنِ كعب . قيل فى تلقيبه بالخلال ثلاثةُ أوجه : أحدها أن منزله بالكوفة كان قريباً من مَحِلة الخلاّلين وكان يجالسهم فنُسب إليهم ، كما نسب الغزّالى إلى الغزّالين وكان يجالسهم كثيراً ؛ ورأيتُ فى تسمية الغزّالى وجهاً آخر قيل كان من رأيه الصدقةُ على النساء العجائز اللواتى يحضُرْنَ إلى دار الغزل ليبعن غزلهن فيرى ضعفهن وفقرهن ونزارة مكسبهن فيرِق لهن فيتصدق عليهن كثيراً ويأمر بالصدقة عليهن ، فنُسِب إلى ذلك ، وثانيها أنه كان له حوانيتُ يُعمَل فيها الخلُّ فنسب إلى ذلك . وثالثُها أنها نسبةٌ إلى خِلَل السيوف ، وهى أغمادها .

كان أبو سَلَمة من مَياسير أهل الكوفة ، وكان يُنفِق مالَه على رجال الدعوة وكان سببُ وُصْلته إلى بنى العباس أنه كان صِهْراً لبكير بن ماهان وكان بكير ابنُ ماهان كاتباً خِصِّيصاً بابراهيم الإمام ، فلما أدركته الوفاةُ قال لإبراهيم الإمام : إن لى صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلاّلُ ، قد جعلته عِوَضى فى القيام بأمر دعوتكم ، ثم مات ، فكتب إبراهيم الإمام إلى أبى سلمة يُعْلِمُه بذلك ، ويأمره

بما يريد من أمر الدعوة ، وقام أبو سلمة بأمر دعوتهم قياماً عظيماً ، فلمّا سَبَرَ أحوال بنى العباس عزم على العدول عنهم إلى بنى علىّ (عليه السلام) ، فكاتب ثلاثةً من أعيانهم : جعفرَ بنَ محمد الصادق (عليهما السلام) ، وعبدَ الله المحض ابنَ حسن بنِ حسن بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليهم السلام) ، وعمرَ الأشرف ابنَ زين العابدين (عليه السلام) ، وأرسل الكتبَ مع رجل من مواليهم ، وقال له : اقصِدْ أولا جعفرَ بنَ محمد الصادق ، فإنْ أجاب فأَبْطِل الكتابين الآخرَيْن ، وإنْ لم يُجِب فالقَ عبدَ الله المحض فان أجاب فأبْطِل كتابَ عُمر ، وإن لم يجب فالقَ عمر ، فذهب الرسول إلى جعفر بنِ محمد (عليه السلام) أولا ودفع إليه كتابَ أبى سلمة ، فقال مالى ولأبى سلمة وهو شيعةٌ لغَيْرِى ! فقال له الرسول : اقرأ الكتاب ، فقال الصادق (عليه السلام) لخادمه أدْنِ السراجَ منى ، فأدناه ، فوضع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول : ألا تجيبه ؟ قال : قد رأيتَ الجواب ، ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبّله وركب فى الحال إلى الصادق (عليه السلام) وقال هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه إلى الخلافة ، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان ، فقال له الصادق (عليه السلام) ومتى صار أهلُ خراسان شيعتَك ؟ أأنت وجّهتَ إليهم أبا مسلم ؟ هلْ تعرفُ أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتَك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبدُ الله كان هذا الكلامُ منك لشىء ، فقال الصادق قد عَلِم الله أنى أوجبُ النصحَ على نفسى لكلِّ مسلم ، فكيف أدّخِرُه عنك ؟ فلا تُمَنِّ نفسك الأباطيلَ ، فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء ، وقد جاءنى مثلُ الكتاب الذى جاءك . فانصرفَ عبد الله من عنده غيرَ راض ؛ وأما عمر بن زين العابدين فانهُ ردَّ الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه ، فاجيبَه ، ثم غَلِبَ

أبو سلمة على رأيه ، وعَمِلت الدعوة عملها ، وبويع السفَّاح ونَمَّ الخبرُ إليه فحقدها على أبي سلمة وقتله .

﴿ ذكر شيء من سيرته ومقتله ﴾

كان أبو سلمه سمحاً كريماً مِطعاماً كثير البذل مشغوفاً بالتنوُّق في السلاح والدواب ، فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسِيَر والجَدَل والتفسير حاضرَ الحجّة ذا يَسَار ومُرُوءة ظاهرة ؛ فلما بويع السفَّاحُ استوزره وفوّض الأمور إليهِ وسلَّم إليهِ الدواوين ، ولُقّبَ وزيرَ آلِ محمد ، وفي النفس أشياء ، وخاف السفاح إن هو قَتَل وزيرَه أبا سلمة أن يستشعر أبو مسلم ويتنمَّر ، فتلطف لذلك ، وكتب إلى أبي مسلم كتاباً يُعلِمُهُ فيه بما عزم عليهِ أبو سلمه مِنْ نَقْلِ الدولة عنهم ، ويقول له : إنني قد وهبت جُرْمَه لك ، وباطن الكتاب يقتضي تصويبَ الرأى في قتل أبي سلمة ، وأرسلَ الكتابَ مع أخيه المنصور فلما قرأ أبو مسلم الكتابَ فَطِنَ لغرض السفاح فأرسل قوماً من أهل خراسان قتلوا أبا سلمة ، فقال الشاعر : (كامل)

إنَّ الوزيرَ وزيرَ آلِ محمد ... أوْدَى فمن يَشْنَاكَ كان وزيراً
إنَّ السلامة قد تَبِين ورُبَّما ... كان السرورُ بما كَرِهْتَ جديراً

انقضَت وزارة أبي سلمة .

اختلفوا فيمن وَزَرَ للسفاح بعده فقيل أبو الجهم وقيل عبدُ الرحمن ، فأمَّا أبو الجهم فوَزَر للسفاح مدة ، فلما أفْضَت الخلافة إلى المنصور كان في نفسِه منهُ أمورٌ فسمَّه في سَوِيق اللَّوْز ، فلما أحسَّ بالسُّم قام ليذهب ، فقال له المنصور : إلى أين ؟ قال : إلى حيثُ بَعَثْتَني يا أمير المؤمنين .

وأما الصُولي فقال : إن السفاح استوزر بعد أبي سلمةَ خالدَ بن بَرْمَك .

﴿ ذكر وزارة خالد بن برمك وشيء من سيرته ﴾

هذا خالد هو جدُّ البرامكة ، وفى تلك الأيام نبغت الدولة البرمكية وامتدت إلى أن انقَضَت فى أيام الرشيد .

وكان خالد بنُ برمك من رجال الدولة العباسية فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يَقِظاً . استوزره السفاح وخفَّ على قلبه ، وكان يُسمَّى وزيراً ، وقيل إنَّ كلَّ من استُوزِرَ بعد أبى سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً ، تطيراً مما جرى على أبى سلمة ، ولقولِ مَن قال : (كامل)

إنَّ الوزيرَ وزيرَ آل محمد   أوْدَى فمن يَشْنَاك كان وزيراً

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً

كان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء . قيل إن السفاح قال له يوماً : يا خالدُ ما رضيتَ حتى استخدَمْتَنى ! ففزع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك ؟ فضحك وقال : إن رَيْطَةَ ابنتى تنام مع ابنتك فى مكان واحد ، فأقوم بالليل فأجِدُهما قد سَرِحَ الغطاء عنهما فأردُّه عليهما ، فقبَّل خالد يده وقال : مولًى يكتسب الأجرَ فى عبدِه وأَمَته .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك ، ومدَحه الشعراء ، وانْتَجعه الناس ، وكان الوافدون قبل ذلك يُسَمَّوْن سُؤَّالاً ، فقال خالد إنى استقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء ، وفيهم الأشراف والأكابر ، فسمَّاهم الزوَّار ، وكان خالد أولَ من سماهم بذلك ، فقال له بعضهم : والله ما ندرى أى أياديك عندنا أجَلُّ ، أَصلتُنا أم تسميتُنا ؟ وقيل إن أولَ مَن فعَل ذلك المُسَاور بنُ النعمان فى دولة بنى أمية

ولما بنى المنصور مدينة بَغداد عَظمت النفقة عليه ، فأشار عليهِ أبو أيوب المورياني بهدم إيوان كِسرَى واستعمال انقاضه ، فاستشار المنصورُ خالدَ بنَ برمك

فى ذلك فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فانه آيةُ الإسلام ، فاذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يُزيله إلاّ أمر سماوى ، وهو مع ذلك مُصَلّى علىّ بنِ أبى طالب (عليهِ السلام) ، والمؤُنةُ فى نقضه أكثرُ من نفعه ، فقال له المنصور أبيت يا خالد إلاّ ميلاً إلى العجمية ! ثم أمر المنصور بهدمه فهدمت منهُ ثُلْمة ، فبلغت النفقةُ عليها أكثرَ مما حُصّل منها ، فأمسك المنصورُ عن هَدْمه وقال : يا خالد ، قد صِرْنا إلى رأيك وتركنا هدمَ الايوان ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا الآن أُشير بهدمه لئلاّ يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناهُ غيرك ، فأعرَضَ عنهُ وأمسَكَ عن هدمه .

كتب بعض الشعراء إلى خالد بن برمك فى يوم نَوْرُوز ، وقد أهدى الناس إلى خالد هدايا فيها جاماتٌ من فضة وذهب . (خفيف)

ليتَ شِعرى أَمالَنا منكِ حظٌّ يا هدايا الوزيرِ فى النَّوْروزِ
ما عَلَى خالدِ بنِ برمكَ فى الجوُ دِ نوالٌ يُنيلُهُ بعزيز
ليتَ لى جامَ فضةٍ من هدايا هُ سِوَى ما بهِ الأميرُ مجيزى

فأمر له بجميع ما كان حاضراً بين يديه من الجاماتِ والأوانى الفضية والذهبية ، فبلغت مالاً جليلاً .

ولما تولّى المنصور الخلافة أقرّه عَلَى وزارته وأكرَمَه واستشاره .

انقضت وزارة وزراء السفاح ، وبانقضائها انقضى الكلام عَلَى دولته

﴿ ثم ملك بعده أخوه أبو جعفر المنصور ﴾

بويع فى سنة مائةٍ وستٍّ وثلاثين .

ذكرُ شىء من سيرته وما وقع فى أيامهِ من الحوادث والوقائع :

كان المنصور من عظماء الملوك وحُزَمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوى الأراء

الصائبة منهم والتدبيرات السديدة ، وقوراً شديد الوقار حسَنَ الخُلُق فى الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبَث أو مُزاح ، فاذا لَبِس ثيابَه وخرج إلى المجلس العام تغيَّر لونه واحمرَّت عيناه وانقلبت جميع أوصافه ؛ قال يوماً لبَنِيهِ : يا بَنِيَّ إذا رأيتمونى قد لبِسْتُ ثيابى وخرجتُ إلى المجالس فلا يَدْنُوَنَّ أحدٌ منى مخافةَ أن أعُرَّه بشىء ؛ قالوا وكان المنصور يَلبَس الخَشِن وربما رَقعَ قميصه ، وقيل ذلك لجعفر بنِ محمد الصادق (عليهما السلام) فقال : الحمد لله الذى ابتلاه بفقر نفسه فى مُلْكه ، قالوا ولم يكن يُرَى فى دار المنصور لهوٌ ولَعِب أو ما يشبه اللهوَ واللعب .

حدَّثَ بعضُ مواليه قال : كنت مرة واقفاً عَلَى رأسِهِ فسمع صوتاً عالياً ، فقال انظر ما هذا الصوتُ ، قال : فنظرت فاذا هو بعض خدمه يلعب بالطنْبُور وحوله جماعة من جواريه يضحكن منهُ ، قال فأخبرته الخبر ، فتنمرَّ وقال : وأىُّ شىء يكون الطنبور ؟ قال : فوصفتُه له ، فقال : وأنت ما يدريك بالطنبور ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، رأيته بخُراسان ، فقام المنصور حتى جاء إلى الخادم ، فلما بَصُر بِهِ الجوارى تفرّقْن ، فأمر فضُرِب رأسُ الخادم بالطُنبور حتى تكسَّر الطُنبور ، ثم أخرجه فباعه .

وكان المنصور من أشدِّ الناس شغفاً بابنهِ المهدىِّ ، فكان إذا جنى أحداً جنايةً أو أخذ من أحد مالاً جعله فى بيت المال مفرداً وكتب عليهِ اسم صاحبه ، فلما أدركتهُ الوفاة قال لابنهِ المهدى : يا بنىَّ إنى قد أفردت كلَّ شىء أخذتَه من الناس عَلَى وجه الجناية والمصادرَة وكتبت عليهِ أسماء أصحابه ، فاذا وَليتَ أنت فأعده عَلَى أربابه ليدعوَ لك الناس ويحبوك .

قال يزيد بنُ عمر بن هُبَيْرَةَ ما رأيت رجلًا فى حرب أو سلم أمكرَ ولا أنكرَ

ولا أشدَّ تيقظاً من المنصور، لقد حاصرنى تسعةَ شهور ومعى فُرسانُ العرب فجهَدْنا كلَّ الجهْد حتى ننالَ من عسكره شيئاً فما قدَرْنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه، ولقد حصَرَنى وما فى رأسى شعرةٌ بيضاء ثم انقضى ذلك وما فى رأسى شعرةٌ سوداء؟

واعْلَمْ أن المنصور هو الذى أصَّل الدولة وضَبَط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس واخترع أشياء. فمن جملة ما اخترع فرَسُ النوبة، ولم يكن الملوك قبله يعرفون ذلك، وسبب ذلك يأتى فيما بعد؛ ومن جملة ما اخترع عملُ الخيش الكتَّان فى الصيف، ولم يكن الناس قبله يعرفون ذلك، وكان الأكاسرة يُطيِّنون كلَّ يوم من أيام الصيف بيتاً يسكنونه، ثم فى الغد يُطيِّن بيت آخر.

وكان المنصور مُبخَّلاً يُضْرَب بشحِّهِ الأمثال، وقيل كان كريماً، وإنهُ لما حجَّ أفْضَلَ علَى أهل الحجاز فكانوا يُسمُّون عامَه عامَ الخِصْب، والصحيح أنهُ كان رجلاً حازمًا يُعطِى فى موضع العطاء ويمنع فى موضع المنع، وكان المنعُ عليه أغلبَ.

وجرى فى أيامه شىء طريف، وهو أن قوماً من أهل خراسان يقال لهم الرَّاوَنْدِية كانوا يقولون بتناسُخ الأرواح، ويزعمون أن رُوح آدم انتقلت إلى فلان: رجل من كبارهم، وأن ربهم الذى يُطْعِمهم ويُسقيهم هو المنصور، وأن جبرائيل هو فلان عن رجل آخر، فلما ظهروا أتوْا قصرَ المنصور فطافوا حوله وقالوا هذا قصر ربنا، فأخذ المنصور رؤساءهم فحبَس منهم مائتى رجل، فغضِب الباقون واجتمعوا وفتَحُوا السجون وأخرجوا أصحابهم منهـا وقصدوا المنصورَ وحاربوه، فخرج المنصور إليهم ماشياً ولم يكن فى بابه فى ذلك الوقت دابّة، فصار بعد ذلك اليوم تُرْبَط له دابةٌ فى باب القصر لا تزال واقفة، وصارت تلك سُنَّة للخلفاء بعده وللملوك، فلما خرج المنصور أُتِىَ بدابة فركبها وهو يريدهم

حتى تكاثروا عليه وكادوا يقتلونهُ ، وجاء مَعْنُ بنُ زائدة وكان مستخفياً من المنصور ، جاء متلثّماً ووقف بين يَدَى المنصورِ ، والمنصورُ لا يعرفهُ ، فقاتل بين يديه قتالاً شديداً ، وأبلى بلاءً حسناً . وكان المنصور راكباً عَلَى بغلة ولجامُها بيد حاجبه الربيع ، فأتى معنٌ وقال : تنحّ ! فأنا أحق منك بهذا اللجام فى هذا الوقت ، فقال المنصور : صَدَق ، ادفع اللجام إليه ، فلم يَزَلْ يقاتلُ حتى انكشفت الحال وظفِر بالرّاوندية ، فقال له المنصور : من أنت ؟ قال : طَلِبَتُكَ يا أميرَ المؤمنين ، معنُ بنُ زائدة ، فقال : قد آمنك الله عَلَى نفسِك وأهلِك ومالِك ، ومثلك يُصطنع ، وأحسن إليه وولّاه اليمن . والمنصور هو الذى بنى مدينةَ بَغداد .

﴿ شرح كيفية الحال فى بناء بغداد ﴾

كان المنصور قد بَنَى فى أوائل دولتهم مدينة بنواحى الكوفة وسماها الهاشمية ، ووقعت وَقْعة الرَّاوندية فيها ، فكره سكناها لذلك ولمجاورة أهل الكوفة ، فإنه كان لا يأمنهم عَلَى نفْسه ، وكانوا قد أفسدوا جنده ، فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكُنه ويبنى فيه مدينة له ولعياله ولأهله ولجنده ، فانحدر إلى جَرْجَرايا وأصْعَد إلى الموصِل ، ثم أرسلَ جماعة من الحكماء ذوى اللب والعقل وأمرهم بارتياد موضِع ، فاختاروا له مدينته التى تسمى مدينةَ المنصور . وهى بالجانب الغربى قريبة من مشهد موسى والجواد (عليهما السلام) فحضر إلى هناك واعتبر المكان ليلاً ونهاراً فاستطابه وبنى به المدينة .

ومن طريف ما اتفق فى ذلك أن راهباً من رهبان الدير المعروف الآن بدير الروم سأل بعض أصحاب المنصور : من يريد أن يبنى فى هذا الموضع مدينة ؟ فقال له ذلك الرجل : أميرُ المؤمنين المنصورُ خليفةُ الناس ؛ قال : ما اسمه ؟ قال : عبد الله ،

قال : فهل له اسمٌ غيرُ هذا ؟ قال : اللهم لا ، إلاّ أن كُنيتَه أبو جعفر ولقبَه المنصورُ ، قال الراهب : فاذهب إليه وقل له لا يتعب نفسه فى بناء هذه المدينة ، فانا نجد فى كتبنا أن رجلاً اسمهُ مقلاص يبنى هاهنا مدينة ، ويكون لها شأنٌ من الشأن ، وأن غيرَه لا يتمكن من ذلك ، فجاء ذلك الرجل إلى المنصور وأخبره بما قال الراهب ، فنزل المنصور عن دابته وسجد طويلاً ثم قال : أما والله كان اسمى مقلاصاً وكان هذا اللقب قد غلب علىّ ثم ذهب عنى ، وذاك أن لصاً كان فى صباى يُسمَّى مقلاصاً وكان تضرَب به الأمثال ، وكانت لنا عجوز تربينى ، فاتفق أن صبيان المكتب جاءوا يوماً إلىّ وقالوا لى نحن اليومَ أضيافك ، ولم يكن معى ما انفقُه عليهم ، وكان للعجوز غزْلٌ فأخذته وبعته بما أنفقته عليهم ، فلما علِمَتْ أنى سرقتُ غزْلَها سمّتنى مقلاصاً ، وغلب هذا اللقب علىّ ثم ذهب عنى ، والآن عرَفت أنى أبنى هذه المدينة .

ونبهه بعض عقلاء النصارى على فضيلة مكانها فقال : يا أمير المؤمنين تكون على الصَّرَاةِ بين دِجلة مع الفرات ، فإذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادقَ لمدينتك ، ثم إن المِيرَة تأتيك فى دجلة من ديار بكر تارة ومن البحر والهند والصين والبصرة ، وفى الفرات من الرّقه والشأم ، وتجيئك الميرة أيضاً من خراسانَ وبلادِ العجم فى شطّ تامرّا . وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصِل عدوّك إليك إلاّ على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعتَ الجسر أو أخربت القنطرة لم يصل إليك عدوّك ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل ، فازداد المنصور جداً وحرصاً على بنائها ، وكاتبَ الأطراف بإنفاذ الصُّناع والفَعَلة ، وأمر باختيار قوم من ذوى العدالة والعقل والعلم والأمانة والمعرفة بالهندسة ليتولوْا قسمةَ المدينة وعملها ، وشرَع فيها فى سنة خمس وأربعين ومائة .

وكان أبو حنيفة (رضى الله عنه) صاحبَ المذهب يعُدّ اللبِن والآجُرّ ، وهو

الذى اخترع عَدَّهُ بالقصَب اختصارًا ، وجعل المنصورُ عرضَ السور من أساسه خمسين ذراعًا ومن أعلاه عشرين ذراعًا ، ووضع بيده أول لَبِنة وقال : بسم الله والحمد لله ، الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا ، فابتدأ بها فى سنة خمسٍ وأربعين ومائةٍ ، وتممها فى سنة ست وأربعين ومائة ، وجعلها مدوَّرة ، وجعل قصره فى وسطها لئلّا يكون أحد أقربَ إليه من الآخر ، وبلغ الخَرْج عليها أربعةَ ألف ألفٍ وثمانمائةٍ وثلاثةً وثلاثين درهمًا ، ولما فرَغتْ حاسب القواد بما كان حُوِّل عليهم لعمارتها فألزمهم بالبواقى حتى استوفى من بعضهم ما اقتضاه الحسابُ خمسة عشر درهمًا .

أسماؤها : يقال بَغْدَادُ ، وكان هناك موضعٌ يسمى بغدادَ فسميت المدينة باسمه . ويقال بغداذُ بالذال المعجمة . ويقال بغدانُ بالنون . ويقال الزَّوْرَاء وكان موضعها يسمى الزوراء قديمًا ، وقيل لأن قبلتها غيرُ مستقيمة ، يحتاج المصلّى فى مسجدها الجامعِ أن ينحرف إلى جهة اليسار قليلاً . ويقال مدينة المنصور . ويقال دارُ السلام . وقيل إنها مدينةٌ مباركة مسعودة ، لم يمت فيها خليفةٌ قطُّ فمدينة المنصور هى بغداد القديمة ، وهذه بغداد التى هى بالجانب الشرقى استجَدَّتْ بعد ذلك .

وهو الذى فعل ببنى الحسن ما فعل ، أخذ مشايخ السادات منهم ، وهم عبدالله المحضُ بنُ الحسن بنِ الحسن بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليهم السلام) وكان شيخَ الطالبيين فى عصره وبنيه وإخوته وبنى إخوته ساداتِ بنى الحسن (عليهم السلام) فحبسهم عنده وماتوا فى حبسه .

رُوِى أنه خرجَ حاجِبُه فقال : من كان على الباب من بنى الحسين فليدخل ، فدخل مشايخ بنى الحسين (عليهم السلام) ثم خرج فقال : من كان بالباب من بنى الحسن فليدخل ، فدخل مشايخ بنى الحسن (عليه السلام) فعدل بهم إلى

مقصورة ، ثم أدخل الحدّادين من باب آخر فقيّدهم وحملهم إلى العراق فحبسهم حتى ماتوا فى حبسه بالكوفة (لا جزاه الله خيرًا عن فعله) .

ومن طريف ما وَقع فى ذلك أن رجلاً من بنى الحسن (عليه السلام) جاء حتى وقف على المنصور فقال : ما جاء بك ؟ قال جئت حتى تحبسنى عند أهلى فانى لا أريد الدنيا بعدهم ، فحبسه معهم . وكان ذلك الرجل علىَّ بنَ حسن بنِ حسن ابنِ الحسن بنِ علىّ بنِ أبى طالب . وكان منهم محمد بنُ إبراهيم بنِ الحسن ابنِ الحسن بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليهم السلام) ، وكان من أحسنَ الناس صورة ، وكان يسمى الديباجَ الأصفر لحسنه وجماله ، فأحضره المنصور وقال له : أنت الديباج الأصفر ؟ قال كذا يقولون ، قال لأقتلنك قِتلة لم أقتلها أحداً ، ثم أمر به فبنى عليه أسطوانة وهو حى ، فمات فيها .

﴿ ذكر السبب فى فعل المنصور ما فعل ببنى الحسن عليهم السلام ﴾

كان بنو هاشمٍ الطالِبيُّون والعباسيون قد اجتمعوا فى ذيل دولة بنى أمية وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بنى أمية من الاضطراب ، وميلَ الناس اليهم ومحبَّتهم لأن تكون لهم دعوة ، واتفقوا على أن يدْعوا الناس سراً ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمد بنِ عبد الله بنِ الحسن بنِ علىّ بن أبى طالب (عليهم السلام) وكان محمد من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً ، وكان هذا المجلس قد حضرَه أعيان بنى هاشم عَلَويِّهم وعباسيهم ، فحضره من أعيان الطالبيين الصادقُ جعفرُ بنُ محمد (عليهما السلام) وعبد الله بنُ الحسن بن الحسن بن علىّ ابنِ أبى طالب وابناه محمد النفس الزكية وابراهيم قتيل باخَمْرَى وجماعة من الطالبيين ، ومن أعيان العباسيين السفاحُ والمنصور وغيرُهما من آل العباس ،

فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلاّ الامامَ جعفر بنَ محمد الصادق فانه قال لأبيه عبد الله المحض إن ابنك لا ينالها ، يعنى الخلافة ، ولن ينالَها إلاّ صاحبُ القَباء الأصفر ، يعنى المنصور ، وكان على المنصور حينئذٍ قَباء أصفر ، قال المنصورُ فرتّبْتُ العمال فى نفسى من تلك الساعة ، ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه ، ثم ضرب الدهر ضربْبَه ، وانتقل الملك إلى بنى العباس كما تقدم شرحه ، ثم انتقل من السفاح إلى المنصور ، فلم يكن له همّةٌ سوى طلَبِ النفسِ الزكية ليقتله أو ليخلعه ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إلى النفس الزكية ، وكانوا يعتقدون فيه الفضلَ والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور من أبيه عبدِ الله المحضِ ، وكان عبدُ الله المحضُ من رجال بنى هاشم وساداتهم ، فألزمه المنصور باحضار ابنيه محمدِ النفسِ الزكية وإبراهيم ، فقال : لا عِلْمَ لى بهما ، وكانا قد تغيبا خوفاً منه ، فلما طوّل القولَ لأبيهما عبدِ الله قال : كم تطوّل ؟ والله لو كانا تحت قدمىّ لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ، آتيك بولدىّ لتقتلهما ! فقَبض عليه وعلى أهله من بنى الحسن وكان من أمرهم ما تقدم شرحه (رضى الله عنهم وسلم عليهم) .

﴿ شرح خروج النفس الزكية ﴾

هو محمد بنُ عبد الله المحضِ بنِ الحسن بنِ الحسن بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليهم السلام) ، كان النفس الزكية من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً ودِيناً وعلماً وشجاعة وفصاحة ورياسة وكرامة ونبلاً ، وكان فى ابتداء الأمر قد شيِّع بين الناس أنه المهدى الذى بُشّر به ، وأثبت أبوه هذا فى نفوسِ طوائفَ من الناس ، وكان يُروى أن الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) قال : « لو بقى من الدنيا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يُبعث فيه مَهْدِيُّنا أو قائمُنا ، اسمهُ كاسمى

واسمُ أبيه كاسْم أبى » فأما الأمامية فيرْوُون هذا الحديث خالياً من « واسمُ أبيه كاسم أبى » .

فكان عبدُ الله المحْض يقول للناس عن ابنه محمدٍ : هـذا هو المهدى الذى بشّر به ، هذا محمد بنُ عبد الله ، ثم ألقى الله محبتهُ على الناس فمالوا إليهِ كافة ، ثم عَضَد ذلك أن أشراف بنى هاشم بايعوه ورشحوه للأمر فقدموه على نفوسهم ، فزادت رغبته فى طلب الأمر ، وزادت رغبة الناس فيه ، وما زال متغربا منذ أفضت الدولة إلى بنى العباس خوفاً منهم على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده ولقومه ظَهَر بالمدينة وأظهر أمره وتَبعه أعيان المدينة ، ولم يتخلف عنه إلاّ نفرٌ يسير ، ثم غلَب على المدينة وعزَل عنها أميرَها من قِبَل المنصور ، ورتّب عليها عاملاً وقاضياً وكسرَ أبواب السجون وأخرج مَنْ بها واستولى على المدينة ، ومنذُ خرج محمد بن عبد الله وفَعَل ما فعل بالمدينة توجّه رجل يقال له أوْسٌ العامرىَ من المدينة إلى المنصور فى تسعة أيام ، وقدِمَ ليلًا ، فوقَف على أبواب المدينة فصاح حتى علموا به فأدخلوه ، فقال الربيع الحاجب : ما حاجتُك فى هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم ؟ قال لا بد لى منه ، فدخل الربيع وأخبر المنصورَ خبرَه وأدخله إليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة وفَعَل وصنَع ، قال أَنت رأيتَه ؟ قال نعم وعاينته على منبر رسول الله (صلوات الله عليه وسلامه) وخاطبته ، فأدخله المنصور بيتاً ، ثم تواتَرت الأخبار عليه بذلك فأخرجه . وقال له : سوف أفعل معك وأصنع واغْنِيك . فى كم ليلة وصلتَ من المدينة ؟ قال فى تسع ليال ، فأعطاه تسعة آلاف درهم . ثم قام المنصور وقعد وتراخت المدة حتى تكاتبا وتراسلا ، فكتب كل واحد منهما إلى صاحبه كتاباً نادراً معدوداً من محاسن الكتب ، احتج فيه وذهب فى الاحتجاج كلَّ مذهب ، وفى آخر الأمر نَدَب ابنَ أخيه

عيسى بنَ موسى لقتاله ، فتوجه إليه عيسى بنُ موسى فى عسكر كثيف فالتَقَوْا فى موضع قريب من المدينة ، فكانت الغَلَبة لعسكر المنصور ، فقُتِل محمدُ بنُ عبد الله وحُمِل رأسُه إلى المنصور ، وذلك فى سنة خمسٍ وأربعين ومائة ، ثم خرج أخوه إبراهيم بنُ عبد الله قتيل باخَمْرَىّ بالبصرة

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار ﴾

كان إبراهيم بن عبد الله فى حال تغيبه يحضُر إلى عسكر المنصور متخفياً ، وربما جلس على السِّماط ، وكان المنصور شديدَ الطلب له ، فخرج من مدينة المنصور ومضى إلى البصرة وأظهر أمرَه ودعا إلى نفسه ، فتبعه جماعة وكثرتْ جموعه ، فأرسل المنصورُ إليه بنَ أخيهِ عيسى بنَ موسى بعد رجوعهِ مِنْ قتل النفس الزكية ، فتوجه عيسى بن موسى إليه بخمسةَ عشرَ ألفَ مُقاتل فالتَقَوْا بقرية يقال لها باخَمْرَى قريبةٍ من الكوفة ، فكانت الغَلَبة لعسكر المنصور وقُتِل إبراهيم فى المعركة ، وذلك فى سنة خمس وأربعين ومائة (رحمهُ الله تعالى)

وكانت أيام المنصور ذاتَ فُتُوقٍ وأحْداث . فممن خرج عليه عمُّه عبد الله ابنُ علىّ ، وكان السفاح أرسله إلى قتال مروان الحمار كما تقدم شرحه ، ثم مات السفاح وتولى المنصور الخلافة وعبدُ الله بنُ على بالشام ، فطمِع فى الخلافة وخطَب الناسَ وقال : إن السفاح ندَب بنى العباس لقتال مروان فلم ينتدب غيرى ، وإنه قال لى : إن ظهرتَ عليه وكانت الغلبة لك فأنت ولىُّ العهد بعدى ، وشهد له جماعة بذلك ، فبايعه الناس ، ولما اتصل الخبر بالمنصور أقامه ذلك وأقعده ، فقال له أبو مسلم الخرسانىّ : إن شئتَ جمعتُ ثيابى فى مِنْطَقتى وخدمتُك ، وإن شئتَ أتيتُ خراسان ، وأمددتك بالجنود ، وإن شئتَ سِرتُ إلى حرب عبد الله بن علىّ ، فأمره بالمسير إلى حرب عبد الله ، فسار أبو مسلم بعسكر كثيف فتطاول الأمَدُ

بينهما شهوراً كانت فى آخرها الغلبةُ لعسكر أبى مسلم فهرب عبدُ الله بنُ علىّ إلى البَصرة ونزل على أخيه سليمان بنِ علىّ بنِ عبد الله بن عباس ، فشفع سليمان فيه إلى المنصور وطلب له الأمان فآمنه المنصور وكتب له كتاباً بليغاً التزم فيه بكل شىء ، فلما جاء إليه حبسه ومات فى حبسه ، فقيل إنه بنى له بيتاً وجعل أساساته ملحاً ثم أجرى الماء فيهِ فسقط البيت عليهِ فمات . والمنصور هو الذى قتل أبا مسلم الخرسانى

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان فى نفس المنصور قديماً حَزازات من أبى مسلم ، وكان بينهما تباغض ، وقد كان المنصور أشار على أخيه السفاح بقتله فامتنع السفاح وقال : كيف يكون ذلك مع حسن بلائهِ فى دولتنا ؟ فلما وَلِىَ المنصور الخلافةَ أرسل أبا مسلم إلى الشأم لحرب عمه عبد الله بن علىّ بن العباس كما تقدم شرحه ، فلما ظفِر أبو مسلم وغنِم جميعَ ما كان فى عسكر عبد الله بن علىّ وانهزم عبد الله إلى البصرة ، أرسل المنصورُ بعضَ خَدَمِه ليحتاط عَلَى ما فى العسكر من الأموال ، فغضِب أبو مسلم وقال : أمينٌ عَلَى الدماء خائن فى الأموال ! وشتَم المنصور ، وكتب بعضُ أصحاب الأخبار بذلك إلى المنصور ، وعزم أبو مسلم عَلَى الخلاف وأن يتوجه إلى خراسان ولا يحضُر عند المنصور ، نخاف المنصور أن يتوجه أبو مسلم إلى خراسان بهذه الصفة فتَفْسُدَ عليهِ الأمور هناك .

وكان أبو مسلم رجلاً مَهيباً داهِيةً شجاعاً لبيباً جريئاً عَلَى الأمور فَطِناً عالما ، قد سمع الحديث وعَلِم من كل شىء ، فكتب إليه المنصور يطيّب نفسَه ويُسَكّنُه وَيَعِدُه الجميلَ ، ويستدعى منه الحضور ، فأجاب بأنى عَلَى الطاعة وأنى متوجه إلى خراسان ، فان أصلحتَ نفسك كنتُ سامعاً مطيعاً ، وإن أبيتَ إلا أن

تعطىَ نفسك سؤلها كنتُ قد نظرتُ لنفسى بالحال التى تقارنها السلامة !
فاشتد خوف المنصور منهُ وحَنَقُه عليهِ وكتب إليهِ كتاباً معناه أنك لست فى نظرنا بهذه الصفة التى قد وسمتَ بها نفسك ، وإنّ حُسْنَ بلائك فى دولتنا يُغنيك عن هذا القول ، واستدعى منهُ الحضور ، وقال لوجوه بنى هاشم : اكتبوا أنتم أيضاً إليهِ ، فكتبوا إليهِ يقبحّون عليهِ خلافَ المنصور ومشاققتهُ ، ويحسّنون له الحضور عنده والاعتذارَ إليهِ ، وأرسل المنصور الكتبَ على يد رجل عاقل من أصحابه ، وقال له امض إليهِ وحدّثه ألينَ حديث تحدّثهُ أحداً ، فان رجَع فارجِع بهِ حتى تقْدِم به علىّ ، وإِن أصرَّ على المشاققة وصمّم على التوجه وأيسْتَ منهُ ولم يبق لك حيلة ، فقل له يقول لك فلان : لستُ من العباس وبرئت من محمد إن مضيْتَ على هذه الحال ، ولم تَعْدُ أن يتولى حربَك غيرى ، وعلىّ كذا وكذا إن لم أتولَّ أنا ذلك بنفسى . فمضى الرسول إليه وناوله الكتب فقرأها والتفت إلى صديق له يقال له مالك بن الهَيْثَم وقال له : ما الرأى ؟ قال الرأى ألاّ ترجع إليهِ فانك إن رجَعت إليهِ قتلك ، وإن مضيت على طريقك حتى تصل إلى الرَّىّ وهم جندُك فتقيم وتنظر فى أمرك ، فان حدث لك حادث كانت خراسان من ورائك ، فعزم أبو مسلم على ذلك ، وقال للرسول : قل لصاحبك : إنهُ ليس من رأيى الحضور عندك ، وأنا متوجّهٌ إلى خراسان ، فقال له الرسول يا أبا مسلم ، أنت ما زلتَ أمينَ آل محمد ، فأَنشُدُك الله أن تَسِم نفسك بِسِمة العصيان والشقاق ، والرأىُ أن تحضُر عند أمير المؤمنين وتعتذر إليه فلن ترى عنده إلا ما تحب ، فقال له أبو مسلم : متى كنتَ تخاطبنى بمثل هذا الخطاب ؟ فقال الرجل : سبحان الله ، أنت دعوتنا إلى ولاية هؤلاء القوم ونصرِهم ، وقلت لنا مَن خالفَهم فاقتلوه ، فلما دخلنا معك فيما ندبتنا إليه رجَعت عنه وأنكرته علينا ! فقال أبو مسلم

هو ما قلتُ لك ، ولستُ أرجع ، فقال له : فليس عندك غيرُ هذا ؟ قال : نعم ، نخلا به وأبلغه ما قال المنصور ، فوجَم وأطرق ساعة ثم قال : ارجعُ وأعتذرُ إليهِ ، ورجعَ ، ثم سلّم عسكره إلى بعض أصحابه وقال له : إن جاءك كتابى وهو مختوم بنصف خاتمى فهو كتابى ، وإن كان مختوماً بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمى ، وأوصاه بما أراد ، ثم سار إلى المنصور فلقِيَه بالمدائن ، فلما علم المنصور بوصوله أمر الناس جميعاً بتلقّيه ، فلما دخل عليه قبّل يده فأدناه وأكرمه ، ثم أمره بأن يعود إلى خَيْمته ويستريح ويدخل الحمّام ويعودَ من الغد . فمضى ، فلما أصبح أتاه رسول المنصور يستدعيه ، وقد أعدّ المنصور جماعة من أصحابه خلف الستور بأيديهم السلاح ، فأوصاهم أنه إذا ضرب باحدى يديه على الأخرى يخرجون فيقتلون أبا مسلم ، فلما دخل أبو مسلم عليه قال له أخبِرْنى عن سيفين وجدتهما فى عسكر عبد الله بن علىّ ، فقال أبو مسلم : هذا أحدهما ، وكان فى يده سيف ، فأخذه المنصور ووضعه تحت مُصَلّاهُ ، ثم شرع فى توبيخه وتقريعه على ذنبٍ ذنب ، وأبو مسلم يعتذرُ عن كل واحد بعذر ، فعدّد عليه عدة ذنوب ، فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ، مثلى لا يقال له هذا ، ولا تعدّد عليه مثلُ هذه الذنوب بعد ما فعلت ، فاغتاظ المنصور وقال : أنت فعلت ! والله لو كانت مكانك أمةٌ سوداء لفعَلَتْ ما فعَلْتَ ، وهل نلتَ ما نلتَ إلاّ بنا وبدولتنا ؟ فقال أبو مسلم : دع هذا فقد أصبحتُ لا أخشى غيرَ الله ، فضرب المنصور بيده على الأخرى نخرج أولئك النفرُ وخبطوه بالسيوف فصاح : استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك ، فقال المنصور : وأىُّ عدوّ لى أعدَى منك ؟ ثم أمر به فلُفَّ فى بساط ، ودخل عيسى بن موسى فقال : أين أبو مسلم يا أمير المؤمنين ؟ فقال المنصور : هو ذاك فى البساط ، فقال : قتلتَه ؟ قال : نعم ، قال « إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجِعُونَ » بعد بلائه

وفِعله وأمانهِ ! وكان المنصور قد آمنه وكفَل عيسى بن موسى على ذلك ، فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، والله ليس لك على وجه الأرض عدوّ أعدى منه . وهل كان لكم مُلْك فى حياته ؟ ثم أمر المنصور بمال لجنده فتفرّقوا ، وتصرف المنصور فى خراسان ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين ومائة

وفى عَقِب قَتْل أبى مسلم خرج رجل اسمه سُنْباذ بخراسان يطلبُ بثأر أبى مسلم الخراسانى

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك على سبيل الاختصار ﴾

كان هذا سُنْباذ رجلاً مجوسياً من بعض قرى نَيْسَابور ، وكان من أصحاب أبى مسلم وصنائعه ، فظهَر غضِباً لقتل أبى مسلم ، وكثُر أشياعه ، وأطاعه أكثرُ أهل الجبال ، وغلَب على كثير من بلاد خراسان ، فلما بلغ المنصورَ خبرُه أرسل إليه عشرة آلاف فارس ، فالتقوا بين همذان والرّىّ ، وكان هذا سنباذُ قد أفسد فى البلاد التى غلب عليها فساداً كثيراً وسبَى الذرارىّ ، وأظهر أنه يريد أن يمضىَ إلى الحجاز ويهدمَ الكعبة ، فلما التقى هو وعسكرُ المنصور كان سنباذ قد أخذ معه عِدَّة من النساء المسلمات اللواتى قد سباهنّ وهنّ على جِمال ، فأمر سُنْباذ باخراج النساء المَسْبِيّات قدّام عسكره ، فخرج النساء حواسرَ على الجمال ، وصِحْن صيحة واحدة : وا محمداه ! فنفرَت الجمال وكرّت راجعة على عسكر سُنْباذ ففرقتهم ، فتَبِعها عسكر المنصور ودخلوا خلف الجمال فوضعوا فيهم السيوف وأبادوهم قتلاً ، وكان عدة القتلى نحواً من ستين الفاً ، وقد دَلَّ الاستقراء على أن من اخترع دولة وأحدثها لم يستمتع بها فى أغلب الأحوال . قال (صلوات الله عليه) لا تتمنَّوْا الدولَ فتُحْرَموها وكأن المخترعَ للدولة يكون عنده من الدّالة والتبسط ما تأنف

من احتماله نفوسُ الملوك ، فكلما زاد تبسُّطه زادت الأنفةَ عندهم حتى يُوقِعوا به .
والمنصور خلع بنَ أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد وجعلها فى ابنه محمد المهدى

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك ﴾

هو عيسى بنُ موسى بن محمد بنِ علىٍّ بنِ عبد الله بنِ العباس أمير الكوفة ، هو ابن أخى المنصور ، كان عيسى بن موسى قد جعله إبراهيم الأمام ولىَّ عهد بعد المنصور ، وأخذ له البَيْعة على الناس وحلّفهم له ، فلما كَبِر المهدى بن المنصور شُغِف المنصور به شَغَفاً شديداً ، فأحب أن يبايع له بالخلافة ، فخلع عيسى بن موسى وأشهد عليه بالخلع ، وبايع للمهدى وجعل عيسى بنَ موسى بعده

﴿ شرح كيفية خلع عيسى بن موسى ﴾

قد اختلف أرباب السِّيَر فى كيفية خلعه ، فقيل إن المنصور التمس منه ذلك ، وكان يُكرمه ويجلسه عن يمينه ويُجلس المهدى عن يساره ، فلما فاوضه المنصور فى خلع نفسه قال : يا أمير المؤمنين : كيف أصنع بالأيمانَ التى فى رقبتى وفى رقاب الناس بالعِتاق والطلاق والحج والصدقة ؟ ليس إلى الخلع سبيل ، فتغير المنصور عليه وباعده بعضَ المباعدة ، وصار يأذن المهدى قَبْله ويُجلسه دون المهدى ، وصار يتقصد أذاه ، فكان يكون عيسى بن موسى جالساً فيُحْفَر الحائط الذى يليه ويُنثر التراب على رأسه ، فيقول لبنيه تنحَّوْا ، ثم يقوم هو فيصلى ، والتراب يَنْتثر عليه ، ثم يؤذن له فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفُضه ، فيقول له المنصور : يا عيسى ، ما يدخل أحد علىَّ بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكلُّ هذا من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسَبُ ذلك يا أمير المؤمنين ، ولا يشكو .

وقيل : إنه سقاه بعضَ ما يُتلفه فمرض مدّة ثم أفاق منه ، فلم يزل هذا الأذى يتكرر عليه حتى خلع نفسه وبايع .

وقيل : بل وضع المنصور الجند فصاروا يشتُمون عيسى بن موسى إذا رأوْه وَينالون منه ، فلما شكا ذلك إلى المنصور قال له : يا ابن أخى ، إنى والله أخافهم عليك وعلى نفسى ، فانهم قد اشربت قلوبهم حبَّ هذا الفتى ، يعنى المهدى ، فلو قدَّمته بين يديك ! فخلع عيسى نفسه وبايع المهدى ، ولما رآه بعض أهل الكوفة وقد جعل المهدى قدّامه فى الخلافة وصار هو بعده قال : هذا الذى كان غداً فصار بعد غد . وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال مبلغُه أحدَ عشَرَ الفَ الفِ درهم . وقيل بل أرسل إليه خالد بن برمك فأخذ معه جماعة من أهل المنصور نحو ثلاثين رجلًا ومضى إلى عيسى فخاطبه فى أن يخلع نفسه فأبى ، فلما أبى قال خالد للجماعة : نشهدُ عليه أنه قد خلع نفسه ونحقنُ بذلك دمه ونسكّن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك فقامت البيّنة به ، وأنكر عيسى فلم يُلتفت إليه ، وتم خلعه وبويع للمهدى ، والله أعلَمُ أىٌّ ذلك كان . والمنصور هو الذى بنى الرُّصافة لابنه المهدى

﴿ شرح السبب فى بنائها ﴾

كان الجنـد قد شَغَبوا على المنصور ، فقال المنصور لقُثَم بنِ العباسِ بن عبيد الله بنِ العباس : ما ترى التياثَ الجند ؟ وإنى خائف أن تجتمع كلمتهم ! فقال له يا أمير المؤمنين : الرأى أن تُعَبِّرَ ابنك إلى الجانب الشرقى وتُعبِّر معه قطعة من العسكر ، وتبنى له مدينة ، فيصير هو فى مدينةٍ وعسكرٍ بالجانب الشرقى ، وأنت فى مدينةٍ وعسكرٍ بالغربى ، فان رابك حَدَثٌ من أحد الجانبين

استَعَنْتَ عليه بالجانب الآخر ، فقَبل قولَه وبنى الرُّصافة ، وتمت الرصافة ، وصار الخلفاء بعد ذلك يدفِنون موتاهم بها ، وبنَوْا بها التُّرَبَ الجليلة وحملوا إليها من الفَرْش العظيم والآلات الجليلة ما يتجاوز الحَصْر ، ووقفوا عليها من النواحى والأقرحة والعقارات جُملةً كثيرة ، وكانت فى أيامهم حَرَما إذا لجأ إليها الخائف أمِن.

ومات المنصور مُحرِماً بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة . فكتم الربيع أمره لأجل البَيْعة للمهدى ، فيقال إنه أجلسه وسَنَدَهُ وجعل على وجهه كِلَّة خفيفة يُرى وجهه منها ولا يُفهم أمره ، وأَذِن لوجوه بنى هاشم ، فلما دخلوا ووقفوا بين يديه وهم يحسبون أنه حىّ تقدم الربيع إليه كأنه يشاوره ثم عاد إليهم ، وقال : أميرُ المؤمنين يأمركم بتجديد البَيْعة للمهدى ، فبايع الناس طرًّا .

وقيل إن المهدى لما بلغه ذلك استخف بالربيع ، وقال : ما منعتك هيبةُ أمير المؤمنين من هذا الفِعل به !

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاوِر فى الأمور دائماً ، وأنما كانت هيبته تصغُرُ لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وَجَل منه وخوف ، فلا يَظهر لهم أُبَّهَةٌ ولا رَوْنَق .

﴿ وزارة أبى أيوبَ الموريانى للمنصور ﴾

مُوريان قرية من قرى الأهواز . كان المنصور قد اشتراه صبياً قبل الخلافة وثقّفه ، فاتفق أنه أرسله مرة إلى أخيه السفاح وهو خليفة ، وأرسل معه هدية ، فلما رآه السفاح أعجبته هيئته وفصاحته وصَباحته ، فقال له : يا غلام ، لمن أنت ؟ قال : لأخى أمير المؤمنين ، قال : بل أنت لى ، واحتبسه عنده ، وكتب إلى

المنصور يُعلمه أنه قد أخذه وأعتقه ، واختصَّ بالسفاح مدة خلافته ، ثم نَمَتْ حاله وتزايدت نِعَمِ الله عنده حتى قلده المنصور وزارته ، وكان لبيباً بصيراً بالأمور عاقلا فطِناً ذكياً فاضلا كريماً غزير المُرُوءة .

﴿ مَكْرُمة ﴾

حدَّث ابن شبْرُمة قال : زوَّجتُ ابنى على صداق مبلغُه الفا درهم ، فجعلت أفكر فيمن أستعين به على ذلك ، فأتيتُ أبا أيوبَ المورياني وزيرَ المنصور فذكرتُ له ذلك ، فقال : قد أمرنا لك بهذا القدر ، فجزيته خيراً وقمت لأخرج ، فقال لا تعجلَنَّ ، اجلس ، ثم قال إذا دفعت المهر فما يحتاج ابنك إلى نفقة ؟ ثم قال : أعطوه ألفى درهم للنفقة ، وذهبت لأقوم ، فقال لا تعجَل ، أفلا يحتاج إلى خادم ؟ أعطوه ألفى درهم لخادم ، فما زال يأمر لى فى كل مرة بألفين ألفين حتى تكمّل ما أمر لى به خمسين ألفَ درهم .

﴿ ذكر القبض على أبى أيوب سليمان المورياني وزير المنصور ﴾

كان أبو أيوب يحب جمع المال ليتقرب به إلى المنصور إذا خافه ، فقال له المنصور يوماً : ما ترى حال صالح ابنى ليس له ضيعة ! فقال أبو أيوب : يا أمير المؤمنين ، بالأهواز مزارع عاطلة تحتاج إلى ثلاثمائة ألفِ درهم ، تُعْمَر بها ويقوم منها حاصل جيد ، فأطلقَ له ثلاثمائة ألف درهم ، وأمره بعمارتها لابنه صالح ، فأخذ أبو أيوب المال ولم يعمل فى الضيعة شيئاً ، وصار فى رأس كل سنة يحمل عشرين ألف درهم ويقول هـذه حاصل الضيعة المستجدة ، فانكتم الحـال عن المنصور مدة ، ثم إن أعداء أبى أيوب وجدوا هذا طريقاً إلى السعاية به ، فأعلموا المنصور الحال ، فانحدر بنفسه إلى هناك ، فأمر أبو أيوب أن تُبنى بيوت

على جانب الشط ويُغرسَ فيها كرْم ويُخَضَّر حواليها ، فلما فعل ذلك اجتاز المنصور بها ، فقال له أبو أيوب : هـذه هى الضيعة ، فرأى المنصور العِمارة والخضرة فكاد الأمر يشتبه عليه ، فأعلمه أعداء أبى أيوب صورةَ الحال ، فركب بنفسهِ وأخذ الأدِلّاء معهُ وطاف الضيعة فوجدها عاطلة لا عمارة فيها ، فعرف القصة وتنبه على خيانة أبى أيوب فنكبهُ وقتله وقتل أقاربه واستصفى أموالهم ، وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفى فى ذلك (خفيف)

قد وَجَدْنا الملوكَ تحسُد من أعْـطَتْه طوعاً أزمَّةَ التدبيرِ
فإذا ما رأوْا له النهىَ والأمـرَ أتوْهُ من بأسِهم بنكيرِ
شرب الكأسَ بعد حفصٍ سليما نُ ودارتْ عليه كفُّ المدير
وَنجَا خالدُ بنُ برمكَ منها إذ دَعَوْهُ من بَعْدِها بالأمير
أسْوَأ العالمين حالاً لديْهِمْ من تَسَمَّى بكاتبٍ أو وزير

﴿ وزارة الربيع بن يونس للمنصور ﴾

هو أبو الفضل الربيع بنُ يونس بنِ محمد بنِ كيسان ، هو أبو فروةَ مولى عثمانَ بنِ عفانَ ، كان يقال إن الربيع لقيطٌ ، ولذلك قال يوماً لرجل كرَّر الترحم على أبيه فى حضرة المنصور : كم تكرِّر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟ فقال له الرجل : إنك معذور فى ذلك لأنك لم تذق حلاوة الآباء . قالوا والصحيح أنه بنُ يونس ابنِ محمد بنِ أبى فروة ، وبلغنى أن علاء الدين عطا مَلكَ بنَ الْجُوَينى صاحبَ الديوان كان ينتسب إلى الفضل بن الربيع . ولقد عجبت من الصاحب علاءِ الدين مع نُبْلهِ وفضله واطلاعهِ عَلَى السِّيَرِ والتواريخ ، كيف رضى أن ينتسب إلى الفضل بن الربيع ! فإن كان قد انتحل هذا النسب ففضيحةٌ ظاهرة ، وإن كان حقاً فلقد كان العقلُ الصحيح يقتضى سَتْرَه ، فإنه نسبٌ لا يوجد أرذلُ منه .

فإن أبا فروة كان ساقطاً ، وكان عبداً للحارث حفّار القبور بمكة والحارث مولى عثمان بن عفان ، فأبو فروة عبدُ عبدِ عثمان ، وفى ذلك يقول الشاعر :

(طويل)

وإنّ وَلا كَيْسانَ للحارث الذى ولِى زمناً حفرَ القبورِ بيَثْرِبِ

وأبو فروة خرجَ على عثمانَ يومَ الدار ، وكفاه بذلك عاراً ! فانظر هل ترى نسباً أسقطَ أو أرذلَ من هذا ؟ وأعجبُ من رأى الصاحبِ علاءِ الدين فى هذا خُلُوُّ حضرتهِ ممن يعرف هذا القدرَ فينبهه عليه .

كان الربيع جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور مَهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً ، خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور المُلْك ، بصيراً بما يأتى ويذر ، محباً لفعل الخير .

رُوى أن المنصور أحضر يوماً إنساناً ذُكر له أنه وَثب على عامله ببعض النواحى ، فقال له المنصور : ويحك ! أنتَ المتوثب على فلان العامل ؟ والله لا تثرن من لحمك أكثرَ مما يبقَى منهُ على عظمك ، وكان شيخاً كبيراً فأنشد بصوت ضعيف :

(كامل)

أتروضُ عِرْسَك بعد ما هرِمَتْ ومن العَناء رياضةُ الهَرِمِ

فقال المنصور : يا ربيع ، ما يقول ؟ فقال يقول : (بسيط)

العَبْدُ عبدُكمُ والأمرُ أمركمُ فهل عذابُك عنى اليومَ مصروفُ؟

فقال : قد عفونا عنهُ ، فلينصرف . ورأى المنصور يوماً فى بستانه شجيرة من شجر الخِلاف فلم يدرِ ما هى ، فقال يا ربيعَ ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيع : إجماعٌ ووفاق ، وكره أن يقال خلاف ، فاستعقله المنصور واستحسن قوله .

ولم يزل الربيع وزيرًا للمنصور إلى أن مات المنصور وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدى على ما تقدم وصفه ، وهو آخر وزراء المنصور ، وقَتله الهادى ، وكان سبب قَتْله أنه أهدى جارية حسناء إلى المهدى بنِ المنصور ، فوهبها المهدى لابنه

موسى الهادى ، فغلب حبها عليه وأولدها أولاده ، فلما صار الهادى خليفة سعى إليه أعداء الربيع ، فناوله الهادى قدحًا فيه عسلٌ مسموم فشربه فمات ليومه ، وذلك فى سنة سبعين ومائة ، انقضت ايام المنصور ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنه محمد المهدى ﴾

هو أبو عبد الله محمد المهدى بنُ أبى جعفرٍ المنصورِ ، وقد مرّ نسبه ، بويع له بالخلافة بمكة فى سنة ثمان وخمسين ومائة .

كان المهدى شهماً فطناً كريماً شديداً على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم ، وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه فى الفتوق والحوادث والخوارج ، وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم .

رُوى عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال أدخِلو علىّ القضاة ، فلو لم يكن ردّى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى ! .

وحُدِّث عنه أنه خرج متنزهاً ومعه رجل من خواصه اسمه عمرو ، فانقطعا فى الصيد عن العسكر فجاع المهدى ، فقال هل من شىء يؤكل ؟ فقال له عمرو أرى كوخاً ، فقصدوه فاذا فيه نَبَطىّ وعنده مَبْقَلة ، فسلموا عليه فرد السلام ، فقالوا هل من طعام ؟ فقال عندى رُبيثاء ، وهو نوع من الصِّحْناء ، وعندى خبز شعير ، فقال المهدى : إن كان عندك زيت فقد أكملت الضيافة ، قال نعم وكراث ، فأتاهما بذلك فأكلا حتى شبعا ، فقال المهدى لعمرو قل فى هذا شعراً ، فقال :

(خفيف)

إن من يُطعِمُ الربيثاء بالزيـــت وخبزَ الشعير بالكرّاثِ
لجديرٌ بصفعة أو بثِنْتَيْـــن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدى بئسما قلت ، إنما كان ينبغى أن تقول :

لجدير ببَدْرة أو بثنتيـــن لحسن الصنيع أو بثلاث

قال ووافاهم العسكر والخزائن والخدم ، فأمر للنبطىّ بثلاث بِدَر وانصرف ، وفى أيامه ظهر المقنَّع بخراسان .

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك ﴾

كان هذا المقنع رجلاً أعورَ قصيرًا من أهل مَرْو ، وكان قد عمِل وجهاً من ذهب ، وركَّبه على وجهه لئلا يُرى وجهُهُ ، وادعى الإلهيّة ، وكان يقولُ : إن الله خلق آدم ؛ فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح وهكذا هلمّ جرًّا إلى أبى مسلمٍ الخراسانى ، وسمى نفسه هاشماً ، وكان يقول بالتناسخ ، وبايعه خلْق من ضُلّال الناس ، وكانوا يسجدون إلى ناحيته أين كانوا من البلاد ، وكانوا يقولون فى الحرب : يا هاشمُ أعِنّا ، واجتمع إليه خلق كثير .

فأرسل المهدى إليه جيشاً فاعتصم منهم بقلعة هناك ، وطاولوه فضجِر وضجِر أصحابه ، فطلَب أكثرُهم الأمان ، وبقِى معه نفر يسير وهو فى القلعة محاصَر ، فأضرم ناراً عظيمة ، وأحرق جميع ما بالقلعة من دابة وثوب ومتاع ، ثم جمع نساءه وأولاده وقال لأصحابه : من أحبَّ منكم الارتفاع معى إلى السماء فليُلق نفسه فى هذه النار ، ثم ألقى فيها نفسه وأولاده ونساءه خوفاً أن يُظْفَر بجثته أو بحَرَمه ، فلما احترقوا فُتحت أبواب القلعة فدخلها عسكر المهدىّ فوجدوها خالية خاوية .

ولما وَلِى المهدى الخلافة جدَّد الكلام فى خلع عيسى بنِ موسى والبيعةِ لولديه موسى الهادى وهرون الرشيد ، وقد تقدم شرح كيفية خلعه فى أيام المنصور ، وأنه قدَّم المهدىّ عليه ، فلما وَلِى المهدى أراد لبنيه ما أراد المنصور له ، فطلب من عيسى بنِ موسى أن يخلع نفسه فأبى ، فأرهبه وأرغبه حتى أجاب ، وأشهد عليه بالخلع ، وبايع لولديه الهادى والرشيد .

وكان المهدى ينظر فى الدقائق من الأمور ، وكذلك كان أبوه ، فتقدم المهدى

حين وَلِى بِرَدِّ نَسَبِ آل زياد بن أبيه إلى عُبَيدٍ الثقفى، وإسقاطهم من ديوان قريش، وبِرَدِّ نسب آل أبى بَكْرة إلى ولاء رسول الله (صلوات الله عليه وسلامه)، وكتب الكتب بذلك فاعتُمِد ما رَسَمَ به، ثم بعد ذلك ارتشى العمالُ من بنى زيادٍ وأعادوهم إلى ديوان قريش . وغزى المهدىُّ الروم عدة دَفَعَات وكانت له الغَلبة، ومات المهدى بماسَبَذان واخْتُلِفَ فى سبب موته .

فقيل أنه طَرَد ظبياً فى بعض متصيَّداته فدخل الظبى إلى بابِ خرِبةٍ، فدخل فرس المهدى خلفه فدقَّه بابُ الخربة فقطع ظهره فمات من ساعتهِ . وقيل إن بعضَ جواريه جعلت سماً فى بعض المآكل لجارية أخرى فأكل المهدى منه وهو لا يعلم فمات . وذلك فى سنة تسع وستين ومائة . وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته وعليهن المُسُوح، (رمل)

رُحْنَ فِى الوَشْىِ وأقبلــنَ عليهن المُسُوحُ
كلُّ نَطَّاحٍ من الدهْــر له يومٌ نَطُوح
لستَ بالباقى ولو عُمِّــرتَ ما عُمِّرَ نوح
فعلَى نفسِك نُحْ إنْ كُنْتَ لا بد تنوح

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

فى أيامهِ ظهرت أُبهَّة الوزارة بسبب كفاءة وزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار، فانهُ جمع له حاصل المملكة، ورتب الديوان، وقرر القواعد، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حِذقاً وعلماً وخِبرة، وهذا شرح طَرَف من حاله

﴿ وزارة أبي عبيد الله معاوية بن يسار للمهدى ﴾

هو من موالى الأشعريين ، كان كاتبَ المهدى ونائبَه قبل الخلافة ، ضمه المنصور إليه ، وكان قد عزم على أن يستوزروه لكنه آثر بهِ ابنه المهدى ، فكان غالباً على أمور المهدى لا يعصِى له قولاً ، وكان المنصور لا يزال يُوصِيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير بهِ ، فلما مات المنصور وجلس المهدى على سرير الخلافة فوض إليهِ تدبيرَ المملكة وسلم إليهِ الدواوين ، وكان مقدّماً فى صناعتهِ فاخترع أموراً : منها أنهُ نقل الخراج إلى المقاسمة ، وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقررا ولا يقاسِم ، فلما ولِى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وجعَل الخراجَ على النخل والشجر ، واستمر الحالُ فى ذلك إلى يومنا ، وصنف كتاباً فى الخراج، ذكر فيهِ أحكامَه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أولُ من صنَّف كتاباً فى الخراج ، وتبعهُ الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج ، وكان شديد التكبر والتجبر

روى أن الربيع لما قدم من مكة بعد موت المنصور ، وأخذ البيعة للمهدى حضر من ساعة وصوله إلى باب أبي عبيد الله ، فقال له ابنهُ الفضل : يا أبى نبدأ بهِ قبل أمير المؤمنين وقبل منزلنا ؟ قال : نعم يا بنىّ هو صاحبُ الرجل والغالب على أمره ، قال فوصل الربيع إلى باب أبي عبيد الله الوزير فوقف ساعة حتى خرج الحاجب ، ثم دخل فاستأذن له فأذن له ، فلما دخل عليهِ لم يقم له ، ثم سأله عن مسيره وحاله فأخبره ، وشرع الربيع يحدثهُ بما جرى فى مكة من موت المنصور واجتهاده فى أخذ البيعة للمهدى ، فسكَّتهُ وقال : قد بلغنى الخبر فلا حاجة إلى إعادتهِ ، فاغتاظ الربيع ثم قام فخرج وقال لابنهِ الفضل : علىّ كذا وكذا إن لم أبذلْ مالى وجاهى فى مكروههِ وإزالة نعمتهِ ، ومضى الربيع إلى المهدى فاستحجبهُ واختص به كما كان مع أبيهِ ، فشرع فى إفساد حال أبي عبيد الله

الوزير بكل وجه ، فلم يتفق له ذلك ، فخلا ببعض أعدائه وقال له : قد ترى ما فعل معك أبو عبيدالله ، (وكان قد أساء اليه) ، وما فعل معى أيضاً ، فهل عندك تدبير فى أمره ؟ قال الرجل : لا والله ما عندى حيلة تنفُذ عليه ، فانهُ أعف الناس يداً ولساناً ، ومذهبه مذهب مستقيم ، وحذقه فى صناعته ما عليهِ مزيد ، وعقله وكفاءته كما علمتَ ، ولكن ابنه ردىء الطريقة مذموم السيرة ، والقولُ يُسرع إليهِ . فإن تُهيّأ حيلةٌ من جهة ابنه فعسى ذلك ، فقبّل الربيعُ بين عينيه ، ولاح له وجه الحيلة عليهِ ، فسعى بابنه إلى المهدى أنواعاً من السعايات ، وأخذ يرميه بالزندقة ، وكان المهدى شديداً على أهل الإلحاد والزندقة لا يزال يتطلّع عليهم ويفتك بهم ، فلما رسخَ فى ذهن المهدى زندقةُ ابنِ الوزير استدعى به ؛ فسأله عن شىء من القرآن العزيز فلم يعرف ، فقال لأبيهِ وكان حاضرًا : ألم تخبرنى أن ابنَك يحفظ القرآن ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقنى مذ مدةٍ فنَسِيَهُ ، فقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام أبو عبيد الله فعثر ووقع وارتعد ، فقال العباس بن محمد عمُّ المهدى : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تُعفِيَ الشيخ من قتْل ولده ، ويتولى ذلك غيرُه ، فأمر المهدى بعضَ من كان حاضرًا بقتله فضُربت عنقهُ ، واستمر أبوه على حاله من الخدمة إلاّ أنه ظهر عليه الانكسار ، وتنمرَّ قلبهُ ، وتنمرَّ أيضاً قلبُ المهدى منه ، فدخل بعضَ الأيام على المهدى ليعرِض عليهِ كتباً قد وردت من بعض الأطراف ، فتقدم المهدى بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع ، فلم يعرِض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، وطلب أن يخرج الربيع ، فقال له المهدى : يا ربيع ، اخرج ، فتنحى الربيع قليلاً ، فقال المهدى : ألم آمرْك بالخروج ؟ قال يا أمير المؤمنين : كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشأم اسمهُ معاوية ، وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت

صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ فثبت هذا المعنى فى نفس المهدى إلا أنه قال : يا ربيع ، إنى أثق بأبى عبيد الله فى كل حال ، وقال لأبى عبيد الله الوزير : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر ، ثم قال بعد ذلك المهدى للربيع : إنى أستحيي من أبى عبيد الله بسبب قتل ولده فاحْجُبهُ عنى ، فحُجِب عنهُ ، وانقطع بداره ، واضمحل أمره وتهيأ للربيع ما أراده من إزالة نعمته ، ومات أبو عبيد الله معاوية بنُ يسار فى سنة سبعين ومائة .

﴿ وزارة أبى عبد الله يعقوب بن داود للمهدى ﴾

هو من الموالى . قال الصُولىّ : كان داوُد أبوه وإخوته كتّاباً لنصرِ بنِ سيّار أميرِ خراسان . كان يعقوب بن داودَ يتشيع ، وكان فى ابتداء أمره مائلاً إلى بنى عبد الله بنِ الحسن بنِ الحسن ، وجرت له خطوب فى ذلك ، ثم إن المهدى خاف من بنى الحسن أن يُحدِثوا أمرًا لا يُتدارك ، فطلب رجلاً ممن له أُنْسٍ ببنى الحسن ليستعين به على أمرهم ، فدلّه الربيع على يعقوبَ بن داود لصداقة كانت بين الربيع وبينه ، وليتفقا على إزالة دولة أبى عبيد الله معاوية الوزير ، فاستحضره المهدى وخاطبه ، فرأى أكمل الناس عقلاً وأفضلَهم سيرة فشُغف به واستخلصهُ لنفسهِ ثم استوزره وفوض الأمور إليهُ .

وقيل : إن السبب فى وزارتهِ غيرُ هذا ، وهو أن يعقوب بنَ داود قرر للربيع مائة ألف دينار إن حصلت له الوزارة ، فجعل الربيع يُثنى عليهِ فى الخلوات عند المهدى ، فطلب المهدى أن يراه ، فلما حضر بين يديه رأى أكملَ الناس خلقاً وفضلاً .

ثم قال له : يا أمير المؤمنين هاهنا أمور لا تنتهى إلى علمك ، فإن وَليْتَنِى عرَضَها عليك بذلتُ جُهدى فى نصيحتك ، فقرَّبهُ وأدناه فصار يعرِض عليهِ من المصالح والمهمات والنصائح الجليلة ما لم يكن يُعرض عليه من قبل ، فاستخصه

وكتب كتاباً بأنهُ أخوه فى الله (تعالى) ، واستوزره وفوّض إليه الأمور كلّها ، وسلم إليه الدواوين وقدمهُ على جميع الناس حتى قال بشار يهجوه :

(بسيط)

بنى أمية هبّوا طالَ نومُكُمُ إن الخليفة يعقوبُ بنُ داودِ
ضاعَتْ خلافتُكم يا قوم فالتمِسُوا خلافةَ الله بين النّاىِ والعود

وذلك لأن المهدى اشتغل باللهو واللعب وسماعِ الأغانى وفوّض الأمور إلى يعقوبَ بنِ داود ، وكان أصحاب المهدى يشربون عنده النبيذ ، وقيل ما كان هو يشرب معهم ، فنهاه يعقوب بن داود عن ذلك ووعظهُ . وقال : أَبَعْدَ الصلواتِ فى المسجدِ تفعل هذا ؟ فلم يلتفت إليه : وفى ذلك يقول الشاعر للمهدى

(طويل)

فدع عنك يعقوبَ بنَ داود جانباً وأقبل على صهباء طيبةِ النَّشْرِ

ثم إن السُّعَاة ما زالوا يسعَون بيعقوبَ بنِ داود إلى المهدى حتى نكبه وجعله فى المُطْبِق وهو حبس التجليد ، فلم يزل على ذلك مدة أيام المهدى ومدة أيام الهادى حتى أخرجه الرشيد .

﴿ شرح السبب فى القبض عليه وكيفية ما جرى ﴾

حدّث يعقوبُ بنُ داودَ قال : استدعانى المهدى يوماً فدخلت عليه وهو فى مجلس فى وسَط بستان ورءوسُ الشجر مع أرض ذلك المجلس ، وقد امتلأت رءوس الشجر من الأزهار المتنوعة ، وقد فرش المجلس بفُرُش مورّدة ، وبين يديه جارية حسناء لم أرَ أحسنَ وجهاً منها ، فقال لى : يا يعقوب ، كيف ترى هذا المجلس ؟ قلت فى غاية الحسن ، فهنّأ الله أميرَ المؤمنين ، قال فهو لك وجميع ما فيه ومائة ألف درهم وهذه الجارية ليتم سرورك ، فدعوت له ، قال : ولى إليك حاجة أريد

أن تضمن لى قضاءها ، قلت : يا أمير المؤمنين ، أنا عبدُك الطائع لجميع ما تأمُر به ، فدفع إلىَّ رجلاً علوِياً وقال : أحِبُّ أن تكفِينى أمره ، فانى خائف أن يخرج علىَّ ، قال : فقلت : السمع والطاعة ، قال : تحلف لى ؟ فحلفت له بالله أن أفعَل ما ترُيد ، ثم نقِل جميعُ ما كان فى المجلس إلى منزلى والجارية أيضاً ، فمن شدة سرورى بالجارية جعلتها فى موضع قريب من مجلسى ليس بينى وبينها سوى سِترٍ رقيق ، قال : وأدخَلْتُ العلوىَّ إلىَّ وخاطبته فرأيته أتمَّ الناسِ عقلاً ، فقال لى : يا يعقوب ، تلقى الله بدمى ، وأنا ابنُ علىّ بنِ أبى طالب وابنُ فاطمةَ (رضى الله عنها) وليس لى إليك ذنب ؟ قال : فقلت لا والله ، خذ هذا المال وانجُ بنفسك ، قال : والجارية تسمع كلَّ ذلك ، فأرْسَلَتْ إلى المهدى دسيساً أعْلَمَه بالقصة ، فارسل المهدىُّ ، وشحَن الدُّروب بالرجال ، حتى حصَّل العلوىَّ وجعله فى بيتٍ قريب من مجلسه ، ثم استدعانى فحضرت ، فقال : يا يعقوب ، ما فعلتَ بالعلوى ؟ قلت قد أراح الله منهُ أميرَ المؤمنين ، قال مات ؟ قلت نعم ، قال : بالله ؟ قلت : إى والله ، قال : فضع يدك على رأسى واحلِف به ، قال يعقوب : فوضعت يدى على رأسه وحلفت به ، فقال لبعض الخدم : أخرِج إلينا مَن فى هذا البيت ، قال : فأخرَج العلوى ، فلما رأيته امتنع الكلام علىّ وتحيَّرْت فى أمرى ، فقال المهدى : يا يعقوب قد حَلّ لى دمُك ، احملوه إلى المُطْبِق ، قال يعقوب فدُليتُ بحبل فى بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء ، وكان يأتينى فى كل يوم ما اتقوَّت به ، فمكثت مدة لا أدرى كم هى ، وذهب بصرى ، ففى بعض الأيام دُلّى لى حبل وقيل اصعد ، قد جاء الفرج ، فصعِدت وقد طال شعرى وأظافيرى ، فأُدْخِلت الحمام وأصلحوا شأنى وألبسونى ثياباً ، ثم قادونى إلى مجلس ، وقيل لى سلِّم على أمير المؤمنين ، فقلتُ السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقيل لى على أى أمراء المسلمين سلمت ؟

قلت على أمير المؤمنين المهدى ، فسمعت قائلاً من صدر المجلس يقول : رحم الله المهدى ، ثم قيل لى سلم على أمير المؤمنين ، فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقيل لى على أى أمراء المؤمنين سلمت ؟ فقلت على أمير المؤمنين الهادى ، فسمعت قائلاً يقول من صدر المجلس ، رحم الله الهادى ، ثم قيل لى سلم ، فسلمت ، فقيل لى على من سلمت ؟ قلت : على أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فقال وعليك السلام يا يعقوبُ ورحمة الله وبركاته ، أَعْزِزْ علىَّ بما نالك ، فجعلتُ المهدىَّ فى حِلٍّ ودَعوتُ للرشيد وشكَرتهُ على خلاصى ، ثم قال ما تريد يا يعقوب ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ما بقى فىّ مستمتَع ولا بلاغ ، وأريد المجاورة بمكة ، فأمر لى بما يصلحنى ، ثم توجه يعقوب إلى مكة وجاور بها ، ولم تطل أيامه حتى مات هناك سنة ست وثمانين ومائة

﴿ وزارة الفَيْضِ بن أبى صالح للمهدى ﴾

هو من أهل نَيسَابور ، وكانوا نصارى ، فانتقلوا إلى بنى العباس وأسلموا ، وَتَربّى الفَيْضُ فى الدولة العباسية وتأدب وبرَع ، وكان سخياً مفضالاً متخرّقاً فى ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير الكِبر والتِّيه ، حتى قال فيه بعض الشعراء

(طويل)

أبا جعفرٍ جئناك نسألُ نائلاً ... فأعْوزَنا من دونِ نائلِك البِشْرُ

فما بَرَقت بالوعدِ منك غمامةٌ ... يُرَجَّى بها من سَيْبِ نائلِك القَطْرُ

فلو كنتَ تُعْطِينا المُنَى وزيادةً ... لنَغَّصها منك التَّجبُّرُ والكِبْرُ

قالوا كان يحيى بنُ خالد بن برمك إذا استعظم أحدٌ كرَمه وجوده قال : لو رأيتم الفَيْضَ لصغُر عندكم أمرى ؛ وفى الفيض يقول أبو الأسودَ الحِمّانىّ الشاعر يمدحه :

(طويل)

ولائمةٍ لَامَتْكَ يا فيضُ فى النَّـدَى فقلتُ لها لن يقدحَ اللومُ فى البحرِ
أرادتْ لتَثْنِى الفيضَ عن سَنَنِ النَّدى ومَن ذا الذى يَثْنِى السحابَ عن القَطْرِ
مواقِعُ جود الفيضِ فى كلِّ بَلدةٍ مواقعُ ماء المُزْنِ فى البَـلَدِ القفْرْ
كان وفودَ الفيضِ لما تحمَّلُوا إلى الفيض وافَوْا عنده ليلةَ القدْر

قالوا كان الفيض بنُ أبى صالح متوجهاً فى بعض الأيام إلى بعض أغراضه فصادفه صديق له ، فسأله الفيض إلى أين يذهب ، فقال إن وكيل السيدة أمِّ جعفر زبيدةَ قد حبَس فلاناً على بقية ضمان مبلغُها مائةُ ألف دينار ، وفلان ، يعنى المحبوسَ ، صديقى وصديقُك أيضاً ، وأنا متوجه إلى الوكيل المذكور لأشفع فيهِ ، فهل لك أن تَصِل جَناحى وتساعدنى على هذه المكرمة ؟ فقال الفيض : إى والله ، ثم مضى معه فحضر عند وكيل أم جعفر زبيدة وشفعا فى الرجل المحبوس، فقال الوكيل : الأمرُ فى هذا إليها ، وما أستطيع أن أُفرج عنهُ إلاّ بقولها ، ولكنى أخاطبها وأحسّن لها الافراجَ عنهُ ، ثم كتب إليها شيئاً ، فخرج الجواب إنهُ لا بد من استيفاء هذا المال منه ولا سبيل إلى قبول شفاعة فى هذا الباب ، فاعتذر الوكيل إليهما وأراهما الخط ، فقال الرجل للفيض : قم حتى نَمْضِىَ فقد فعلنا ما يجب علينا ، فقال الفيض : لا والله ، ما فعلنا ما يجب علينا فكأننا ما جئنا إلى هنا إلاّ لنؤكد حبس صاحبنا ، قال الرجل فما نصنع ؟ قال الفيض حيث قد تعذّر علينا خلاصُه من هذه الجهة نؤدى عنه هذا المال من خاصنا ونخرجه أنت نِصْفُه ، وأنا نصفه ، فأجاب الرجلُ إلى ذلك ، فقالا للوكيل : كم لك عليه ؟ قال مائة ألف دينار قالا : هى علينا وهذا خطنا بها فادفع إلينا صاحبنا ، قال : هذا أيضاً لا أقدر أن أفعله حتى أعلِمَها بالحال ، قالا فأعْلِمها ، فكتب إليها الوكيل يخبرُها بما قال الفيض وبصورة الحال ، فخرج الخادم وقال : لا يكون الفيضُ أكرمَ منا ، قد وهبناه

المائة الألف ، فادفع إليهم صاحبهم ، فأخذاه وخرجا . وكان الفيض قد وُصِف للمهدى لمّا عزم على يعقوب بن داود ، فلما قبض عليه أحضر الفيضَ واستوزره وفوّض الأمور إليه . ومات المهدىّ وهو وزيره ، فلما وَلِىَ الهادى لم يستوزرْه ، وبقِىَ الفيض إلى أول أيام الرشيد ، ثم مات وذلك فى سنة ثلاث وسبعين ومائة . انقضت أيام المهدى ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده ابنه موسى الهادى ﴾

بويع له بالخلافة فى سنة تسع وستين ومائة

كان الهادى متيقظاً غيورًا كريمًا شهماً أيِّدًا شديد البطش جرىء القلب مجتمِع الحِسِّ ، ذا إقدام وعزم وحزم ، حدّث عبدُ الله بنُ مالك وكان يتولى شُرْطة المهدى قال : كان المهدى يأمرنى بضرب ندماء الهادى ومغنيه وحبسهم صيانة له عنهم ، فكنت أفعل ما يأمرنى به المهدى ، وكان الهادى يرسل إلىَّ فى التخفيف عنهم فلا أفعل ، فلما مات المهدى وولى الهادى أيقنت بالتلف ، فاستحضرنى يوماً ، فدخلت عليه وهو جالس على كرسىّ والسيف والنِّطع بين يديه ، فسلمت ، فقال : لا سلّم الله عليك ، أتذكر يوم بعثتُ إليك فى أمر الحَرّانى وضربهِ فلم تقبل قولى ؟ وكذلك فعلتَ فى فلان وفلان (وعدَّد ندماءه) فلم تلتفت إلى قولى ، قلت : نعم ، أفتأذن فى ذكر الحُجة ؟ قال : نعم ، قلت : ناشدتك الله ، لو أنك قلّدْتَنى ما قلدنى المهدى وأمرتنى بما أمر فبعث إلىَّ بعض بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله وتركت قولك ، أكان يسرك ذلك ؟ قال : لا ، قلت : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنتُ لأبيك ، فاستدنانى فقبّلت يده ، ثم أمر لى بالخِلَع ، وقال : وليْتك ما كنت تتولّاه ، فامض راشداً ، فمضيت مفكرًا فى أمرى وأمره ، وقلت : حَدَثٌ يشرب ، والقوم الذين عصيته فى أمرهم هم ندماؤه ووزراؤه وكُتّابه ، وكأنى بهم حين يغلب الشراب عليه

يَغْلِبون على رأيه وَيُحَسِّنُون له هلاكى! قال: فإنى لجالس وعندى بُنَيَّة لى، والكانون بين يدىّ، وقدّامى رُقاق وكامَخ وأنا أشطره بالكامخ وأسخّنه بالنار وآكل وأطعم الصغيرة، وإذا بوقع حوافر الخيل، فظننت أن الدنيا قد زُلْزِلت، فقلت: هذا ما كنت أخافه، وإذا الباب قد فُتح، وإذا الخدم قد دخلوا والهادى فى وسطهم على دابته، فلما رأيته وثَبْت فقبلت يده ورجله وحافر فرسه، فقال لى: يا عبد الله، إنى فكرت فى أمرك، فقلتُ ربما سَبَق إلى ذهنك أنى إذا شربت وحولى أعداؤك أزالوا حسن رأيى فيك فيقلقك ذلك، فصرت إلى منزلك لأؤنسَك وأعْلِمَك أن ما كان عندى من الحقد عليك قد زال جميعه، فهاتِ وأطعِمنى مما كنت تأكل، لتعلم أنى قد تحرَّمت بطعامك، فيزولَ خوفك، فأدنيت إليه من ذلك الرقاق والكامخ فأكل، ثم قال: هاتوا ما صحِبناه لعبد الله، فدخل أربعُمائةِ بغلٍ مُوقَرةٍ دراهمَ وغيرَها، فقال: هذه لك، فاستعن بها على أمرك، واحفظ هذه البغال عندك لعلّى أحتاج إليها لبعض أسفارى، ثم انصرف.

ومن كلامه ما قاله لإبراهيم بن مسلم بن قتيبة وقد مات له ولد فجاء الهادى يعزيه وكان عنده بمنزلة عظيمة، فقال له: « يا إبراهيم، سرَّكَ ابنُك وهو عدوٌّ وفتنة، وحزَنك وهو صلاة ورحمة؟ » فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين ما بقى منى جزء فيه حزن إلّا وقد امتلأ عزاء. فى أيامه خرج صاحب فخ وهو الحسين بنُ علىّ ابنِ الحسن بنِ الحسن بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليه السلام).

﴿ شرح كيفية الوقعة بفخ ﴾

كان الحسين بنُ علىّ من رجال بنى هاشم وسادتهم وفضلائهم، وكان قد عزَم على الخروج واتفق معه جماعة من أعيان أهل بيته، ثم وقع من عامل المدينة تهضُّمٌ لبعض آل علىّ (عليه السلام) فثار آلُ أبى طالب بسبب ذلك،

واجتمع إليهم ناس كثيرون ، وقصدوا دار الإمارة فتحَصَّن منهم عاملها ، فكسروا السجون وأخرجوا من بها ، وبويع الحسين بن علىّ (عليه السلام) ثم نَما أمرهم ، فارسِل إليهم محمد بنُ سليمان ، وقالوا سليمانُ بنُ المنصور ، فى عسكر ، فالتقوْا بموضع يقال له فخ بين مكة والمدينة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم قتل الحسين بن علىّ (رضى الله عنه) وحُمِل رأسه إلى موسى الهادى ، فلما وضع الرأس بين يديه قال لمن أحضره : كأنكم قد جئتم برأس طاغوتٍ من الطواغيت ! إنَّ أقلَّ ما أجزيكم به حرمانُكم ، ولم يُطلِق لهم شيئاً .

وكان الحسين بن علىّ (رضى الله عنه) صاحبَ فخ شجاعًا كريمًا ، قدم عَلَى المهدى فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها فى الناس ببغداد والكوفة ، وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه إلاّ فروًا ما تحته قيص ، (رضى الله عنه وسلم عليه) .

ولم تطل مدة الهادى فيقال إن أمه الخيزُران أمرت جواريها بقتله ، فجلسوا على وجهه حتى مات ، وسبب ذلك قد اختُلِف فيه ، فقيل إن الخيزران كانت متبسطة فى دولة المهدى تأمر وتنهى وتشفع وتُبرِم وتنقُض ، والمواكب تروح وتغدو إلى بابها ، فلما ولِىَ الهادى وكان شديدَ الغيْرَة كَرِه ذلك ، وقال لها : ما هذه المواكب التى يبلغنى أنها تغدو وتروح إلى بابك ؟ أما لك مِغْزَل يشغَلُك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ والله وإلاّ أنا نَفِىٌّ من قرابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى لأضربَنَّ عنقه ولأقبِضَنَّ ماله ، ثم قال لأصحابه : أيما خير ، أنا وأمى أمْ أنتم وأُمهاتُكم ؟ قالوا : بل أنت وأُمُّك ، قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمهِ فيقال فعلَتْ أمُّ فلان وصنعَتْ أمُّ فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك ، قال : فما بالكم تأتون

أمّى فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ، ثم بعث لها طعامًا مسمومًا فلم تأكل منهُ ، ثم قَتَلَتْه .

وقيل بل السبب أن الهادى عزم عَلَى خلع أخيهِ هارون الرشيد والبيعةِ لابنهِ جعفر ، فخافت الخيزران على هارون وكانت تحبه ففعلت بالهادى ما فعلت ، ومات الهادى فى سنة سبعين ومائة ، والليلةُ التى مات فيها هى ليلةٌ مات فيها خليفةٌ وجلس خليفة ووُلِد خليفة ، وقد كانوا يُحَدِّثون أنهُ سيكون ليلةٌ كذلك ، فالخليفة الذى مات فيها هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد فيها هو المأمون .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر الربيعَ بنَ يونس . وقد سبق شرح طَرَف من سيرته ونسبه . ثم استوزر بعده إبراهيمَ بنَ ذكوان الحرانىّ .

﴿ وزارة إبراهيم بن ذكوان الحرانىّ للهادى ﴾

كان إبراهيم قد اتصل بالهادى فى أيام حداثته ، كان يدخل إليهِ مع معلم كان يعلِّم الهادى ، فخفَّ إبراهيم على قلب الهادى وألِفَه وصار لا يصبر عنه ، ثم سُعِىَ بهِ إلى المهدى فكرِه لابنه صحبتَهُ فنهاه عنهُ فما انتهى ، فتهدَّده بالقتل والهادى لا يباعِدُه ، فاشتدت بهِ السّعايات إلى المهدى ، فأرسل إلى ابنه الهادى أن أرسِل إلىَّ إبراهيمَ الحرانىّ وإلاّ خلعتك من الخلافة ، فأرسله إليهِ صحبةَ بعض خدمه مُرَفِّها ، فوصل إليهِ والمهدىُّ يريد الركوب إلى الصيد ، فلما رآه قال : يا إبراهيم ، والله لأقتلنك ، والله لأقتلنك ، والله لأقتلنك ، ثم قال : احفظوه حتى أعود من الصيد ، فأقبل على الدعاء والتضرع ، فاتفق أن المهدى أكل الطعام المسموم كما تقدَّم شرحه فمات من ساعتهِ ، وتخلص الحرانى وجلس الهادى على سرير الخلافة ،

ثم بعد ذلك بمُدَيْدة استوزر الحرانىّ ولم تطل الأيام حتى مات الهادى .

انقضت أيام الهادى ووزرائه ثم ملك بعده أخوه هارون الرشيد .

﴿ خلافة هارون الرشيد ﴾

بويع بالخلافة فى سنة سبعين ومائة

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يَحُجّ سنةً ويغزو سنة ، كذلك مدةَ خلافته إلاّ سنينَ قليلة . قالوا وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ، ولم يحج خليفة ماشياً غيرُه ، وكان إذا حج حج معهُ مائةٌ من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحج أحجَّ ثلثمائةِ رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة ، وكان يتشبَّهُ فى أفعاله بالمنصور إلاّ فى بذل المال ، فانهُ لم يُرَ خليفةٌ أسمحُ منهُ بالمال ، وكان لا يَضيع عنده إحسانُ مُحسن ولا يؤخر ، وكان يحب الشعر والشعراء ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره المِرَاء فى الدين ، وكان يحب المديح لا سيما من شاعر فصيح ، ويجزل العطاء عليه .

قال الأصمَعى : صَنَع الرشيد طعاماً وزخرف مجالسه وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فقال أبو العتاهية . (كامل)

عِشْ ما بَدَا لك سالماً   فى ظِلِّ شاهِقةِ القصورِ

فقال الرشيد أحسنتَ ، ثم ماذا ، فقال :

يُسْعَى عليكَ بما اشتهيــــتَ لدى الرَّوَاحِ أو البكورِ

فقال : حسنٌ ، ثم ماذا ، فقال :

فاذا النفوسُ تقعقعتْ   فى ظلِّ حَشْرَجَة الصدورِ

فهنـــاكَ تعلمُ موقناً   ما كنتَ إلاّ فى غرورِ

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أميرُ المؤمنين لتسره فَحَزنته ! فقال الرشيد : دعهُ فانه رآنا فى عمًى فكرهِ أن يزيدَنا منه .

وكان الرشيد يتواضع للعلماء ؛ قال أبو معاوية الضرير وكان من علماء الناس : أكلت مع الرشيد يوماً فصبَّ على يدىَّ الماء رجُلٌ ، فقال لى : يا أبا معاوية ، أتدرى من صبَّ الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، قال : أنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ؟ قال : نعم .

فى أيامه خرج يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن .

﴿ شرح كيفية الحال فى خروج يحيى بنِ عبد الله بنِ حسن
ابنِ حسن بنِ علىّ بنِ أبى طالب عليه السلام ﴾

كان يحيى بنُ عبد الله قد خاف مما جرى على أخويه : النفسِ الزكية وإبراهيمَ قتيلِ باخَمْرَى ، فمضى إلى الديلم فاعتقدوا فيه استحقاق الامامة وبايعوه ، واجتمع إليه الناس من الأمصار وقوِيت شوكته ، فاغتمّ الرشيد لذلك وندَب إليه الفضلَ ابنَ يحيى فى خمسين ألفاً ، وولاه جُرجانَ وطبرستان والرَّى وغيرَ ذلك ، فتوجه يحيى بالجنود فلطُف بيحيى بنِ عبد الله وحذّره وخوّفهُ ورغّبهُ ، فمال يحيى إلى الصلح وطلب أماناً بخطِّ الرشيد ، وأن يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلّة بنى هاشم ، فأجابه الرشيد إلى ذلك وسُرَّ به وكتب له أماناً بليغاً بخطه ، وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء ومشايخ بنى هاشم ، وسيَّر الأمان مع هدايا وتحف ، فقدِم يحيى مع الفضل ، فلقيه الرشيد فى أول الأمر بكل ما أحب ، ثم حبسه عنده ، واستفتى الفقهاء فى نقض الأمان ، فمنهم من أفتى بصحته فحاجَّه ، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله ، ثم قتله بعد ظهور آية له عظيمة .

﴿ شرح الآية التى ظهرت فى قضية يحيي بن عبد الله ﴾

حضر رجل من آل الزبير بن العوام عند الرشيد . وسعَى بيحيي ، وقال : إنهُ بعد الأمان فعل وصنَع ، ودعا الناسَ إلى نفسه ، فأحضره الرشيد من محبسه ، وجمع بينهُ وبين الزبيرى ، وسأله عن ذلك ، فأنكر واقعةَ الزبيرى ، فقال له يحيي : إن كنت صادقاً فاحلف ، فقال الزبيرى : والله الطالِب الغالِب ، وأراد أن يتمم اليمين ، فقال له يحيي : دَعْ هذه اليمين ، فإن الله (تعالى) إذا مجَّده العبد لم يعجِّل عقوبتَه ، ولكن احلف له بيمين البراءة ، وهى يمين عُظْمَى ، صورتُها أن يقول عن نفسه : برئ من حول الله وقوته ، ودخل فى حول نفسه وقوتها إن كان كذا وكذا ؛ فلما سمع الزبيرى هذه اليمين ارتاع لها وقال : ما هذه اليمين الغريبة ؟ وامتنع من الحْلف بها ، فقال له الرشيد : ما معنى امتناعِك ؟ إن كنت صادقاً فيما تقول فما خوفُك من هذه اليمين ؟ فحلَف بها ، فما خرج من المجلس حتى ضُرِب برجله ومات .

وقيل ما انقضى النهار حتى مات ، فحملوه إلى القبر وحطّوه فيه ، وأرادوا أن يُطْموا القبر بالتراب ، فكانوا كلما جعلوا التراب فيه ذهَب التراب ولا ينْطَمُّ القبر فعلموا أنها آيةٌ سماوية فسقّفوا القبر وراحوا ، وإلى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله : (بسيط)

يا جاهداً فى مساويهمْ يُكتّمُها ... غدرُ الرشيدِ بيحيي كيف يَنكتِمُ
ذاق الزُّبَيْرِىُّ غِبَّ الْحِنْثِ وانكشفَتْ ... عن ابن فاطمةَ الأقوالُ والتُّهَمُ

ومع ظهور مِثل هذه الآية العظيمة قُتل يحيي فى الحبس شر قِتلة .

وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرِها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعِها رُقعةَ مملكة ، جبَى الرشيد معظم الدنيا ، وكان أحدُ عماله صاحبَ مصر ، ولم يجتمع

على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقضاة والكتّاب والندماء ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يَصِل كلّاً واحد منهم أجزلَ صِلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان فاضلاً شاعراً راويةً للأخبار والآثار والأشعار صحيح الذوق والتميز مهيباً عند الخاصة والعامة .

قبض على موسى بنِ جعفر (عليهما السلام) وأحضره فى قبة إلى بَغداد فحبسه بدار السِندى بن شاهك ، ثم قُتِل وأُظْهِر أنه مات حتفَ أنفِه .

﴿ شرح كيفية الحال فى ذلك ﴾

كان بعضُ حُسَّاد موسى بن جعفر من أقاربه قد وشَى بهِ إلى الرشيد ، وقال له: إن الناس يحملون إلى موسى خُمسَ أموالهم ، ويعتقدون إمامته ، وإنهُ على عزْم الخروج عليك ، وكثّر فى القول ، فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمّه وأقلقه ، ثم أعطى الواشىَ مالاً أحاله به على البلاد ، فلم يستمتع بهِ ، وما وصل المال من البلاد إلاّ وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها .

وأما الرشيد فإنهُ حَجَّ فى تلك السنة ، فلما ورَد المدينة قبَض على موسى بنِ جعفر (عليهما السلام) وحمله فى قبة إلى بغداد فحبسه عند السندى بن شاهك ، وكان الرشيد بالرَّقة فأمر بقتله فقُتِل قتلاً خفيًّا ، ثم أدخلوا عليه جماعة من العدول بالكرخ ليشاهدوه إظهاراً أنه مات حتفَ أنفه (صلوات الله عليه وسلامه) .

ومات الرشيد بطُوس ، وكان خرَج إلى خراسان لمحاربة رافعِ بنِ الليث بنِ نصر بنِ سَيَّار ، وكان هذا رافعٌ قد خرج وخلع الطاعة وتغلب على سَمرْقند وقتَل عاملها وملكها وقويت شوكته ، فخرج الرشيد بنفسهِ إليهِ ، فمات بطوس فى سنة ثلاث وتسعين ومائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر كاتبه قبل الخلافة يحى بنَ خالد بنِ برمك ، وظهرتْ دولة بنى برمك مذ حينئذٍ .

﴿ شرح أحوال الدولة البرمكية وذِكْر مبدئها ومآلها ﴾

كانوا قديماً على دين المجوس ، ثم أسلم من أسلم منهم وحَسُنَ إسلامهم ، وقد ذكرنا وزارةَ جدهم خالدِ بن برمك فى أيام المنصور ، ونذكر هاهنا وزارةَ الباقين ، وقبل الخوض فى ذلك فهذه كلماتٌ تُعرف منها نُبْذَةٌ من أحوال هذه الدولة :

اعْلَمْ أن هذه الدولة كانت غُرّة فى جبهة الدهر . وتاجاً على مَفْرِق العصر . ضُرِبتْ بمكارمها الأمثال . وشُدَّتْ إليها الرِّحال . ونِيطت بها الآمال . وبَذَلَتْ لها الدنيا أفلاذَ أكبادها . ومنحتها أوفرَ إسعادها . فكان يحيي وبنوه كالنجوم زاهرةً . والبحور زاخرة . والسيول دافعة . والغيوث ماطرة . أسواق الآداب عندهم نافقة ومراتبُ ذوى الحرمات عندهم عالية . والدنيا فى أيامهم عامرة . وأبهة المملكة ظاهرة . وهم ملجأ اللَّهِفِ ومعتصَم الطريد ، ولهم يقول أبو نواس :

(طويل)

سلامٌ على الدنيا إذا ما فُقِدتُمُ ... بَنِى برمكٍ مِن رائحين وغادِ

﴿ ذكر وزارة يحيي بن خالد للرشيد ﴾

لما جلس الرشيد على سرير المملكة استوزر يحيي بنَ خالد بنِ برمك ، وكان كاتبَه ونائبه ووزيرَه قبلَ الخلافة ، فنهض يحيي بنُ خالد بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسد الثغور وتدارك الخلَل ، وجبى الأموال وعمَّر الأطراف وأظهر رونق الخلافة ، وتصدَّى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً لبيباً أديباً سديداً صائب الآراء حَسَن

التدبير ضابطاً لما تحت يده قوياً على الأمور جواداً يبارِى الريحَ كرماً وجوداً مُمدَّحاً بكل لسان حليماً عفيفاً وَقُوراً مَهِيباً ، وله يقول القائل :

لا تَرَانى مُصَافحاً كفَّ يحيي ... إننى إن فعلتُ ضيَّعْتُ مالى

لو يَمَسُّ البخيلُ راحةَ يحيي ... لسَخَتْ نفسُه ببذل النوال

ومن آراء يحيي السديدةِ ما قاله للهادى وقد عزم على أن يخلَع أخاه هارون من الخلافة ويبايع لابنهِ جعفر بنِ الهادى ، وكان يحيي كاتبَ الرشيد ، وهو يترجَّى أن يتولى هارون الخلافة فيصيرَ هو وزيرَ الدولة ، فخلا الهادى بيحيي ، ووهب له عشرين ألف دينار ، وحادثه فى خلع هارون أخيه والمبايعة لجعفر ابنه ، فقال له يحيي: « يا أمير المؤمنين إن فعلتَ حملتَ الناس على نكث الأَيْمان ونَقْضِ العهود ، وتجرَّأَ الناس على مثل ذلك ، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعتَ لجعفرٍ بعده كان ذلك أوكدَ فى بيْعته » فترك الهادى الأمر مدة ثم غلب عليه حبُّ الولد فأحضر يحيي مرة ثانية وفاوضه فى ذلك ، فقال له يحيي : يا أمير المؤمنين ، لو حدَثَ بك حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أَفَتَرَى كانت خلافتُه تَصِحُّ وكان مشايخ بنى هاشم يرضَوْن ذلك ويُسلِّمُون الخلافة إليه ؟ قال لا ، قال يحيي فدع هذا الأمر حتى يأتيَه عفْواً ، ولو لم يكن المهدى بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بنى أبيك ، فصوب الهادى رأيه ، وكان الرشيد بعد ذلك يرى هـذه من أعظم أيادى يحيي بن خالد عندَه

ومن مكارمه ، قيل إن الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرّم على الشعراء أن يرْثُوهم ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك ، فاجتاز بعضُ الحرس ببعض الخَرِبات فرأى إنساناً واقفاً وفى يده رُقعة فيهـا شعر يتضمن رثاء البرامكة ، وهو يُنشِد

ويبكى ، فأخذه الحرس فأتى به إلى الرشيد وقصّ عليه الصورة ، فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك فاعترف به ، فقال له الرشيد : أما سمعت تحريمى لرثائهم ؟ لأفعلنّ بك ولأصنعنّ ، فقال يا أمير المؤمنين ، إن أذِنْتَ لى فى حكاية حالى حَكَيْتُها ، ثم بعد ذلك أنتَ ورأيُك ، قال : قل ، قال : إنى كنت من أصغر كُتَّاب يحيى بن خالد وأرَقِّهم حالاً ، فقال لى يوماً : أريد أن تُضِيفنى فى دارك يوماً ، فقلت : يا مولانا ، أنا دُونَ ذلك ، ودارى لا تَصْلُحُ لهذا ، قال : لا بد من ذلك ، قلت : فان كان لا بُدَّ فأمْهِلنى مدة حتى أُصْلِح شأنى ومنزلى ، ثم بعد ذلك أنت ورأيك ، قال كم أمْهِلُك ؟ قلت : سنة ، قال كثير ، قلت : فشهوراً ، قال : نعم ، فمَضَيْتُ وَشرَعْتُ فى إصلاح المنزل وتهيِئَةِ أسباب الدعوة ، فلما تَهيَّأَت الأسباب أعْلَمْتُ الوزيرَ بذلك ، فقال : نحن غداً عندك ، فمضيت وتهيّأت فى الطعام والشراب وما يُحتاج إليه ، فحضر الوزير فى غد ومعه ابناه جعفرٌ والفضل وعِدَّة يسيرة من خواص أتباعه ، فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل ، وقال : يا فلان ، أنا جائع ، فعَجِّلْ لى بشىء ، فقال لى الفضل ابنه : الوزيرُ يحِب الفراريج المشوية ، فعجِّلْ منها ما حضَر ، فدخلتُ وأحضرت منها شيئاً فأكلَ الوزيرُ ومن معهُ ، ثم قام يتمشى فى الدار وقال : يا فلان ، فرِّجنا فى دارك ، فقلت : يا مولانا ، هذه هى دارى ليس لى غيرُها ، قال : بل لك غيرها ، قلت : والله ما أملك سواها ، فقال : هاتوا بَنَّاءً ، فلما حضر قال له : افتح فى هذا الحائط باباً ، فمضى ليفتح ، فقلت : يا مولانا ، كيف يجوز أن يُفتح باب إلى بيوت الجيران ، والله أوصى بحفظ الجار ؟ قال : لا بأس فى ذلك ، ثم فُتح الباب ، فقام الوزير وأبناؤه فدخلوا فيهِ وأنا معهم ، فخرجوا منهُ إلى بستان حَسَنٍ كثير الأشجار ، والماء يتدفق فيهِ ، وبه من المقاصير والمساكن ما يَرُوقُ كلَّ ناظر ، وفيهِ من الآلات والفَرْش والخدم والجوارى كلُّ جميلٍ بديع ، فقال :

هذا المنزلُ وجميع ما فيهِ لك ، فقبَّلتُ يده ودعوت له وتحققتُ القصةَ ، فإذا هو من يوم حادَثَني فى معنى الدعوة قد أرسل واشترى الأملاك المجاورة لى وعمَّرها دارًا حسنة ، ونقلَ إليها من كل شيء ، وأنا لا أعلم ، وكنتُ أرى العمارة فأحسَبها لبعض الجيران ، فقال لابنه جعفر : يا بنىّ ، هذا منزلٌ وعيال ، فالمادة من أين تكون له ؟ قال جعفر : قد أعطيتهُ الضَّيْعة الفلانية بما فيها ، وسأكتب له بذلك كتابًا . فالتفت إلى ابنه الفضل وقال له : يا بنىّ ، فمِنَ الآنَ إلى أن يَدْخُل دخْلُ هذه الضيعة ما الذى يُنْفِق ؟ فقال الفضل : علىّ عشرةُ آلاف دينار أحملُها إليهِ ، فقال : فعجِّلا له ما قلتما ، فكتب لى جعفر بالضيعة ، وحمل الفضلُ إلىَّ المال فأثريتُ وارتفعتْ حالى وكسَبْتُ بعد ذلك معهُ مالا طائلاً ، أنا أتقلب فيه إلى اليوم ، فوالله يا أميرَ المؤمنين ما أجدُ فرصة أتمكنُ فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم إلاّ انتهزتُها مكافأةً لهم على إحسانهم ، ولن أقدر على مكافأتهم ! فإن كنت قاتلى على ذلك فافعل ما بدا لك ، فرَقَّ الرشيد لذلك وأطلقه ، وأذِن لجميع الناس فى رثائهم .

قيل إن هارون الرشيد حج ومعه يحي بنُ خالد بنِ برمك ، ومعه ولداه الفضل وجعفر ، فلما وصلوا إلى مدينة الرسول (صلوات الله عليه) جلس الرشيد ومعه يحي فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحي فأعطيا الناس ، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس ، فأعطوا فى تلك السنة ثلاث أعْطِياتٍ ضُرِبتْ بكثرتها الأمثال ، وكانوا يسمونه عام الأعطياتِ الثلاث ، وأثرى الناس بسبب ذلك ، وفى ذلك يقول الشاعر (طويل)

أتانا بنُو الآمال من آلِ برمكٍ ... فياطِيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ منظرِ
لهم رِحلةٌ فى كل عام إلى العدا ... وأخرى إلى البيتِ العتيقِ المُسَتَّرِ
إذا نَزَلوا بطحاءَ مكةَ أشْرَقَتْ ... بيحيي وبالفضل بنِ يحيي وجعفر

فتُظْلِم بغدادٌ وتجلو لنا الدُّجى ... بمكةَ ما تمحُو ثلاثةُ أقمُرُ

فما خُلِقَتْ إلاَّ لجودٍ أكفُّهُم ... وأقدامُهُم إلاَّ لأعوادِ منبر

إذا راضَ يحيي الأمرَ ذلَّتْ صِعابُهُ ... وناهيكَ من راعٍ له ومُدَبِّرِ

كان يحيي يقول : ما خاطبني أحد إلاَّ هِبْتُه حتى يتكلم ، فاذا تكلم كان بين اثنتين ، إما أن تزيد هيبته أو تضمحلّ . وكان يقولُ المواعيدُ شِباكُ الكرام يَصيدون بها محامدَ الأحرار . كان يحيي إذا ركب يُعِدُّ صُرَراً فى كل صُرة مائتا درهم يدفعها إلى المتعرضين له .

﴿ سيرة ولده الفضل بن يحيي ﴾

كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره ، وكان قد أرضعته أمُّ هارون الرشيد ، وأرضعت أمُّه الرشيدَ ، وفى ذلك يقول مَرْوان بن أبى حَفْصَة

(طويل)

كفى لكَ فخراً أنَّ أكْرَم حُرَّةٍ ... غذَتْك بثدي والخليفةَ واحدِ

لقد زِنْتَ يحيي فى المشاهدِ كلِّها ... كما زانَ يحيي خالداً فى المشاهد

ولاَّه الرشيدُ خُراسان فخرج إليه أبو الهول الشاعر مادحاً معتذراً من شعر كان هجاه بهِ فأنشده :

(طويل)

سَرَى نحوَه من غَضْبةِ الفضل عارِضٌ ... له لُجَّةٌ فيها البوارقُ والرَّعْدُ

وكيف ينام الليلَ مُلقٍ فِراشَهُ ... على مَدْرج يعتادُه الأسَدُ الوَرْدُ ؟

ومالي إلى الفضل بن يحيي بن خالدٍ ... من الجُرمِ ما يُخشى على مثلهِ الحِقد

فجُدْ بالرضا لا أبتغي منكَ غيرَه ... ورأيك فيما كنتَ عوَّدْتني بعْدُ

فقال له الفضل : لا أحتمل تفريقَك بين رضاى وإحسانى وهما مقرونان ، فان أردتَهما معاً وإلا فدعهما معاً ، ثم وصله ورضى عنهُ .

حدث إسحاقُ بنُ إبراهيم الموصلى ، قال: كنت قد ربَّيْتَ جارية حسَنةَ الوجهِ وثقفتُها وعلمتُها حتى برَعتْ ، ثم أهديتُها إلى الفضل بن يحيى ، فقال لى يا إسحاقُ ، إن رسول صاحبِ مصر قد ورد إلىَّ يسألنى حاجة أقترِحُها عليه ، فدع هذه الجارية عندك ، فاننى سأطلبها وأعْلِمُه أنى أريدُها ، فانهُ سوف يَحضُر إليك يساوِمُك فيها ، فلا تأخذ فيها أقلَّ من خمسينَ ألفَ دينار ، قال إسحاق : فمضيت بالجارية إلى منزلى ، فجاء إلىَّ رسولُ صاحبِ مصرَ وسألنى عن الجارية ، فأخرجتها إليه ، فبذل فيها عشرَةَ آلاف دينار ، فامتنعتُ فصعِد إلى عشرين ألفَ دينار فامتنعت ، فصعِد إلى ثلاثين ألفاً ، فما ملكتُ نفسى حتى قلت له : بِعْتُكَ ، وسلَّمْتُ الجارية إليه وقبضْتُ منهُ المال ، ثم إننى أتيت من الغد إلى الفضل بن يحيى ، فقال لى يا اسحاق ، بكم بِعْتَ الجارية ؟ قلت بثلاثين ألفَ دينار ، قال ألم أقل لك لا تأخذ منهُ أقلَّ من خمسين ألفاً ؟ قلت : فِداك أبى وأُمى ، والله ما ملكتُ نفسى منذ سمعت لفظةَ ثلاثين ألفاً ، فتبسم ثم قال : إن رسول صاحب الروم قد سألنى أيضاً حاجة ، وسأقترح عليهِ هذه الجارية وأدلُّه عليك فخذ جاريتك وانصرف إلى منزلك ، فاذا ساومك فيها فلا تأخذ منهُ أقلَّ من خمسين ألفَ دينار ، فأَخذتُ الجارية وانصرفتُ إلى منزلى ، فأتانى رسول صاحب الروم وساومنى فى الجارية فطلبت خمسين ألفاً ، فقال هذا كثير ولكن تأخذ منى ثلاثين ألفاً ، فوالله ما ملكت نفسى منذ سمعت لفظة ثلاثين ألفاً حتى قلت له قد بِعْتُك ، ثم قبضت المال منهُ وسلمت الجارية إليهِ . ومضَيت من الغد إلى الفضل بن يحيى ، فقال : ما صنَعْتَ ؟ وبكم بعت الجارية يا إسحاق ؟ قلت : بثلاثين ألفاً ، قال : سبحان الله ؛ ما أوصيتك ألاّ تأخذ فيها أقلَّ من خمسين ألفاً ! قلت : جُعِلتُ فِداك ، والله إنى لمَّا سمعتُ قوله ثلاثين ألفاً استرخت جميعُ أعضائى ، فضحك وقال : خذ جاريتك

واذهب إلى منزلك ففى غد يجىء إليك رسول صاحب خُراسان فقوِّ نفسك ولا تأخذ منهُ أقلَّ من خمسين ألفاً . قال إسحاق فأخذت الجارية ومضيت إلى منزلى ، فجاءنى رسول صاحب خراسان وساومنى فيها . فطلبت خمسين ألفاً ، فقال لى هذا كثير، ولكن تأخذ ثلاثين ألفاً ، فقوَّيْتُ نفسى وامتنعت فصعِد معى إلى أربعين ألفَ دينار فكاد عقلى يذهب من الفرح ، ولم أتمالك أن قلت له بِعْتُكَ ، فأحضرَ المال وأقبَضَنيه ، وسلَّمتُ الجارية إليه ، ومضَيت من الغد إلى الفضل ، فقال لى : يا إسحاق ، بكم بعتَ الجارية ؟ قلت بأربعين ألفاً ، ووالله لمَّا سمعتها منه كاد عقلى يذهب ، وقد حصَل عندى (جُعِلْت فِداك) مائةُ ألف دينار ولم يَبْقَ لى أمل . فأحسن الله جزاءك . فأمر بالجارية فاخرجَتْ إلىَّ . وقال : يا إسحاق ، خذ جاريتك وانصرف ، قال إسحاق : فقلت : هذه الجاريةُ والله أعظمُ الناسِ بركةً ، فأعتقْتُها وتزوجتُها فولَدت لى أولادى .

قيل إن محمد بنَ إبراهيم الأمامِ بن محمد بنِ علىٍّ بنِ عبد الله بنِ العباس حضر يوماً عند الفضل بنِ يحيى ومعه سَفَط فيه جوهر، وقال له : إن حاصلى قد قصُر عما أحتاح إليه ، وقد علانى دَيْنٌ مبلغهُ ألفُ ألفِ درهم ، وإنى أستحى أن أُعلِمَ أحداً بذلك ، وآنفُ أن أسأل أحداً من التجار أن يُقرِضَنى ذلك ، وإن كان معى رَهْن يَفِى بالقيمة ، وأنت (أبقاك الله) لك تجار يعاملونك ، وأنا أسألك أن تقترض لى من أحدهم هذا المبلغَ وتعطيه هذا الرهنَ ، فقال له الفضل : السمعُ والطاعةُ ، ولكن نُجْح هذه الحاجة أن تقيم عندى هذا اليومَ ، فأقام عنده ، ثم إن الفضل أخذ السفط منهُ وهو مختوم بختمه ، وأرسل معهُ ألفَ ألفِ دِرهم ، ونفَّذ الدراهم والسفط إلى منزله ، وأخذ خَطَّ وكيله بقَبْضه . وأقام محمدٌ فى دار الفضل إلى آخر النهار ، ثم انصرف إلى داره فوجد السفط ومعهُ ألفُ ألفِ دِرهم ، فسر بذلك

سرورًا عظيما ، فلما كان من الغد بَكَر إلى الفضل ليشكره على ذلك ، فوجده قد بَكَر إلى دار الرشيد ، فمضى محمد إلى دار الرشيد ، فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه ، فمضى محمد إليه ، فحين علم به خرج بباب آخر ومضى إلى منزله ، فمضى محمد إليه واجتمع به وشكره على فعله ، وقال له : إنى بكرت إليك لأشكرك عَلَى إحسانك ، فقال له الفضل : إنى فَكَّرْت فى أمرك فرأيت أن هذه الألفَ ألفٍ التى حملتُها أمسِ إليك تقضى بها دَيْنَك ثم تحتاج فتقترض ، فبعد قليل يعلوك مثلُها ، فبكَرت اليوم إلى أمير المؤمنين وعرضت عليهِ حالك وأخذت لك مائة ألفِ ألفِ درهم أخرى ، ولما حضرتَ إلى أمير المؤمنين خرجتُ أنا بباب آخر ، وكذلك فعلتُ لما حضرتَ إلى باب أبى ، لأنى ما كنت أوثر أن ألقاك حتى يُحملَ المالُ إلى منزلك ، وقد حُمِل . فقال له محمد : بأى شىء أجازيك عَلَى هـذا الإحسان ؟ ما عندى شىء أجازيك به إلاّ أنى ألتزم بالأيْمان الموكَّدة وبالطلاق والعِتاقِ والحَجِّ أنى ما أقف عَلَى باب غيرِك ولا أسألُ سواك ، قالوا : وحلف محمد أيْماناً مؤكدةً وكتب بها خطَّه ، وأشهد بها عليه أنه لا يقف بباب غير الفضل بن يحيى ، فلما ذهبت دولة البرامكة وتولى الفضل بنُ الربيع الوزارةَ بعدهم احتاج محمد ، فقالوا له : لو ركبتَ إلى الفضل بنِ الربيع ، فلم يفعل والتزم باليمين ، فلم يركب إلى أحد ، ولم يقف عَلَى باب أحد حتى مات .

﴿ سيرة جعفر بن يحيى البرمكى ﴾

كان جعفرُ بنُ يحيى فصيحاً لبيباً ذكيًّا فطناً كريماً حليماً ، وكان الرشيد يأنَس به أكثَرَ من أُنْسِهِ بأخيه الفضلِ لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أَخلاق الفضل ، قال الرشيد يوماً ليحيى : يا أبى ، ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا

يسمون جعفراً بذلك ؟ فقال يحيي : إن خدمتَك ومنادمتك يَشغلانه عن ذلك ، فجعل إليه أمرَ دار الرشيد ، فسُمِّيَ بالوزير الصغير أيضًا .

قال الرشيد يوما ليحيي : قد أحببتُ أن أنقُلَ ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر ، وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى ، فاكتب أنت إليه فكتب يحيي إلى الفضل : « قد أمر أمير المؤمنين (أعلى الله أمْرَه) أن تُحَوِّل الخاتم من يمينك إلى شِمالك » فأجابه الفضل : « قد سمعتُ لِمَا أمر به أمير المؤمنين فى أخى ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه ! » فقال جعفر : لله درِ أخى ، ما أكيسَ نفسه ، وأظهرَ دلائلَ الفضل عليه ، وأقوى مُنَّةَ العقل عنده ، وأوسعَ فى البلاغة ذَرْعَه !

قيل : إن جعفرَ بنَ يحيي البرمكى جلس يوماً للشرب ، وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنَسُ بهم وجلس معهم ، وقد هُيِّئَ المجلِس ولبسُوا الثياب المُصبَّغة ، (وكانوا إذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر) ثم إن جعفرَ بن يحيي تقدم إلى الحاجب ألاّ يأذن لأحد من خلق الله (تعالى) سوى رجلٍ من الندماء كان قد تأخر عنهم اسمهُ عبدُ الملك بنُ صالح ، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات وَخَفَقَتْ العيدان ، وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبدُ الملك بنُ صالح بن على بنِ عبد الله بنِ العباس ، وكان شديد الوقار والدِّين والحِشْمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشربَ معهُ ، وبَذَلَ له على ذلك أموالاً جليلة فلم يفعل ، فاتفق أنّ هذا عبدَ الملك بنَ صالِح حضر إلى باب جعفر بنِ يحيي ليخاطبه فى حوائجَ له ، فظن الحاجب أنه هو عبدُ الملك بنُ صالح الذى تقدم جعفر بنُ يحيي بالإذن له وألاّ يُدْخِلَ غيره ، فأذِن الحاجب له ، فدخل عبدُ الملك بنُ صالِح العباسى على جعفرِ بنِ يحيي ، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب

من الحياء ، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم ، وفطن عبدُ الملك بنُ صالح أيضاً للقصة ، وظهر له الخجل فى وجه جعفر بنِ يحيي ، فانبسط عبدُ الملك وقال : لا بأس عليكم ، أَحْضِروا لنا من هذه الثياب المصبَّغة شيئاً ، فأُحضر له قميص مصبوغ فلبسه وجلس يباسط جعفرَ بنَ يحيي ويمازحه ، وقال : اسقُونا من شرابِكم فسَقَوْه رِطلاً ، وقال : ارفُقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ، ثم باسَطَهم ومَازَحَهم ، وما زال حتى انبسط جعفرُ بن يحيي وزال انقباضه وحياؤه ، ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً ، وقال له : ما حاجتك ؟ قال : جئت (أصلحك الله) فى ثلاثِ حوائجَ أريد أن تخاطب الخليفة فيها : أولهُا أن علىَّ ديناً مبلغه ألفُ ألفِ درهم أريد قضاءه ، وثانيها أريد وِلايةً لابنى يشرُف بها قدرُه ، وثالثها أن تزوجَ ولدى بابنة الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفء لها ، فقال له جعفر بن يحيي : قد قضَى الله هذه الحوائجَ الثلاث : أما المال ففى هذه الساعة يُحْمَلُ إلى منزلك ، وأما الولاية فقد وَلَّيْتُ ابنَك مصر ، وأما الزواج فقد زوَّجتُه فلانةَ ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغُه كذا وكذا ، فانصرِف فى أمان الله . فراح عبد الملك إلى منزله فرأى المالَ قد سبقه ، ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرّفه ما جرى ، وأنه قد ولّاه مصر وزوَّجَه ابنتَه ، فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العَقْد والولاية ، فما خرج جعفرٌ من دار الرشيد حتى كَتَبَ له التقليدَ بمصر وأحضر القضاة والشهود وَعَقَدَ العَقد .

وقيل : إن جعفر بن يحيي كان بينه وبين صاحب مصر عداوة ووَحشة ، وكان كل منهما مجانِباً للآخر ، فزوَّر بعضُ الناس كتاباً عن لسان جعفر بن يحيي إلى صاحب مصر ، مضمونه أن حامل هذا الكتاب من أخصِّ أصحابنا ، وقد آثر التفرُّجَ فى الديار المصرية ، فأريد أن تحْسِنَ الالتفات إليه ، وبالغَ فى الوصية ، ثم أخذ الكتابَ ومضى

إلى مصر وعرَضَه على صاحبها ، فلما وقف عليه تعجب منه وفرِح به ، إلا أنه حصل عنده ارتياب وشكٌ في الكتاب، فأكرم الرجلَ وأنزله في دارٍ حَسَنة وأقام له مايحتاج إليه ، وأخذ الكتاب منه وأرسله إلى وكيله ببغْداد وقال له : قد وصل شخصٌ من أصحاب الوزير بهذا الكتاب ، وقد ارتبت بهِ ، فأريد أن تتفحَّصَ لى عن حقيقة الحال فى ذلك ، وهل هذا خطُّ الوزير أم لا ؟ وأرسَل كتاب الوزير صُحْبةَ مكتوبهِ إلى وكيله ، فجاء الوكيلُ إلى وكيلِ الوزير وحدّثه بالقصة وأراه الكتاب ، فأخذه وكيل الوزير ودخل إلى الوزير وعرَّفَه الحالَ ، فلما وقف جعفر بنُ يحيي على الكتاب علم أنه مُزَوَّر عليه ، وكان عنده جماعة من ندمائه ونوابه فرمى الكتاب عليهم ، وقال لهم أهذا خطى ؟ فتأملوه وأنكروه كلهم وقالوا : هذا مزوَّر على الوزير ، فعرّفهم صورةَ الحال وأن الذى زوّر هذا الكتاب موجود بمصر عند صاحبها ، وأنه ينتظر عودَ الجواب بتحقيق حاله ، وقال لهم : ما ترون ، وكيف ينبغى أن نفعل فى هذا ؟ فقال بعضهم ينبغى أن يُقتل هذا الرجل حتى تحسمَ هـذه المادة ولا يرجع أحد يتجرّى على مثل هذا الفعل . وقال آخر : ينبغى أن تقطع يمينه التى زوَّر بها هذا الخط ، وقال آخر : ينبغى أن يوجَع ضرباً ويُطلقَ حالُ سبيلهِ ، وكان أحسنهم محضراً من قال : ينبغى أن تكون عقوبتُه على هذا الفعل حرمانَه ، وأن يُعرَّف صاحبُ مصرَ بحاله ليَحْرِمَه ، فيكفيه من العقوبة أنه قطَعَ هذه المسافةَ البعيدة من بَغْدَادَ إلى مصر ثم يرجع خائباً ، فلما فرغوا من حديثهم قال جعفر : سبحان الله ! أليس فيكم رجل رشيد . قد علمتم ما كان بينى وبين صاحب مصر من العداوة والمجانبة ، وأن كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس أن يفتح باب الصلح ، فقد قيض الله لنا رجلاً فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة وأزال بيننا تلك العداوةَ ، فكيف يكون جزاؤه ما ذكرتم من الاساءة ؟ ثم أخذ القلم وكتب

على ظاهر الكتاب إلى صاحب مصر : سبحان الله ! كيف حصل لك الشك فى خطى ؟ هذا خط يدى ، والرجل من أعز أصحابى ، وأريد أن تُحْسِنَ إليه وتعيدَه إلىّ سريعاً ، فانى مشتاقٌ إليه محتاجٌ إلى حضوره . فلما وصل الكتاب وفى ظاهره خط الوزير إلى صاحب مصر كاد يطير من الفرح ، وأحسن إلى الرجل غايةَ الاحسان ووصله بمال كبير وتحف جميلة ، ثم إن الرجل رجَع إلى بغداد وهو أحسنُ الناس حالاً ، فحضر إلى مجالس جعفرِ بن يحيي ، فلما دخل سلّم عليه ووقع يقبل الأرض ويبكى ، فقال له جعفر من أنت يا أخى ؟ قال : يا مولانا ، أنا عبدُك وصنيعتُك المزوِّرُ الكذّابُ المتجرّى ، فعرَفه جعفر وبشّ به وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله ، وقال له كم وصل إليك منهُ ؟ فقال : مائة ألف دينار ، فاستقلها جعفر وقال : لازمْنا حتى نضاعفَها لك ، فلازمه مدة فكسَب معه مثلَها ، وما زالت دولة البرامكة فى علو وارتفاع وتزايد حتى انحرفت عنهم الدنيا .

﴿ أمارة تدل على انحراف دولتهم ﴾

حدّث بَخْتَيْشُوع الطبيب قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخُلْد من مدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عَرْض دِجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيي بنِ خالد ، فقال : جزى الله يحيي خيراً ! تصدّى للأمور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة ، ثم دخلتُ إليه بعد أوقات وقد شرَع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرةَ فقال : استبدّ يحيي بالأمور دونى فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا اسمها ! قال : فعلمت أنه سينكبهم ، ثم نكبهم عَقِيب ذلك .

﴿ شرح السبب فى نكبة البرامكة وكيفية الحال فى ذلك ﴾

اختلف أصحاب السِّيَر والتواريخ فى السبب فى ذلك ، فقيل إن الرشيد ما كان يصْبِرُ عن أخته عبَّاسة ولا عن جعفر بن يحيى ، فقال له : أزوِّجُكها حتى يحلّ لك النظرُ إليها ، فكانا يجتمعان وهما شابان ثم يقوم الرشيد عنهما ويخلوان بأنفسهما حتى علم الرشيد فكان ذلك سببَ نكبة البرامكة .

وقيل : كان سببُ ذلك أن الرشيد كلَّف جعفر بن يحيى قتْلَ رجلٍ من آل أبى طالب فتحرَّج جعفرٌ من ذلك وأطلق الطالبىّ ، وسُعِىَ إلى الرشيد بجعفر ، فقال له : ما فعل الطالبى ؟ قال : هو فى الحبس ، قال الرشيد : بحياتى ؟ ففطِن جعفر فقال : لا وحياتك ، ولكن أطلقتُه لأنى علمت أنه ليس عنده مكروه ، فقال له الرشيد : نِعْم ما فعلت ! فلما قام جعفر قال الرشيد : قتلَنى اللهُ إن لم أقتلْك ! ثم نكبهم .

وقيل : إن أعداء البرامكة مثلَ الفضلِ بنِ الربيع ما زالوا يسعَوْن بهم إلى الرشيد ، ويذكرون له استبدادَهم بالمُلك ، واحتجانَهم للأموال حتى أوْغروا صدرَه فأوْقع بهم .

وقيل : إن جعفراً والفضلَ ابنَىْ يحيى بنِ خالد ظهر منهما من الإدلال ما لا تحتملُه نفوس الملوك فنكَبَهم لذلك .

وقيل : إن يحيى بنَ خالد رُئِىَ وهو بمكة يطوف حول البيت ويقول : اللهمّ إن كان رضاكَ فى أن تسلُبنى نعمتَك عندى وتسلبَنى أهلى ومالى ووَلَدى فاسلُبنى إلاّ الفضلَ ولدى ، ثم ولّى ، فلما مشى قليلاً عاد وقال : يارب إنه سمِجٌ بمثلى أن يستثنى عليك اللهم والفضلَ ، فنكَبهم الرشيد بعد قليل .

﴿ شرح مقتل جعفر بن يحيي والقبض على أهله ﴾

كان الرشيد قد حَجّ ، فلما عاد من الحَجّ سار من الحِيرَة إلى الأنبار فى السُّفُن ، وركب جعفر بنُ يحيي إلى الصَّيْد ، وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى وتحفُ الرشيد وهداياهُ تأتيه ، وعنده بختيشوع الطبيب وأبو زكَّار الأعمى يغنيه ، فلما أظل المساء دعا الرشيدُ مسروراً الخادمَ وكان مبغِضاً لجعفر وقال : اذهب فجئنى برأس جعفر ولا تراجِعْنى ، فوافاه مسرور بغير إذن وهجم عليه وأبو زكَّار يغنيه :

(وافر)

فلا تَبْعَدْ فكلُّ فتًى سيأتى عليه الموتُ يَطْرُق أو يُغَادِى

فلما دخل مسرور قال له جعفر بن يحيي : لقد سرَرْتنى بمجيئك وسُؤْتنى بدخولك علىَّ بغير إذن ! فقال : الذى جئت له أعظم ! أجِبْ أمير المؤمنين إلى ما يريد بك ، فوقع على رجليه فقبلهما ، وقال له : عاود أميرَ المؤمنين فإن الشراب قد حمله على ذلك ، وقال : دعنى أدخلْ دارى فأُوصِى ، فقال : الدخولُ لا سبيل إليه ، وأما الوصيةُ فأوصِ بما بدا لك ، فأوصى ، ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به إلى قُبَّة وضَربَ عنقه ، وأُتى برأسِه عَلَى تُرْس إلى الرشيد وببدنهِ فى نِطْع ، ووجَّهَ الرشيد فقبض على أبيهِ وإخوته وأهله وأصحابه وحبَسهم بالرَّقّة واستأصل شأفتهم .

ومن طريف ما وقع فى ذلك ما رواه العمرانى المؤرخ قال : حدّث فلان قال : دخلتُ الديوان فنظرت فى بعض تذاكر النواب فرأيت فيها أربعَمائةِ ألفِ دينار ثمنَ خِلْعة لجعفر بن يحيي الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرةَ قراريط ثمنَ نَفْطٍ وبوارىَّ لإحراق جثة جعفر بن يحيي ، فعجبت من ذلك .

ثم استوزر الرشيد بعد البرامكة الفضلَ بنَ الربيع وكان حاجبه

﴿ وزارة أبى العباس الفضلِ بنِ الربيع ﴾

قد مضى ذكر أبيه، وأما الفضل فكان حاجباً للمنصور والمهدى والهادى والرشيد، فلما نَكَب الرشيدُ البرامكةَ استوزره بعدهم .

كان الفضل بنُ الربيع شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم، ولما وَلِىَ الوزارة تهوَّس بالأدب، وجمع إليه أهلَ العلم فحصَّلَ منه ما أراد فى مدة يسيرة، وكان أبو نُواس من شعرائه المنقطعين إليه، فمن شعره فى آل الربيع : (كامل)

عباسُ عباسٌ إذا احْتَدَمَ الوَغَى   والفَضْلُ فضلٌ، والربيعُ ربيعُ

وما زال الفضل بنُ الربيع على وزارته، إلى أن مات الرشيد بطُوس، فجمع الفضلُ العسكرَ وما فيه، ورجَع إلى بغداد، وسيرد باقى سيرته فى أيام الأمين . انقضت أيام الرشيد .

﴿ ثم ملك بعده ابنه الأمين : محمد بنُ زبيدة ﴾

أمُّه أمُّ جعفر زبيدةُ بنتُ جعفر بنِ المنصور، وليس فى خلفاء بنى العباس مَنْ أمه وأبوه هاشميان سواه، كان الأمين كثيرَ اللهو واللعب منقطعاً إلى ذلك مشتغلاً به عن تدبير مملكته، قال ابن الأثير المؤرخ الجَزَرى : لم نجد للأمين شيئاً من سِيرته نستحسنه فنذكره، وقال غيره : كان الأمين فصيحاً بليغاً كريماً وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه ويعرّض بهَجْو المأمونِ أخيه : (رمل)

لم تَلِدْهُ أَمَــةٌ تَعْــرِف فى السُّوق التِجَارَا

لَا ولا حُــدَّ ولا خَا   نَ ولا فى الخِزْىِ جَارا

يعرّض بالمأمون لأن الرشيد كان قد حدّه فى خمر .

كان الرشيد قد بايع للأمين بولاية العهد وللمأمون بعده، وكتب الكتبَ

بذلك وأشهد فيها الشهود وأرسل نُسَخَها إلى الأمصار ، فعُلِّقَتْ نسخةٌ من تلك النسخ على الكعبة ، وأكَّد ذلك بكلٍّ ما إليه السبيل ، فلما مات بطوس كان المأمونُ فى خراسان ومعه جماعة من أكابر القواد ووزيرُه الفضلُ بنُ سهل ، وكان الأمينُ ببغداد ، وكان الفضل بنُ الربيع وزيرُ الرشيد مع الرشيد بطوس ، فلما مات الرشيد جَمَع الفضلُ جميع ما فى العسكر ، وكان الرشيد قد أوصى به للمأمون ، وتوجه الفضل إلى بغداد فاستوزره الأمين ، ثم اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المُجَّان ، فأشار الفضلُ بنُ سهلٍ وزيرُ المأمون على المأمون بإظهار الورع والدين وحسن السيرة ، فأظهر المأمون حسن السيرة واستمال القوادَ وأهلَ خراسان ، وكان كلما اعتمد الأمينُ حركةً ناقصة اعتمد المأمون حركة سديدة ، ثم نشأت العداوة بينهما ، وحسَّن الفضل بن الربيع وغيرُه له أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد ويبايعَ لابنه موسى ، فخلعه وبايع لابنه موسى وسمَّاه الناطق بالحق ، وبسبب ذلك كانت الفتنة ببغداد بين الأمين والمأمون ، وكان فى آخرها قَتْلُ الامين .

﴿ شرح الفتنة بين الأمين والمأمون ﴾

كان الفضلُ بنُ الربيع وزيرُ الأمين قد خاف المأمونَ لِمَا فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان فى عسكره إلى الأمين ، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به للمأمون ، فخاف الفضل بن الربيع من المأمون أنه إن وَلِىَ الخلافة كافأه على فعله ، فحسَّن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى ، واتفق مع الفضل جماعةٌ على ذلك ، فمال الأمين إلى أقوالهم ، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه فنهوْه عن ذلك وحذروه عاقبة البغى ونَكثَ العهود والمواثيق ، وقالوا له لاتجرِّىء

القواد على النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك ، فلم يلتفت إليهم ، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع ، وشرع فى خدع المأمون باستدعائه إلى بغداد فلم يخدع ، وكتب يعتذر وترددت المراسلات والمكاتبات بينهما حتى رقّ المأمون وعزم على الإجابة إلى خلع نفسه ومبايعة موسى بن الأمين ، فخلا به وزيره الفضل بن سهل وشجعه على الامتناع وضمِن له الخلافة ، وقال : هى فى عهدتى ، فامتنع المأمون ونهضَ الفضل بن سهل بأمر المأمون واستمال له الناس وضبَط له الثغور والأمور ، واشتدت العداوة بين الأخوينْ الأمينِ والمأمون ، وَقُطِعت الدروب بينهما من بغداد إلى خراسان وفُتشت الكتب وصَعُبَ الأمر ، وقطع الأمينُ خُطبة المأمون فى بغداد وقبض على وكلائهِ ، وكذلك فعل المأمون بخراسان ، ونما الشر بينهما . وكان بقدر ما عند المأمون من التيقظ والضَّبْط عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفول ؛ فمما يحكى من تفريط الأمين وجهله : أنه كان قد أرسل إلى حَرْبِ أخيه رجلاً من أصحاب أبيه يقال له علىُّ بنُ عيسى بن ماهان ، وأرسل معه خمسين ألفاً ، فيقال إنه ما رُئى قبل ذلك ببغداد عسكرٌ أكثفُ منه ، وحَمل معه السلاحَ الكثير والأموال الوافرة ، وخرج معه مشيّعاً مودعاً ، وكان أولَ بَعْثٍ بعثه إلى أخيه ، فمضى علىّ بنُ عيسى بنِ ماهان فى ذلك العسكر الكثيف ، وكان شيخاً من شيوخ الدولة جليلاً مهيباً ، فالتقى بطاهر بن الحسين ظاهرَ الرّى ، وعسكرُ طاهرٍ حدودَ أربعة ألف فارس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت الغلبة فيه لطاهر ، وقُتِل علىّ بن عيسى وجىء برأسه إلى طاهر ، فكتب طاهر إلى المأمون كتاباً نسخته :

« أما بعـــد فهذا كتابى إلى أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) ورأسُ علىّ ابن عيسى بين يدىّ ، وخاتمه فى يدى ، وجنده تحت أمرى ، والسلام »

وأرسل الكتابَ على البريد ، فوصل إلى المأمون فى ثلاثة أيام وبينهما مسيرةُ

مائتين وخمسين فرسخاً ، ثم إنّ نَمى على بن عيسى وَرَدَ إلى الأمين وهو يصطاد السمك ، فقال للذى أخبره بذلك : دعنى ، فان كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا إلى الآنَ ما اصطدت شيئاً ، وكان كوثرٌ خادماً له وكان يحبه ، ولقد كانت أمُّه زبيدةُ أَسَدَّ رأياً منه ، فان علىّ بن عيسى لما أرسله الأمين إلى خراسان بالجيش حضر إلى باب زُبَيْدة ليودعها ، فقالت له : يا علىّ ، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى وإليه انتهت شفقتى ، فانى على عبد الله (تعنى المأمون) منعطفةٌ مشفقةٌ لما يَحْدُث عليه من مكروه وأذى ، وإنما وَلِدى مَلِكٌ نافسَ أَخاه فى سلطانه ، فاعرِفْ لعبد الله حقَّ وِلادته وأخوَّته ، ولا تَجْبَهْهُ بالكلام فانك لست نظيراً له ، ولا تقْتَسِرْه اقتسارَ العبيد ، ولا تُوهِنه بقَيْد أو غُلّ . ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تَعْنُف عليه فى السير ، ولا تساوِه فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركِب ، وإِن شتَمك فاحتملْ منه . ثم دفعت إليه قيداً من فضة وقالت : إذا صار إليك فقيِّدْه بهذا القيد ، فقال لها سأفعل ما أمرت به ، وكان الناس يجزمون بنُصرة على بن عيسى استعظاماً له ولعسكره واستصغاراً لمن يلتقيه من جند المأمون ، فقدر الله خلاف ما جزموا به ، وكان من الأمر ما كان .

وكانت تلك الأيام أيام فتن وحروب ، فمما جرى من ذلك أن الحسين بن علىّ ابن عيسى بن ماهان كان أحدَ الأُمراء شَغَب على الأمين وَخَلعه وحبَسه وبايع للمأمون ، وتبعه ناس من العسكر ، فاجتمع ناس آخرون من العسكر وقالوا : إن كان الحسين بن علىّ بن عيسى يريد أن يأخذ وجهاً عند المأمون بما فعل فلنأخذنّ نحن وجهاً عند خليفتنا الأمين بفكه وتخليصه وإجلاسه على السرير ، فاقتتل الفريقان ، فغلَب أصحاب الأمين فدخلوا عليه محبسه وأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة ، وقاتلوا حسيناً وغلبوا عليه وأحضروه أسيراً إلى الأمين ، فعاتبه فاعتذر

إليه وعفا عنه ، ثم خلَع عليه وولّاه العسكر وأمره بمحاربة المأمون ، فخرج وهرَب ، فأرسل الأمينُ الجندَ خلفه فلحِقوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى الأمين ، فما زال الشرُّ ينمى ، والاختلاف يزيد ، حتى أرسل المأمون هرْثمةَ وطاهرَ بن الحسين وهما من أعيان أمرائه بعسكر كثيف لمحاصرة بغداد ومحاربة الأمين ، فحاصرا بغداد مدة وقاتلا بعسا كرهما قتالاً شديداً ، وجرت بين القبيلتين وقائعُ كثيرة كان فى آخرها الغلبةُ لعسكر المأمون ، وقُتِلَ الأمين وحُمِل رأسه إلى أخيه المأمون بخراسان ، وذلك فى سنة ثمان وتسعين ومائة .

وأما حال الوزارة فى أيامه فانه لم يستوزر غيرَ الفضل بنِ الربيع وزيرِ أبيه ، وقد سبق شرح طرف من سيرته عند ذكر وزارته للرشيد ، انقضت أيام الأمين.

﴿ ثم ملك بعده أخوه عبد الله المأمون ﴾

بويع له البيعةَ العامةَ ببغـداد فى سنة ثمان وتسعين ومائة ، كان المأمون من أفضل خلفائهم وعلمائهم وحكمائهم وحُلَمَائهم ، وكان فطِناً شديداً كريماً .

حُدِّث عنهُ أنه لما كان بدِمَشْق أضاق إضاقة شديدة وقلَّ المال عنده ، فشكا ذلك إلى أخيه المعتصم ، وكان له بيـده أعمال ، فقال المعتصم : يا أمير المؤمنين ، كأنك بالمال قد وافاك بعد أسبوع ، فوصل فى تلك الأيام من الأعمال التى كان المعتصم يتولاها ثلاثون ألفَ ألفِ ألفِ درهم (الألف مكررة ثلاث مرات) فقال ليحيى بن أكثم : اخرُج بنا لننظرَ إلى هذا المـال ، فخرج وخرج الناس ، وكان قد زُيِّنَ الحِمْلُ وزُخْرِف ، فنظر المأمون منهُ إلى شىء حَسَن كثير ، فاستعظم الناس ذلك واستبشروا به ، فقـال المأمون : إن انصرافنا إلى منازلنا بهذا المال وانصرافَ الناس خائبين لؤمٌ ، فأمر كاتبَهُ أن يوقِّع لهذا بألفِ ألفِ ، ولذاك

بمثلها ، ولآخر بأكثر منها ، حتى فرّق أربعة وعشرين ألفَ ألفِ ألفِ درهم (والألف مكررة ثلاث مرات) ورجْلُه فى الركاب ، ثم حوّل الباقى على عارض الجيش برسم مصالح الجند . واعلم أنَّ المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال ، وله اختراعات كثيرة فى مملكته .

منها : أنهُ هو أول من فَحَص منهم عن علوم الحكمة وحصّل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشَهرَها ، وحل إقليدسَ ، ونظر فى علوم الأوائل ، وتكلم فى الطب ، وقرّب أهل الحكمة .

ومن اختراعاته : مقاسمةُ أهلِ السواد بالْخُمْسَيْن ، وكانت المقاسمة المعهودةُ النصفَ .

ومن اختراعاته : إلزامُ الناس أن يقولوا بخلق القرآن ، وفى أيامه نشأت هذه المقالة ونوظر فيها أحمدُ بن حنبل وغيرُه ، ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصمَ بها ، فلما وَلِىَ المعتصم تكلّم فيها وضرب أحمد بن حنبل ، وسيرد خبر ذلك فى موضعه .

ومن اختراعاته : نقل الدولة من بنى العباس إلى بنى علىّ (عليه السلام) ، وتغييرُ الناسِ السوادَ بلباس الْخُضْرَة ، وقالوا : هو لباس أهل الجنة .

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان المأمون قد فكر فى حال الخلافة بعده وأراد أن يجعلها فى رجل يَصْلُحُ لها لتبرأ ذمتهُ ، كذا زعم ، فذكر أنه اعتبر أحوال أعيان البيتين البيت العباسى والبيت العَلَوىّ ، فلم يرفيهما أصلح ولا أفضل ولا أورع ولا أدْيَن من علىّ بن موسى الرضا (عليهما السلام) فعهِد إليه ، وكتب بذلك كتاباً بخطه ، وألزم الرضا (عليه السلام) بذلك ، فامتنع ثم أجاب ، ووضع خطه فى ظاهر كتاب المأمون بما معناه :

إنى قد أجبت امتثالاً للأمر، وإن كان الجفر والجامعة يدلان على ضد ذلك، وشهد عليهما بذلك الشهود.

وكان الفضلُ بنُ سهلٍ وزيرُ المأمون هو القائمَ بهذا الأمر والمُحَسِّنَ له، فبايع الناس لعلى بن موسى من بعد المأمون وسُمِّىَ الرضا من آل محمد (صلوات الله عليه).

وأمر المأمون الناسَ بخلع لباس السواد ولُبْس الخضرة، وكان هذا فى خراسان، فلما سمع العباسيون ببغداد ما فعل المأمون من نقل الخلافة عن البيت العباسى إلى البيت العَلَوى، وتغييرِ لباس آبائه وأجداده بلباس الخضرة، أنكروا ذلك وخلعوا المأمون من الخلافة غضباً من فِعله، وبايعوا عمَّه إبراهيمَ بنَ المهدى، وكان فاضلاً شاعرًا فصيحاً أديباً مغنياً حاذقاً، وإليه أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله: (بسيط)

مِنْكُمْ عُلَيَّةُ أمْ مِنهُمْ وكانَ لَكُمْ ... شيْخُ المغنين إبراهيمُ أمْ لَهُمُ

وكانت تلك الأيام أيام فتنَ ووقائعَ وحروبٍ، فلما بلغ المأمونَ ذلك قام وقعد، فقتل الفضل بن سهل، ومات بعده علىّ بن موسى من أكلِ عنب، فقيل: إن المأمون لمّا رأى إنكار الناس ببغدادَ لِما فعله من نقل الخلافة إلى بنى علىّ، وأنهم نسبُوا ذلك إلى الفضل بن سهل، ورأى الفتنة قائمة، دسّ جماعة على الفضل ابن سهل فقتلوه فى الحمام، ثم أخذهم وقدَّمهم ليضربَ أعناقهم، فقالوا له: أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا! فقال لهم: أنا أقتلكم بإقراركم، وأما ما ادَّعَيْتُمُوه علىَّ من أنى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بَيِّنَة، ثم ضرَب أعناقَهم وحَمَل رءوسَهم إلى الحسنِ بن سهل، وكتب يعزّيه ويوليّه مكانه، وانضمّ إلى ذلك أمور أخرى سنذكرها عند ذكر وزارة الفضل، ثم دسّ إلى علىّ بن موسى الرضا (عليه السلام)

سُمًّا فى عنب ، وكان يحب العنب ، فأكل منه واستكثر فمات من ساعته ، ثم كتب إلى بنى العباس ببغداد يقول لهم : إن الذى أنكرتموه من أمر علىّ بن موسى قد زال ، وإن الرجل مات ، فأجابوه أغلظ جواب ، وكان الفضل بنُ سهل قد استولى عَلَى المأمون ومت أمتاتاً كثيرة بقيامه فى أمره واجتهاده فى أَخْذ الخلافة له ، فكان قد قطَع الأخبار عنه ، ومتى عَلِم أن أحداً قد دخل عليه أو أعلمه بخبر سعى فى مكروهه وعاقَبَه ، فامتنع الناس من كلام المأمون فانطوت الأخبار عنه ، فلما ثارت الفتنة ببغداد وخُلِع المأمون وبويع إبراهيم بن المهدى وأنكر العباسيون عَلَى المأمون فِعْله كتم الفضل بن سهل ذلك عن المأمون مدة ، فدخل عليه علىّ ابن موسى الرضا (عليهما السلام) وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الناس ببغداد قد أنكروا عليك مبايعتى بولاية العهد وتغيير لباس السواد ، وقد خلعوك وبايعوا عمك إبراهيم بن المهدى . وأَحْضَر إليه جماعةً من القواد ليخبروه بذلك ، فلما سألهم المأمون أمسكوا وقالوا : نخاف من الفضل ، فإن كنت تُؤَمِّننا من شره أخبرناك ، فأمنّهم وكتب لهم خطه ، فأخبروه بصورة الحال ، وعرّفوه خيانة الفضل وتَعْمِيَةَ الأمور عليه ، وسَتْرَه الأخبار عنهُ ، وقالوا له : الرأْى أَن تسير بنفسك إلى بغداد وتستدرك أمرك وإلا خَرَجَت الخلافةُ من يدك ، فكان بعد هذا بقليل قَتْلُ الفضل وموتُ الرضا على ما تقدم شرحه .

ثم جدّ المأمون فى المسير إلى بغداد فوصلها وقد هرب إبراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع ، فلما دخل البلد تلقاه العباسيون وكلّموه فى ترك لباس الخضرة والعودِ إلى السواد ، واجتمعت به زينبُ بنتُ سليمانَ بنِ علىّ بنِ عبد الله ابنِ العباس وكانت فى طبقة المنصور ، وكان بنو العباس يعظمونها ، وإليها يُنسب الزينبيون ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، ما الذى دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك

إلى بيت عليّ؟ قال: ياعمة، إني رأيت عليًا حين وَلِيَ الخلافة أحسنَ إلى بني العباس فولّى عبدَ الله البَصْرة، وعبيدَ الله اليمنَ، وقُثَمَ سمرقندَ، وما رأيت احداً من أهل بيتي حين أفضى الأمر إليهم كافئوه على فعله في ولده! فأحببت أن أكافيَه على إحسانه، فقالت له: يا أمير المؤمنين، إنك على بِرِّ بني — علي والأمرُ فيك — أقدرُ منك عَلَى بِرِّهم والأمرُ فيهم، ثم سألتْه تغييرَ لباس الخضرة فأجابها إلى ذلك، وأمر الناسَ بتغييره والعودِ إلى لباس السواد، ثم إن المأمون عفا عن عمه إبراهيمَ ابنِ المهدى ولم يؤاخذه وأحسن إليه وصار من ندمائه، وكذلك فعل مع الفضل ابن الربيع، وكان حليماً: كان يقول لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إليّ بالذنوب.

في أيامه خرج محمد بنُ جعفر الصادِق (عليهما السلام) بمكة. وبويع بالخلافة وسمّوه أمير المؤمنين. وكان بعضُ أهله قد حسّن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب يُقرَأ عليه العلم. وكان رَوَى عن أبيـه (عليه السلام) علماً جماً، فمكث بمكة مدة، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه فلم تُحْمَد سيرتهما، وأرسل المأمونُ إليهم عسكراً فكانت الغلبة له، وظفِر به المأمون وعفا عنه.

وفي أيامه خرج أبو السرايا وقويت شوكته ودعا إلى بعض أهل البيت، فقاتله الحسن بن سهل فكانت الغلبة للجيش المأموني وقُتِل أبو السرايا. ثم صفا المُلْك بعد ذلك للمأمون وسكنت الفتن، وقام المأمون بأعباء الخلافة وتدبير المملكة قيام حزماء الملوك وفضلائهم، وفي آخرها خرج إلى الثغر بطَرَسوس فمات به، وذلك في سنة ثماني عشْرةَ ومائتين، وفيه يقول بعض الشعراء: (خفيف)

ما رأينَا النجومَ أغْنَتْ عن المأ   مون في ظِلّ مُلْكِه المحروسِ
غادرُوه بعِرْصَتَيْ طَرَسُوسٍ   مثلما غادرُوا أباه بطُوسِ

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه بنو سهل ، وكانت دولتهم فى جبهة الدهر غُرّة ، وفى مفرق العصر درة . وكانت مختصرةَ الدولةِ البرمكية ، وهم صنائع البرامكة ، فالوزير الأول للمأمون منهم الفضل بن سهل .

﴿ وزارة ذى الرياستين الفضلِ بن سهل للمأمون ﴾

سُمِّىَ ذا الرياستين لجمْعِه بين السيف والقلم ، قالوا : كان الفضل بن سهل من أولاد ملوك الفرس المجوس ، وكان قَهْرَماناً ليحيى بن خالد ، وكان أبوه سهلٌ مجوسياً فأسلم فى أيام الرشيد ، قالوا : لما رأى الفضل بنُ سهل نجابة المأمون فى صباه ونظر فى طالعه (وكان خبيراً بعلم النجوم) فدلته النجوم على أنه يصير خليفة — لزِم ناحيته وخدَمَه ودبَّرَ أمورَه ، حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره .

كان الفضل سخياً كريماً ، يُجارِى البرامكة فى جوده ، شديد العقوبة سَهْلَ الانعطاف ، حليماً بليغاً عالماً بآداب الملوك ، بصيراً بالحيل جيد الحَدْس محصِّلاً للأموال ، وكان يقال له الوزيرُ الأميرُ .

كان مسلم بن الوليد الشاعر نديماً للفضل بن سهل قبل وزارته ، وكان قد أنشده قوله :

(سريع)

وقائلٍ ليسَتْ له هِمَّـةٌ   كلاَّ ولكن ليس لى مالُ

لاجِدَةٌ يَنْهَضُ عزمى بها   والناسُ سؤَّالٌ وبُخّـالُ

فاصبِر على الدهرِ إلى دولةٍ   يَرْفَعُ فيها حالَك الحـال

فلما علَتْ حالُ الفضل وتولى الوزارة ، قصَـده مسلمُ بن الوليد ، فلما رآه سرّ به وقال له : هذه الدولة التى يرفع فيها حالَك الحالُ ، وأمر له بثلاثين ألفَ درهم ، وولّاه بريدَ جُرْجان ، فاستفاد مِن ثَمَّ مالاً طائلاً ؛ قالوا كانت همة ذى

الرياستين عالية جداً من قبل أن يَعْظُم أمره ، قال له مؤدب المأمون يوماً فى أيام الرشيد : إن المأمون لجميلُ الرأى فيك ، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ألفُ ألفِ درهم ، فاغتاظ الفضل من ذلك وقال له : ألك علىّ حِقْد ؟ ألى إليك إساءة ؟ فقال له المؤدب : لا والله ، ما قلت هذا إلاّ محبةً لك . فقال : أتقول لى إنك تحصّل معه ألف ألف درهم ؟ والله ما صحبته لا كتسب منه مالاً قلّ أو جلّ ، ولكن صحِبْتُه ليَمْضِى حكمُ خاتمى هذا فى الشرق والغرب . قال : فوالله ما طالت المدة حتى بلغ ما أمّل . وقُتِل الفضل بن سهل على الصورة التى تقدم شرحُها ، وذلك فى سنة اثنتين ومائتين ، وفيه يقول الشاعر : (متقارب)

لفضل بنِ سهلٍ يدٌ ... يُقصِّر عنها المَثَلْ
فباطِنُها للنَّدَى ... وظاهرُها للقُبَل
وبسْطَتُها لِلْغِنَى ... وسَطْوَتُها للأجل

﴿ وزارة أخيه الحسن بن سهل للمأمون ﴾

استوزره المأمون بعد أخيه الفضل ومال إليه ، وتلافاه جبراً لمصابه بقتل أخيه ، وتزوّج ابنته بوران ، وانحدر فى أهله وأصحابه وعساكره وأمرائه إلى فم الصلح بواسِط ، فقام الحسن بن سهل فى إنزالهم قياماً عظيماً ، وبذل من الأموال ونثر من الدُّرر ما يفوت حدَّ الكثرة ، حتى إنه عمل بطاطيخ من عنبر وجعل فى وسط كل واحدة منها رُقْعة بضَيعَةٍ من ضياعه ونثرها ، فمن وقعت فى يده بطيخة منها فتحها ، وتسلَّم الضيعة التى فيها . وكانت دعوةً عظيمة تجاوز حدّ التجمل والكثرة ، حتى إن المأمون نسبه فى ذلك إلى السَّرَف ، وقالوا جملة ما أُخرج على دعوة فم الصلح خمسونُ ألفَ ألف درهم .

كان الحسن بن سهل قد فرش للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب ونثر عليه ألفَ لؤلؤة من كبار اللؤلؤ ، فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ! كأنه شاهدَ مجلسنا هذا حيث يقول : (بسيط)

كأنَّ صُغْرَى وكبرى من فَقَاقِعِها   حصباءُ درٍّ على أرضٍ من الذهبِ

قالوا قدِم رجل إلى باب الحسن بن سهل يلتمس صلته وعارِفَته فاشتغل عنه مُدَيْدة فكتب إليه : (بسيط)

المالُ والعقلُ مما يُسْتَعان بهِ   على المُقامِ بأبوابِ السلاطينِ
وأنتَ تعلمُ أنّى منهما عُطُلٌ   إذا تأمَّلْتَنِي يا ابنَ الدهاقين
أما تَدُلكَ أثوابى على عَدَمِى   والوجْهُ أنى رئيسٌ فى المجانين
واللهُ يعلمُ ما لِلمُلكِ من رَجُلٍ   سواكَ يَصْلُحُ للدنيا وللدِّين

فأمر له بعشرة آلاف درهم ووقّع فى رقعته (كامل)

أعجلتنا فأتاكَ عاجِلُ بِرِّنَا   قُلاًّ ولو أنظرتنا لم يَقْلِلِ
فخذ القليلَ وكن كأنك لم تَسَلْ   ونكونُ نحنُ كأننا لم نُسْأَلِ

وكان الحسن بن سهل أعظمَ الناس منزلة عند المأمون ؛ وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ؛ فكان إذا حضر عنده طاوله فى الحديث . وكلما أراد الانصرافَ منعه ، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقلت عليه الملازمة ، فصار يتراخى عن الحضور بمجلس المأمون ويستخلف أحد كتّابه كأحمدَ بن أبى خالد وأحمد بنِ يوسف وغيرِهما ، ثم عرضت له سوداء كان أصلُها جزَعَهُ على أخيه ، فانقطع بداره ليتطبب ، واحتجب عن الناس ، إلاّ أنه أعلى الخلق مكانة ، واستوزر المأمون أحمدَ بنَ أبى خالد ، فكان أحمد فى كل وقت يقصِد خِدمة الحسن بن سهل ، وإذا حضر الحسن دار

المأمون كان أعلى الناس مكانة ، ولما انقطع الحسن بن سهل بمنزله هجاه بعض الشعراء بقوله : (وافر)

تولَّتْ دولةُ الْحَسَنِ بنِ سَهْلٍ ولم أبلُلْ لَهَاتى من نَدَاهَا
فلا تَجزعْ عَلَى ما فاتَ منها وأَبْكَى اللهُ عيْنى مَنْ بَكاها

ومات الحسن بنُ سهل فى سنة ست وثلاثين ومائتين فى أيام المتوكل .

﴿ وزارة أحمد بن أبى خالد الأحول للمأمون ﴾

هو من الموالى ، كان أحمد جليل القدر من عقلاء الرجال ، وكان كاتباً شديداً فصيحاً لبيباً بصيراً بالأمور . قال له المأمون : إن الحسن بنَ سهل قد لزِم منزله ، وإننى أريد أن استوزرَكَ ، فتنصل أحمد من الوزارة ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أعفنى من التسمى بالوزارة ، وطالِبْنِى بالواجب فيها ، واجعل بينى وبين العامة منزلة يرجونى لها صديقى ويخافُنى لها عدوى ، فما بعد الغاياتِ إلاَّ الآفاتُ ، فاستحسن المأمون جوابه وقال لا بد من ذلك ، واستوزره .

كان المأمون لما ولّى طاهرَ بن الحسين خُراسان استشار فيه أحمد بن أبى خالد فصوَّب أحمدُ الرأى فى تولية طاهر ، فقال المأمون لأحمد : إنى أخاف أن يغدِر ويَخْلَع ويفارقَ الطاعة . فقال أحمد : الدَّرَكُ فى ذلك علىّ ، فولاه المأمون ، فلما كان بعد مدة أنكر المأمون عليه أمورًا ، وكتب إليه كتاباً يتهدّده فيه ، فكتب طاهر جواباً أغلظ فيه للمأمون ، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاثَ جُمَع ، فبلغ ذلك المأمونَ ، فقال لأحمد بن أبى خالد : أنت الذى أشار بتولية طاهر وضمِنتَ ما يصدر منهُ ، وقد ترى ما صدر منه من قَطْع الخطبة ومفارقة الطاعة ، فوالله لئن لم تتلطفْ لهذا الأمر وتُصْلِحْه كما أفسدته وإلاّ ضربت عنقك ! فقال أحمد :

يا أمير المؤمنين : طب نفساً ، فبعد أيام يأتيك البريدُ بهلاكه ، ثم إن أحمد بن خالد أهدى لطاهر هدايا فيها كوامخُ مسمومة ، وكان طاهر يحب الكامَخَ ، فأكل منها فمات من ساعته . وقيل : إن أحمدَ بنَ خالد لما تولى طاهر خراسان حسَب هذا الحساب فوهبهُ خادماً وناوله سمّاً ، وقال له متى قطَع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم فى بعض ما يحب من المآكل ، فلما قطع طاهر خطبة المأمون جعل الخادم له السم فى كامَخ فأكل منه فمات فى ساعته ، ووصل الخبر على البريد بموته إلى المأمون بعد أيام ، فكان ذلك مما عُظم به أمر أحمد بن أبى خالد .

ومات أحمدُ حَتْفَ أنفهِ سنة عشْرَةٍ ومائتين .

﴿ وزارة أحمد بن يوسف بن القاسم للمأمون ﴾

كان من الموالى ، وكان كاتباً فاضلاً أديباً شاعرًا فطِناً بصيراً بأدوات المُلْك وآداب السلاطين ، قالوا لما مات أحمدُ بن أبى خالد استشار المأمونُ الحسنَ بنَ سهلٍ فيمن يُوَليه الوزارة ، فأشار عليه بأحمد بن يوسف وأبى عبّاد بنِ يحيى ، وقال : هما أعْرَفُ الناس بطبع أمير المؤمنين ، فقال له : اختر لى أحدَهما ، فاختار له أحمدَ بنَ يوسف ، ففوّض المأمونُ إليه وزارته ؛ استشار المأمون أحمدَ بنَ يوسف فى رجل فوصفه أحمدُ بنُ يوسف وذكر محاسِنَه ، فقال له المأمون : يا أحمد ، لقد مدحتَه على سوء رأيك فيه ومعاداته لك ! فقال أحمد لأنى لك كما قال الشاعر :

(وافر)

كفَى ثمناً بما أسْدَيْت أنّى   صدَقتك فى الصديق وفى عِدائى
وأنّى حينَ تندُبُنِى لِأمرٍ   يكونُ هواكَ أغلبَ من هوائى

وله أشعار حسنة ، فمنها :   (كامل)

قلبى يُحِبُّك يا مُنَى   قلبى ويُبغضُ من يُحِبُّكْ

لِأَكُونَ فرداً فى هوا ك فليت شعرى كيف قلبُك

وأهدى يوم نَوْروز إلى المأمون هدية قيمتها ألف ألف درهم، وكتب معها (طويل)

على العبدِ حقٌّ فهو لا بدَّ فاعِله وإن عظم المَوْلى وجلَّت فواضِلُهْ

ألم تَرَنا نُهدِى إلى الله ما لَه وإن كانَ عنه ذا غنًى فهو قابله

فقال المأمون : عاقلٌ أهدى حَسناً . وكان سبب موته أنه دخل يوماً إلى المأمون والمأمونُ يتبخر، فأخرج المأمونُ المِجْمَرة من تحته وقال : اجعلوها تحت أحمد تكرمةً له، فنقل أعداؤه إلى المأمون أنهُ قال : ما هذا البخل بالبَخور؟ هلاّ أمَرَ لى ببخور مستأنف؟ فاغتاظ المأمون لذلك، وقال ينسُبنى إلى البخل وقد علم أن نفقتى فى كل يوم ستة آلاف دينار! وإنما أردت إكرامه بما كان تحت ثيابى! ثم دخل عليه وهو يتبخر مرة أخرى فقال المأمون : اجعلوا تحته فى مجمرة قِطَعَ عنبر وضموا عليه شيئاً يمنع البخار أن يخرج ، ففعلوا ذلك به ، فصبَر عليه حتى غلبه الأمر فصاح : الموتَ الموتَ ، فكشفوا عنه وقد غُشِىَ عليه ، فانصرف إلى منزله فمكث فيهِ شهوراً عليلا من ضيق النَّفَس حتى مات بهذه العلة ؛ وقيل بل مات كمداً لبادرة بدَرَتْ منه فاطَّرحه المأمون لأجلها .

﴿ وزارة أبى عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازى للمأمون ﴾

كان أبو عبّاد كاتباً حاذقاً بالحساب سريعَ الحركات أهْوجَ مُحَمَّقاً ، قالوا كان المأمون يُنْشِد إذا رآه مقبلا قول دِعْبِل فيه .

وكأنه من دَيْرِ هِرْقَلَ مُفْلَتٌ حَرِبٌ يجر سلاسل الأقيادِ

قيل للمأمون إن دِعْبلا الشاعرَ هجاك ، فقال من أقدم على هجاء أبى عباد كيف لا يهجونى ؟ ومعنى هذا الكلام من أقدم على هجاء أبى عباد مع هَوَجه وجنونه وحدته ، كيف لا يقدم على هجائى مع حلمى ومحبتى للصفح ؟

وكان أبو عباد شديد الحدَّة سريع الغضب، ربما اغتاظ مِن بعض مَنْ يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتَمه فأفحش ، فدخل إليه الغالبيّ الشاعر وأنشده (كامل)

لما أَنَخْنَا بالوزير ركابَنَا ... مستعصِمين بجودِه أعطَانا

ثَبَتَتْ رَحَامُلْكِ الامامِ بثابتٍ ... وأفاضَ فينا العدلَ والاحسانا

يَقْرِى الوفودَ طلاقةً وسماحةً ... والناكثين مُهنَّداً وسِنَانَا

مَن لم يَزَلْ للناسِ غيثاً مُمْرِعاً ... مُتَخَرِّقاً فى جُودِهِ مِعْوانَا

فلما وصل إلى قوله فى جوده وقف ، وأُرتِجَ عليه ، وصار يكرر فى جوده فى جوده مراراً حتى ضجر أبو عباد ، وغلبت عليه السوداء فقال : يا شيخ ، فقل صفعانا ، وخلّصْنا ، فضحك جميع من كان بالمجلس ، وذهب غيظه هو أيضاً فضحك مع الناس ، وأتم الغالبى قافيته بقوله معوانا ، ثم وصله

﴿ وزارة أبى عبد الله محمد بنِ يزدادَ بنِ سُوَيد
للمأمون ، وهو آخر وزرائه ﴾

هم من خُراسان كانوا مجوساً ثم أسلموا ، واتّصلوا بالخلفاء ، وسويدٌ أول من أسلم منهم ، وكان قد مات أبوه وهو صغير ، فأسلمته أمه إلى بعض كتاب العجم فنفذَ نفاذاً محموداً . وتعلم آداباً كثيرة من آداب الفرس . ثم واظب على ملازمة الديوان بمَرْو ، وحضر صاحبُ الديوان فى يوم مطير ، وتخلف جميع الكتاب والنواب عن الحضور ، وكان سويد جدُّ محمدٍ حاضراً ، فاحتاج صاحب الديوان إلى عمل حِسبة ، فلم يكن عنده بالديوان كاتب ، فتولى هو عملها بنفسه ، وشرع فيها فكتب بعضَها ثم غلبه نعاس وحانت منه التفاتة فرأى سويداً فسَلَّم الحِسبة إليه وقال له : احتفظ بها حتى أنتبه ، ثم نام صاحب الديوان فتصفح سويد الحسبة وتممها وبيَّضها فى نسخة حسَنة بخط مليح وضبْطٍ صحيح ، وانتبه صاحب الديوان وطلب منهُ

الحسبة فدفعها إليهِ فوجدها مفروغاً منها على أتمَّ قاعدة وأحسن وجه ، فقال : يا صبيّ من عمِلَ هذه الحسبة ؟ قال : أنا ، قال : أفتحسن الكتابة ؟ قال : نعم ، فأمره بلزوم سُدَّته التى كان فيها حسابه وأصولُ أعماله ، وما يجب أن يحتفظ به وقرر له معيشة ، وتنقَّل فى الخْدمات حتى حصّل أموالا جليلة وارتفع قدره ، ثم تأدب محمدٌ وبرَع فى كل شىء ، فاستوزره المأمون وفوّض إليهِ جميع الأمور ، وكان محمد شاعرًا فصيحاً ، فمن شعره : (وافر)

لقد فَتَنت بمقلتها فَتُونُ ‏ وَخانَتْ فى الهوى مَنْ لا يَخُونُ
وتَزْعمُ أننى أهْوَى سِوَاها ‏ فكيفَ وما تخطّتْها العيُون
أيا مَنْ حُبُّها فى القلب مِنى ‏ مكانَ الروحِ مستترٌ كمين
ويا من تدَّعى أنى خَئُونٌ ‏ وهذا فى هواها لا يكون
خذى عهدى عَلَى عَيْنِى وَطرْفِى ‏ وحسبُكِ ضامِناً أنّى أمين

ومات المأمون وهو وزيره . انقضت أيام المأمون ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده أخوه المعتصم أبو إسحاق محمد ﴾

بويع يوم وفاة المأمون ، وقد تقدم ذكر السنة ، كان المعتصم سديد الرأى شديد المُنَّة ، يحمل ألف رِطل ويمشى بها خُطُوات ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، وسمى المثمَّن من أحد عشر وجهاً : هو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وتولى الخلافة وعمره ثمانى عشْرَةَ سنة ، وكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر ، وتوفى وله ثمانٍ وأربعون سنة ، وولد فى شعبانَ وهو الشهرُ الثامن ، وخلَّف ثمانيةَ ذكور ، وثمانىَ بنات ، وغزا ثمانى غزوات ، وخلّف ثمانيةَ ألفِ ألفِ درهم .

كانت أيام المعتصم أيام فتوح وحروب ، هو الذى فتح عَمُّورية .

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان السبب فى غزو المعتصم عَمُّورية أن ملك الروم خرج إلى بلاد المسلمين فنهب حِصناً من حصونهم يقال له زِبَطْرة ، وقتل من به من الرجال وسبى الذرية والنساء ، فيقال إنه كان فى جملة السَّبْيِ امرأةٌ هاشمية ، فسُمِعت وهى تقول : وامعتصماه ! فبلغ المعتصمَ ما فعله ملكُ الروم بالمسلمينَ فاستعظمه وكَبُرَ عليه ، وبلغه ما قالت الهاشمية فقال وهو فى مجلسه لبيك لبيك ، ونهض من ساعته وصاح فى قصره الرحيلَ الرحيلَ ، ثم ركب دابته وسَمَّط خلفه شِكالاً وسكةَ حديد وحقيبةً فيها زاده ، ثم برز وأمر العساكر بالتبريز ، وتجهز تجهُّزاً لم يتجهز بمثله خليفة ، فلما اجتمعت عساكره وفَرَغ من تجهيزه وعزم على المسير أحضر القضاة والشهود فأشهدهم أنه قد وقف أملاكه وأمواله على ثلاثة أثلاث : ثلث لله تعالى ، وثلث لولده وأَقاربه ، وثلث لمواليه ، ثم سار فظفِر ببعض أهل الروم فسأله عن أحْصَنِ مدنهم وَأَعظمِها وأعزِّها عندهم ، فقال له الرومى : إن عمورية هى عينُ بلادهم ، فتوجه المعتصم إليها وجمع عساكره عليها وحاصرها ثم فتحها ودخل إليها وقتل فيها وفى بلادهم ، وسبَى وأسَر وبالَغ فى ذلك حتى هدم عمورية وعفَّى آثارَها ، وأخذ باباً من أبوابها ، وهو باب حديد عظيمُ الحجم ، فأحضره إلى بغدادَ وهو الآن على أحد أبواب دار الخلافة يسمى باب العامة ، وكان قد صحِبَه أبو تمام الطائى فمدحه بقصيدته البائية التى أولها : (بسيط)

السيف أَصْدَقُ أنباءً من الكتبِ ... فى حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعبِ

وفيها يقول للمعتصم :

خليفةَ الله جازَى اللهُ سعيَك عَنْ ... جُرْثُومةِ الدينِ والإسلامِ والحسبِ
بصُرتَ بالراحة الكبرى فلم تَرَها ... تُنَالُ إلاّ على جسرٍ من التعب

ومن جملتها ما يشير به إلى مبالغة المعتصم فى قتالهم واستئصاله إياهم :

لم تطلُعِ الشمسُ منهم يومَ ذاكَ علَى   بانٍ بأهلٍ ولم تغرُبْ على عَزَبِ

ومن جملتها ما يدل على شدة ما كان عنده من الحِقْد عليهم وهو قوله :

ما رَبْعُ مَيَّةَ معموراً يُطِيفُ بِه   غَيْلانُ أبهى رُبًى من ربعكِ الخَرِبِ

ولا الخدودُ وإنْ أُدْمين من خَجَلٍ   أشْهَى إلى ناظِرِى من خَدِّكِ التَرِبِ

وكانت وقعة عمورية فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين .

والمعتصم هو الذى بنى سُرَّ مَنْ رأى .

﴿ شرح السبب فى بناء سامرّا وكيفية الحال فى ذلك ﴾

كانت بغداد دارَ الملك ، وبها سرير الخلافة من بَعْد المنصور ، إلاّ أن هارون الرشيد أحب الرَّقة بالشأم فأقام بها ، ومع ذلك فكانت الرَّقة كالمتنزه ، وقصوره وخزائنه ونساؤه وأولاده ببغداد بقصر الخلد ، ومن ولِىَ بعده من الخُلفاء كان سريرَ ملكهم ببغدادُ .

فلما كانت أيامُ المعتصم خاف من بها من العسكر ولم يثِق بهم ، فقال : أطلبوا لى موضعاً أخْرُجُ إليه وأبْنِى فيه مدينة وأُعَسْكِر به ، فإن رابنى من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة ، وكنت قادراً على أن آتيهم فى البر وفى الماء ، فوقع اختياره على سامرّا فبناها وخرج إليها .

وقيل إن المعتصم استكثر من المماليك ، فضاقت بهم بغداد وتأذى بهم الناسُ وزاحموهم فى دورهم ، وتعرضوا بالنساء ، فكان فى كل يوم ربما قُتِل منهم جماعه ، فركب المعتصم يوماً فلقِيَهُ رجل شيخ ، فقال للمعتصم : يا أبا إسحاق ، فأراد الجند ضرْبَه فمنعهم المعتصم ، وقال له : ما لَكَ يا شيخ ، فقال : لا جزاكَ الله

خيراً عن الجوار ! جاورتنا مدة فرأيناكَ شرَّ جار ، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا ، فأيتمْتَ بهم صبياننا ، وأرْمَلْتَ نساءنا ، والله لنقاتلنّك بسهام السَحَر ، (يعنى الدعاء) ، والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ولم يُرَ راكباً إلاّ فى يومٍ مثلِ ذلك اليوم ، فركب وصلى بالناس العيدَ ، وسار إلى موضع سامرّا فبناها ، وكان ذلك فى سنة إحدى وعشرين ومائتين .

ولما مرض المعتصم مَرْضته التى مات فيها نزل فى سفينة ومعه زُنام الزامر وكان أوْحَدَ وقتهِ ، فجعل يجتاز على قصوره وبساتينه بشاطىء دِجلة ويقول لزنام : ازمُرْ :

(سريع)

يا منزلا لم تبلَ أطْلالُهُ ... حاشا لأطلالكَ أنْ تبْلَى

لم أبكِ أطلالكَ لكِنَّنى ... بَكَيْتُ عيشِى فيك إذ وَلَّى

والعيشُ أحلى ما بكاه الفتَى ... لا بد للمحزونِ أن يَسْلَى

ولما احتُضِر جعل يقول : ذهبت الحيل ليست حيلة ! ثم مات ، وذلك فى سنة سبع وعشرين ومائتين .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أولُ وزرائه كاتبهُ قبلَ الخلافة الفضلُ بنُ مروان . كان من البَرَدان ، وكان عامياً لا علم عنده ولا معرفة ، وكان ردىء السيرة جهولاً بالأمور ، وفيه يقول بعض شعراء عصره : (طويل)

تفرْعَنْتَ يا فضلُ بنَ مروانَ فاعتبرْ ... فقبْلَكَ كَانَ الفضلُ والفضلُ والفضلُ

ثلاثةُ أملاكٍ مَضَوْا لسبيلِهِمْ ... أبادَهُمُ التَّقييدُ والأسْرُ والقَتْلُ

الثلاثة هم الفضل بن يحيي بن خالد ، والفضل بن سهل ، والفضل بن الربيع ، وكان الفضل بنُ مروان قد تمكن من المعتصم وحسَدَه الناس على منزلته عنده ،

ثم نكبه وأخذ جميع أمواله وعفّ عن نفسه ، فبقى مدة يتنقل فى الخدمات حتى مات فى أيام المستعين .

﴿ وزارة أحمد بن عمّار بن شاذى للمعتصم ﴾

ثم وَزَر له أحمدُ بنُ عمار ، كان رجلاً موسراً من أهل المذار ، فانتقل إلى البصرة واشترى بها أملاكاً وكثُر ماله ، وكان طحاناً ، ثم أصْعَدَ إلى بغداد واتسع بها حاله . فقالوا كان يُخرِج فى الصدقة كلّ يوم مائةَ دينار ، وكان الفضلُ بن مروان قد وصفه بالأمانة عند المعتصم ، فلما نُكِبَ الفضل لم يقع نظر المعتصم على غير أحمدَ بنِ عمار فاستوزره ، وكان جاهلاً بآداب الوزارة ، وفيه يقول بعض شعراء عصره : (سريع)

سبحان ربِّى الخالقِ البارى　　صرتَ وزيراً يا ابنَ عمَّارِ
وكنْتَ طحاناً على بَغْلَةٍ　　بغير دُكان ولا دار
كفرتُ بالمِقدار إن لم تكن　　قد جُزْتَ فى ذا كلّ مِقدار

فمكث مدة فى وزارة المعتصم حتى ورد كتابٌ من بعض العمال يذكر فيهِ خِصْب الناحية وكثْرَةَ الكلأ ، فسأل المعتصم أحمدَ بن عمارٍ عن الكلأ فلم يدر ما يقول ، فدعا محمدَ بن عبد الملك الزياتَ ، وكان أحدَ خواصه وأتباعه فسأله عن الكلأ ، فقال : أوّلُ النبات يسمى بَقلاً ، فإذا طال قليلاً فهو الكلأ ، فإذا يبِس وجفّ فهو الحشيش ، فقال المعتصم لأحمد بن عمار : انظر أنت فى الدواوين وهذا يَعْرِضُ علىّ الكتب ، ثم استوْزَره ، وصرف ابنَ عمار صرفاً جميلاً .

﴿ وزارة محمد بن عبد الملك الزيات للمعتصم ﴾

كان أبوه تاجراً فى أيام المأمون موسراً ، ونشأ محمد فتأدب وقرأ وفهم ، وكان ذكياً فبرَع فى كل شىء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخِبْرَة بآداب الرياسة وقواعد الملوك ، حتى كانت أيامُ المعتصم فاستوزره على ما تقدم شرحه ، فنهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تَقَدَّمَهُ من أضرابه ، وكان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشِن الجانب مُبَغَّضاً إلى الخلق ، ومات المعتصم وهو وزيره ، وكان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال وأحاله به عَلى ابن الزيات فمنعَه ، وأشار عَلَى المعتصم ألا يعطيَه شيئاً فقبِل المعتصم قوله ورجَع فيما كان أمر به للواثق من ذلك ، فكتب بخطه كتاباً بالحج والعتق والصَّدَقة أنه إن وَلِىَ الخلافة ليقتلنّ ابن الزيات شر قِتلة .

فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ذكر حديثَ بن الزيات ، فأراد أن يعاجِلَه فخاف ألاّ يجدَ مثلَه ، فقال للحاجب : أدخِل إلىّ عشرة من الكتاب ، فلما دخلوا عليهِ اختبرهم فما كان فيهم من أرضاه ، فقال للحاجب : ادْخِل مَنِ الملكُ محتاجٌ إليه محمدَ بن الزيات ، فأَدْخَلَه ، فوقف بين يديه خائفاً ، فقال لخادم : أحضِر إلىّ المكتوب الفلانى ، فأحضر لهُ الكتاب الذى كان كتبَه وحلف فيه ليقتلنّ ابن الزيات ، فدفعه إلى ابن الزيات وقال : اقرأه ، فلما قرأه قال : يا أمير المؤمنين ، أنا عبدٌ إن عاقبتَهُ فأنت حاكم فيه ، وإن كفرت عن يمينك واستبقيتَـهُ كان أشبه بك ، فقال الواثق : والله ما أبقيتُك إلاّ خوفاً من خُلوّ الدولة من مثلِك ! وسأ كفرّ عن يمينى ، فانى أجد عن المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً ، ثم كفرّ عن يمينه واستوْزره وقدَّمه وفوَّض الأمور إليهِ . وكان ابن الزيات شاعراً مُجيداً فمن شعره يرْثى المعتصم ويمدح الواثق :

(منسرح)

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطفقتْ عليكَ أيدٍ بالماء والطينِ
إذهبْ فنِعْمَ المعينُ أنتَ على الـدُّنيا ونِعْمَ المعينُ للدِّين
لا يَجبُرُ الله أمة فقدَتْ مِثْلَكَ إلّا بمثلِ هارونِ

ثم إن محمدَ بن عبد الملك الزيات مكث فى وزارة الواثق مدة خلافته لم يستوزر غيره حتى مات الواثق ، ووُلِّىَ أخوه المتوكل فقبض عليه وقتله .

قيل : إن ابنَ الزيات عمِل تَنُّورًا من حديد ومساميرُه إلى داخلٍ ليعذِّب بهِ من يريد عذابه ، فكان هو أولَ من جُعل فيهِ ، وقيل له : ذق ما كنت تريد أن تُذيق الناس ! انقضت أيام المعتصم ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنه هارونُ الواثقُ بويع سنة سبع وعشرين ومائتين ﴾

كان الواثق من أفاضل خلفائهم ، وكان فاضلاً لبيباً فطناً فصيحاً شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون فى حركاتهِ وسكناتهِ ، ولما وَلِىَ الخلافة أحسن إلى بنى عمه الطالبيين وبَرَّهم ، ولم يقع فى أيامهِ من الفتوح الكِبار والحوادثِ المشهورة ما يُؤثر .

ومات الواثق فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامهِ ﴾

لم يستوزر الواثق سوى محمدِ بنِ عبد الملك الزيات وزيرِ أبيه ، وقد سبق طرَف من حاله ، ومات الواثق وهو وزيره . انقضت أيام الواثق .

﴿ ثم ملك بعده أخوه جعفر المتوكل ﴾

كان المتوكل شديدَ الانحراف عن آل علىّ (عليه السلام) وَفعل مِنْ حَرْثِ قبر الحسين (عليهِ السلام) ما فَعل ، وأبى الله إلاّ أن يُتِمَّ نوره ، وقال من يعتذِر له : إنهُ كان كأخيه وكالمأمون فى الميل إلى بنى علىّ (عليهِ السلام) وإنما كان حوله جماعةٌ منحرفون عن أهل البيت (عليهم السلام) فكانوا دائمًا يحملونه على الوقيعة

فيهم ، والأول أصح ، ولا ريب أنه كان شديد الانحراف عن هذه الطائفة ، ولذلك قَتَله ابنُه غَيْرَة وحميَّة .

﴿ شرح مقتله على سبيل الاختصار ﴾

كانت بينه وبين ابنه المنتصر مباينة ، وكان كل منهما يكره الآخر ويؤذيه ، فاتفق المنتصر مع جماعة من الأمراء على قتله وقتل الفتح بن خاقانَ ، وكان أكبرَ أمرائه وأفضلَهم ، فهجموا عليهِ وهو يشرب فخبطوه بالسيوف فقتلوه وقتلوا الفتح معه ، وأشاعوا أن الفتح قَتَله فقتلناه به ، وجلس ابنه على السرير بعده . وذلك فى سنة سبع وأربعين ومائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر محمدَ بنَ عبد الملك الزيات أياماً ، ثم نكبه وقبض عليهِ وقتَله كما تقدم شرحه ، ثم استكتب رجلاً من كُتَّابه يقال لهُ أبو الوزير من غير أن يسميَه بالوزارة ، فكتب لهُ مديدة يسيرة ، ثم نكبه وأخذ منه مائتى ألف دينار واستوزر الْجَرْجَرَائِىّ .

﴿ وزارة أبى جعفر محمد بن الفضل الجرجرائىّ للمتوكل ﴾

كان شيخاً ظريفاً حسَنَ الأدب عالماً بالغناء مشتهرًا به ، نخف على قاب المتوكل فاستوْزره مديدة ، ثم كثُرَت السعايات به ، فعزله المتوكل ، وقال : قد ضجرت من المشايخ ، أريد حَدَثاً أستوْزره ، فأشير عليه بعبيد الله بن يحيى بن خاقان .

﴿ وزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان ﴾

كان عبيد الله حسَن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء ، إلّا أنه كان مخلِّطاً ، وكان مجدوداً ، فكانت سعادته تغطى عيوبه ، وكان كريماً حسَن الأخلاق ،

وكان كرمه أيضاً يستر كثيراً من عيوبه ، وكان فيه تعفف ، قيل : إن صاحب مصر حمل إليهِ مائتى ألف دينار وثلاثين سَفَطًا من الثياب المصرية ، فلما احْضِرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر : لا والله لا أقبلها ولا أثقل عليه بذلك ، ثم فتح الأسفاطَ وأخذ منها منديلاً لطيفاً وضعه تحت فخذه ، وأمر بالمال فحُمِل إلى خزانة الديوان وصُحِّح بها ، وأخذ بهِ دُوراً لصاحب مصر .

وكانت سيرةُ عبيد الله هيّنة والجندُ يحبونه ، فلما جرت الفتنة عند قتل المتوكل خاف عبيد الله ، فاجتمع الجند على بابهِ وقالوا له : أنت أحسنت إلينا فى حال وزارتك ، وأقلُّ ما يجب لك علينا أن نحتفِظَ بك ونحرسَك فى مثل هذه الفتنة ، ولازموا بابه وحفِظوه . ومات المتوكل وهو وزيره . انقضت أيام المتوكل ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنهِ محمد المنتصر ﴾

بويع فى صبيحة الليلة التى قتل أبوه بها ، كان المنتصر شهماً فاتـكا سفّاكا للدم ، لما قتل أباه تحدّث الناس بأنه لا يطول له العمر بعده ، وشبهوه بشيرَوَيْه بنِ كسرى حين قَتَل أباه ولم يستمتع بالملك بعده ، قالوا : لما قَتَل المنتصر أباه وبويع له بالخلافة جلَس على بساط لم ير الناس مثلَه وعليهِ كتابة عجيبة بالفارسية ، فنظر إليها المنتصر واستحسنها ، وقال لمن حضر : هل تعرفون معناها ؟ فأحجموا وقالوا : لا نعرف ، فاستحضر رجلاً عجميًّا غريباً وأمره بقراءتها ، فأَحجم الرجل ، فقال له المنتصر : قل وما عليك باس ، فليس لك ذنب ، فقال الرجل : على هذا البساط مكتوب : أنا شيرَوَيْه بنُ كسرى ، قتلت أبى فلم أتمتع بالملك بعده إلاّ ستةَ أشهر ، فتطَيَّر المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه مُغضَباً ، فلم تتم ستَّةُ أشهر حتى مات ، وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومائتين .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة استوزر كاتبه أحمدَ بنَ الخصيب .

﴿ وزارة أحمدَ بنِ الخصيب للمنتصر ﴾

كان أحمدُ مقصِّرًا فى صناعته ، مطعونًا عليهِ فى عقله ، وكانت فيه مروءة وحِدَّة وطيش ، فمن احتمله بلغ منهُ ما أراد ، فعَرض له رجل من أرباب الحوائج وألَحَّ عليهِ حتى ضايقه وضغط رجلَه بالركاب ، فاحتد أحمد وأخْرَجَ رجله من الركاب ورَكَله بها فى صدره ، فقال فيه بعض الشعراء : (كامل)

قلْ للخليفةِ يا ابنَ عمِّ محمدٍ ... أُشْكُلْ وزيرَكَ إنه ركَّالُ
قد نالَ من أعراضِنا بلسانِهِ ... ولرِجْلِهِ عند الصدورِ مَجَال

ومات المنتصر وأحمدُ بنُ الخصيب وزيرُه . انقضت أيام المنتصر .

﴿ ثم ملك بعده المستعين هو أحمد بن محمد بن المعتصم ﴾

لما مات المنتصر اجتمع الأمراء وأكابر المماليك وقالوا : متى وَلَّيْنَا أحداً من وَلَد المتوكل طالبنَا بدمه وأهلَكنا ، فأجمعوا على مبايعة المستعين وقالوا : هو ابنُ ابنِ مولانا المعتصم ، فإذا بايعناه لم تخرج الخلافة من وَلَد المعتصم ، فبايعوه فى سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وكانت تلك أيامَ فتن وحروب وخروجِ خوارجَ ، فمن خرَج فيها قتيلُ شاهى أبو الحسين يحي بنُ عمر بنِ يحى بنِ الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (عليهم السلام) .

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان يحي بنُ عمر قتيلُ شاهى قدِم من خُراسان فى أيام المتوكل وهو فى ضائقة وعليهِ دَيْن ، فكلَّم بعضَ أكابر أصحاب المتوكل فى ذلك ، فأغلظ له

وحبَسه بسَامرًّا ، ثم كفَله أهلُه فأُطْلِق وانحدر إلى بغداد ، فأقام بها مدة على حال غير مرضية من الفقر ، وكان (رضى الله عنهُ) دَيِّنًا خيِّرًا عمَّالا حسَنَ السيرة ، فرجَع إلى سامرا مرة ثانية ، وكلَّم بعضَ أمراء المتوكل فى حاله ، فأغاظ له وقال : لأى حال يُعطَى مثلك ؟ فرجَع إلى بغداد وانحدر منها إلى الكوفة ، ودعا الناس إلى الرضا من آل محمد ، فتبعه ناسٌ من أهل الكوفة من ذوى البصائر فى التشيع وناسٌ من الأعراب ، ووثَب فى الكوفة وأخذ ما فى بيت المال ففرَّقَه على أصحابه ، وأخرج مَنْ فى السجون وطرَدَ عن الكوفة عاملَها ، وكثرت جموعُه ، فأرسل إليه أميرُ بغداد وهو محمد بنُ عبد الله بنِ طاهر عسكراً فالتقَوْا بشاهى ، وهى قريةٌ قريبةٌ من الكوفة ، فكانت الغلبة لعسكر بن طاهر ، وانكشف الغبار ويحي بنُ عمر قتيلٌ ، فحُمِل رأسُه إلى محمدِ بنِ عبد الله بن طاهر ببغداد ، فجلس محمدُ بنُ عبد الله ابن طاهر للهناء بذلك ، فدخل عليهِ الناس أفواجاً يهنئونه ، وفى جملتهم رجل من ولد جعفر بنِ أبى طالب (عليهم السلام) ، فقال له : أيها الأمير ، إنك لتُهنَّأ بقتل رجل لو كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حياً لعُزِّى بِهِ ، فأطرق محمد بن عبد الله ساعة ثم نهض وصرف الناس ، ورثاه الشعراء ، فممن رثاه ابن الرومى بجيميته التى أولها : (طويل)

أمامَكَ فانظُرْ أىَّ نهجَيْك تنهجُ   طريقانِ شتَّى مستقيمٌ وأعوجُ

منهــا :

سلامٌ وريحَانٌ ورَوْحٌ ورحمـةٌ   عليكَ وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ
ولا برِحَ القاعُ الذى أنتَ جارُهُ   يَرِفُّ عليهِ الأقحوانُ المفلَّجُ

وهى قصيدة شاعرة تناول فيها بنى العباس بأشياء تركناها تحرُّجاً ، وكانت

وقعةُ شاهى فى سنة خمسين ومائتين ، وخرج عليه غيرُه من الطالبيين ، فكانت الغلبة فى جميع تلك الحروب له .

واعلمْ أن المستعين كان مستضعَفاً فى رأيه وعقله وتدبيره ، وكانت أيامُه كثيرةَ الفتن ودولتُه شديدةَ الاضطراب ، ولم يكن فيه من الخصال المحمودة إلاّ أنه كان كريماً وهُوباً ، وخُلِع فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، ثم قتل بعد ذلك

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما وُلِّىَ المستعين أقرَّ احمدَ بنَ الخصيب على وزارته شهرين ، ثم استوزر بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد

﴿ وزارة أبى صالح بن محمد بن يزداد ﴾

كان عنده أدب وفضل ، وكانت توقيعاتُه وأجوبتهُ من أحسن التوقيعات والأجوبة .

ومن توقيعاته إلى رجلٍ « ليس عليك بأس ما لم يكن منك بأسٌ »

قالوا : ولما تولى أبو صالح بنُ يزدادَ الوزارة للمستعين ضبَط الأموال ، فصعُب ذلك على أمراء الدولة وكان قد ضيَّق عليهم ، فتهددوه بالقتل فهرب ، ثم اختلفت الأحوال ، واستكتب المستعينُ تارةً محمدَ بنَ الفضل الجرجرايى وشجاعَ بن القاسم ، لكن لم يتسَمّ أحد منهما بالوزارة ، ولم تطل تلك الأيام وكانت ذات فتنٍ وحروب واختلاف كثير . انقضت أيام المستعين ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده المعتز بالله ﴾

هو أبو عبد الله محمد بن المتوكل ، بويع بالخلافة سنة اثنتين وخمسين ومائتين عقيب خلع المستعين . وكان المعتز جميل الشخص حسن الصورة ، ولم يكن

بسيرته ورأيه وعقله بأس ، إلاّ أن الأتراك كانوا قد استولَوْا منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوْه ، وإن شاءوا خلعُوه ، وإن شاءوا قتلوه

لما جلَس المعتز على سرير الخلافة قعَد خوَاصُّه وأحضروا المنجِّمين ، وقالوا لهم : انظروا كم يعيش؟ وكم يبقى فى الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعضُ الظرفاء فقال : أنا أعرَفُ من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ، فلم يبق فى المجلس إلاّ من ضَحِك .

وفى أيام المعتز ظهر يعقوبُ بنُ الليث الصفّار ، واستولى على فارس وجمع جموعاً كثيرة ، ولم يقدر المعتز على مقاومته ، ثم إن الأتراك ثاروا بالمعتز وطلبوا منهُ مالاً فاعتذر إليهم ، وقال : ليس فى الخزائن شىء ، فاتفقوا على خلعه وقتله ، فحضروا إلى بابه وأرسلوا إليه وقالوا له اخرُجْ إلينا ، فاعتذر بأنه شرِب دواء ، فهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، وخرّقوا قميصه وأقاموه فى الشمس ، فكان يرفع رِجْلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضُهم يلطِمه وهو يتّقِى بيده ، ثم جعلوه فى بيت ، وسدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلَع نفسه ، وذلك فى سنة خمس وخمسين ومائتين .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه أبو الفضل جعفرُ بنُ محمودٍ الاسكافىّ .

﴿ وزارة الاسكافى للمعتز ﴾

لم يكن له علم ولا أدب ، ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا ، وكان المعتز يكرهه ، وكانوا ينسُبونه إلى التشيع ، ومال إليه بعض الأتراك وكرِهه البعض الآخر ، وثارت بسببه فتنة ، فعزله المعتز .

﴿ وزارة أبي موسى عيسى بن فرخان شاه للمعتز ﴾

كان كريماً ، قيل عنه : إنهُ كان قبل الوزارة يتولى بعضَ الدواوين فعُزِلَ عنهُ وله به استحقاقٌ مبلغهُ ألفُ دينار ، فتلطَّفَ بالذى تولى بعده حتى كَتب له وأحاله بذلك على بعض النواب ، فلما حصَل المـال كتب ذلك النائبُ إلى عيسى ابن فرخان شاه يُعلِمهُ أن المال قد حصَل ، ويستأذنه فى حمله إليه ، وكان صديقاً له ، فكتب إليه : إن فلاناً الشاعرَ لازمنى مدة ، وما حصل له من جهتى شىء ، فادفع هذا المالَ إليه ، فدفع المالَ إلى الشاعر فأخذه وانصرف ، وجرت بسببه أيضاً فتنةٌ بين الأتراك ، فعزله المعتز .

﴿ وزارة أبي جعفر احمدَ بن إسرائيلَ الأنبارىّ للمعتز ﴾

كان أحدَ الكتاب الحُذّاقِ الأذكياء ، قالوا كان يحفظ وجوه المال جميعَها دخلاً وخَرْجاً على ذِهْنه ، وقالوا إنهُ ضاعَتْ مرةً حِسبة من الديوان فأوردها من خاطره ، فلما وُجدَتْ الحِسْبة كانت كما قال من غير زيادة ولا نقيصة ، ثم إنّ الأتراك وثبوا على أحمدَ بن إسرائيل فأخذوه وضربوه واستصفَوْا أمواله ، وشفع فيه المعتز وأمُّه إلى متقدم الأتراك وهو صالحُ بنُ وصيف ، فلم يلتفت إليهما وحبَسه ، وضرَبه بعد ذلك فى أيام المهتدى حتى مات .

ولمَّا فعَل صالح بن وصيف بأحمد بن إسرائيلَ ما فعل استحضر جعفرَ بن محمودٍ الاسكافىّ واستوزره للمعتز ثانية ، وقد سبق ذكره ، ولما تولى الوزارة فى المرة الثانية قال بعض الشعراء : (منسرح)

يا نفسُ لا تُولَعِى بتَفْنيدِ   وَعلِّلِى القلبَ بالمواعيـدِ
وانْتَظِرِى قد رأيتِ ما ساقَهُ اللّـهُ إلى جعفرِ بنِ محمودِ

انقضت أيام المعتز ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده المهتدى بالله ﴾

هو أبو عبدِ الله محمدُ بنُ الواثق، كان المهتدى من أحسنِ الخلفاء مذهباً وأجملِهم طريقةً وسيرةً وأظهرِهم ورعًا وأكثرِهم عبادة ، كان يتشبه بعمرَ بن عبد العزيز ، ويقول : إنى أستحيي أن يكون فى بنى أميةَ مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس ، وكان يجلس للمظالم فيحكم حكماً يرتضيه الناس ، وكان يتقلل فى مأكوله وملبوسه .

حدّث بعض الهاشميين قال : كنت عند المهتدى فى بعض ليالى رمضان ، فقمت لأنصرف ، فأمرنى بالجلوس فجلست ، حتى صلى المهتدى بنا المغربَ ، ثم أمر بإحضار الطعام ، فأُحضِرَ طبقُ خِلاف وعليه رُغْفان ، وفى إناء ملحٌ ، وفى إناء خلّ ، فأكل وأكلتُ أكلاً مقصِراً ظناً منى أنه يحضرُ طعامٌ أجودُ من ذلك ، فلما رأى أكلى كذلك قال : أما كنت صائماً ؟ قلت : بلى ، قال : أفلَسْتَ تريد الصوم غداً ؟ قلت : وكيف لا وهو شهر رمضان ! فقال : كل واستوف عَشاءك ، فليس ها هنا غيرُ ما ترى ، فعجبت وقلت : لِمَ ذلك يا أمير المؤمنين ، وقد أسبغ الله عليك نِعَمَه ووسع رزقه ؟ فقال : إن الأمر كما تقول والحمد لله ، ولكنى كرِهت أن يكون فى بنى أميــــة مثلُ عمرَ بنِ عبد العزيز وألاّ يكونَ فى بنى العباس مثله .

وكان المهتدى قد اطَّرَحَ الملاهىَ وحرّم الغِناء والشراب ومنع أصحابه من الظلم والتعدى

فى أيام المهتدى خرج صاحب الزَّنْج ، وسيَرِدُ خبرُه فى أيام المعتمد إن شاء الله (تعالى) .

كان المهتدىَ قَتل بعضَ الموالى فشَغِب عليه الأتراك وهاجوا ، وأخذوه

أسيراً ، وعذّبوه ليخلع نفسه فلم يفعل ، فخلعوه هم ومات . وذلك فى سنة ست وخمسين ومائتين .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقرَّ جعفرَ بنَ محمودٍ الاسكافىّ على وزارته ، ثم عزَله واستوزر سليمانَ بنَ وهْب .

﴿ وزارة سليمان بن وهب بن سعيد للمهتدى ﴾

هم من قرية من أعمال واسط ، وكانت لهم كفاية ، وكانوا نصارى ثم أسلموا ، وخدموا فى الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى ما آلت

كان أبو أيوب سليمانُ بنُ وهب أحدَ كُتَّاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة فى الدرج والدستور ، وأحدَ عقلاء العالم وذوى الرأى منهم

حدث ابنه عبيدُ الله قال : حدثنى أبى قال : كان مبدأ سعادتى أنى كنت وأنا صبىٌّ بين يدى محمدِ بنِ يزدادَ وزيرِ المأمون ، وكنا جماعة من الصبيان بين يديه ، إذا راح فى الليل إلى داره بات واحد منا فى دار المأمون بالنَّوْبة لمُهِمٍّ عساه يعرِض فى الليل ، قال : فكانت ليلةُ نوبتى ، فخرج خادم وقال : ها هنا أحدٌ من نواب محمد بن يزداد ؟ فقال الحجاب له : نعم ، ها هو ذا ، فأدْخلَنى إلى المأمون ، فقال لى : اعمل نسخة فى المعنى الفلانى ، ووسِّعْ بين سطورها وأَحْضِرها لأصلحَ منها ما أريدُ إصلاحهُ ، قال : فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيَّضْتُه وأحضرته إليه ، فلما رآنى قال : كتبتَ النسخةَ ؟ قلت : بل كتبْتُ الكتاب ، فقال : بيَّضْتَه ؟ قلت : نعم ، فزاد فى نظره إلىَّ كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ، ورفع رأسه إلىَّ وقال : ما أحسَنَ ما كتبتَ يا صبى !

ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هــذا السطر ، وخط عليهما بقامه ، فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ، ثم محوت السطرين وعملت ما أراد ، وجئته بالكتاب ، وكان قد ظن أنى أبْطِله وأكتب غيره ، فلما قرأه لم يعرف موضعَ المَحْو فاستحسَنه وقال : يا صبيّ ، لا أدرى من أى شىء أعجب ! أمن جودة محوك ، أم من سرعة فهمك ، أم من حسن خطك ، أم من سرعتك ، بارك الله فيك ، فقبّلت يده وخرجت ، وكان ذلك أولَ عُلوِّ منزلتى ، وصار المأمون لا يجرِى مُهِمٌّ إلاّ قال : هاتوا سليمانَ بن وهب ، ولما جرت له هذه القضية كتب إليه بعض الشعراء :

(بسيط)

أبوكَ كلَّفَكَ الشَّأوَ البعيدَ كما ... قِدْماً تَكَلَّفَهُ وَهْبٌ أبو حَسَنِ

فلسْتَ تُحْمَدُ إن أدركتَ غايته ... ولستَ تُعذَر مسبوقاً فلا تَهِن

حدَّث أحمد بن المدبر قال : كنا فى حبس الواثق أنا وسليمان بن وهب وأحمد بن إسرائيل مطالَبين بالأموال ، فقال لنا سليمان بن وهب يوماً : قد رأيت فى المنام كأن قائلاً يقول لى : يموت الواثق بعد شهر ، فاستغاث أحمد بن إسرائيل وقال له : والله لا تزالُ حتى تُسفَك دماؤنا ! وخاف أشدَّ خوف أن يَشيع هذا الحديث عنا ، قال ابن المدبر : فعددت من ذلك اليوم ثلاثين يوماً ، فلما كان يوم ثلاثين قال لى أحمد ابن إسرائيل : أين مِصداقُ القول وصحةُ المنام ؟ وكان قد حصر التاريخَ وحسَب ونحن لا نعلم ، فقال له سليمان بن وهب : الرؤيا تَصْدُق وَتكذب ، فلما كانت العِشاء الآخرة إذ طَرق الباب علينا طرقاً شديداً وصائح يصيح : البشارةَ البشارةَ ، مات الواثق ، فاخْرُجوا أين شئتم ، فضحك أحمد بن إسرائيل وقال : قوموا فقد تحققت الرؤيا وجاء الفرج ، فقال سليمان بن وهب : كيف نقدر أن نمشى مُشاة ومنازلنا بعيدة ، ولكن نبعثُ فنحضرُ دوابَّ نركبُها ، فاغتاظ

أحمد بن إسرائيل وقويت السوداء عليه ، وكان شكس الأخلاق وقال له : ويحك يا سليمان ! تنتظر مجيء فرسك حتى يتولى خليفة آخر فيقال له : فى الحبس جماعة من الكتاب ، فيقول : يُتركون على حالهم حتى ننظرَ فى أمورهم ! فنلبثُ فى المحبوس زيادة على هذا ، ويكونُ سببَ ذلك توجُّهك راكباً إلى منزلك يا فاعلُ يا صانعُ ! فضحكنا وخرجنا مشاة فى الليل ، واجمع رأينا على أن نستتر عند بعض أصحابنا حتى تحق الأخبار ، فوالله لقد رأينا فى طريقنا رجلين يقول أحدهما للآخر : إن هذا الخليفة الجديد قد عرف أحوال المُحبَّسين من الكُتَّاب وأصحاب الجرائم فقال : لا يُفرج عن أحد حتى أنظر فى حاله ، فتخفّيْنَا إلى أن منَّ الله (تعالى) فى أسرع وقت ، وله الحمد ، ومن شعره : (منسرح)

نوائبُ الدهر أدَّبَتْنِى … وإنما يوعظُ الأديبُ
قد ذقتُ حلوًا وذقتُ مرًّا … كذاك عيشُ الفتى ضُرُوبُ
ما مرَّ بؤسٌ ولا نعيمٌ … إلاّ وَلِى منهما نَصيب

وكَان بنو وهب من رؤساء الناس وحذّاقهم وفضلائهم وكرمائهم ، وكانت دولتهم ناضرة ، وأيامهم مشرقة ، والأدب فى زمانهم قائمُ المواسم ، والكَرَم واضحُ المعالم ، وخُلع المهتدى وهو وزيره . انقضت أيام المهتدى بالله ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده المعتمد على الله ﴾

هو أبو العباس أحمدُ بنُ المتوكل ، بويع سنة ست وخمسين ومائتين ، كَان المعتمد مستضعَفاً ، وكَان أخوه الموفَّق طلحةُ الناصرُ هو الغالب على أموره . وكَانت دولةُ المعتمِد دولةً عجيبة الوضع ، كَان هو وأخوه الموفقُ طلحةُ كالشريكين فى الخلافة ، للمعتمد الْخُطبة والسِّكة ، والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحةَ

الأمرُ والنهى وقَوْد العساكر ومحاربة الأعداء ومرابَطةُ الثغور وترتيبُ الوزراء والأمراء ، وكَان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته ، وفى تلك الأيام كَانت وقائعُ صاحب الزَّنج .

﴿ شرح حال صاحب الزَّنج ونسَبه وما آل أمره عليه ﴾

ظهر فى تلك الأيام رجل يقال له علىّ بنُ محمد بنِ أحمد بن عيسى بنِ زيد ابنِ علىّ بنِ الحسين بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليهم السلام) . فأما نسبه فليس عند النسابين بصحيح ، وهم يعدّونه من الأدعياء ، وأما حاله فإنه كَان رجلاً فاضلاً فصيحاً بليغاً لبيباً ، استمال قلوب العبيد من الزَّنج بالبَصْرة ونواحيها فاجتمع إليه منهم خلق كثيرون ، وناس آخرون من غيرهم ، وعظم شأنه وقويت شوكته ، وكان فى مبدإ حاله فقيراً لا يملك سوى ثلاثة أسياف ، حتى إنه أُهدِىَ له فرس فلم يكن له لجام ولا سَرْج يركبه بهما ، فركبهُ بحَبْل ، فاتفقت له حروب وغَزَوات نُصِرَ فيها ، فأثرى بسببها وعظم حاله وَنَهْبُهُ ، وانْبَثَّ عسكرُه السودانُ فى البلاد العراقية والبحرين وهَجَر ، ونَهدَ إليه الموفق طلحةُ بعساكرَ كثيفةٍ فالتقيا بين البَصرة وواسِط ، ودامت الحرب بينهما سنينَ كثيرة ، وبنوا مدائنَ هناك ، وأقام كلٌّ من الفريقين يرابط الفريق الآخر ، وفى آخر الأمر كانت الغلبة للجيش العباسى ، فأبادوهم قتلاً وأسراً ، وقُتِل صاحب الزنج وانْتُهِبَتْ مدينته ، وكان قد بناها وسماها المختارة ، وحُمِل رأسه إلى بغداد ، وكان يوماً مشهوداً . وقيل إن عدد القتلى فى تلك الوقائع كان ألفى ألفٍ وخمسمائةِ ألفِ إنسان ؛ ومات المعتمد سنة تسع وسبعين ومائتين

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

قد تقـدم أن أخاه الموفَّق كان هو المستولىَ على الخلافة ، فكان يَعزِل الوزراء ويوليهم

﴿ وزارة أبى الحسن عبيد الله بن يحيي بن خاقان للمعتمد ﴾

لما وَلِىَ الخلافة المعتمد اتفقت الآراء على عبيد الله بن يحيي بن خاقان ، فأُحضر واستُوزر على كُره شديد منه وتَفَصٍّ وتَنَصُّلٍ ، وكان عبيد الله خبيراً بأحوال الرعايا والأعمالِ ضابطاً للاموال ، وقد تقدم ذكره فى خلافة المتوكل

﴿ وزارة الحسن بن مَخْلَد للمعتمد ﴾

وَزَرله لما مات عبيدُ الله بن يحيي ، استوزر المعتمِدُ الحسنَ بن مَخلد وكان كاتباً لأخيه الموفق ، فاجتمعت له وزارةُ المعتمِد وكتابة الموفّق ، كان الحسن بن مَخلد من دَيْر قُنَّى ، ويقال إن أباه كان معبرانياً نخرج من ابنه ما خرج ، وكان الحسن أحدَ كتاب الدنيا ، قالوا : كان له دفتر صغير يعمله بيده فيهِ أصول أموال الممالك ومحمولاتها بتواريخها ، فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحققَ ما فيه ، بحيث لو سُئِل فى الغد عن أى شىء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور ؛ قال الحسن بن مَخلد : كنت مرة واقفاً بين يدى الموفق بن المتوكل فرأيتـه يلمِسُ ثوبه بيده ، وقال لى : يا حسن ، قد أعجبنى هذا الثوب ، كم عندنا فى الخزائن منه ؟ فأخرجت فى الحال من خُفى دستوراً فيه جُمَلُ ما فى الخزائن من الأمتعة والثياب مُفَصَّلةً ، فوجدت فيها من جنس ذلك الثوب ستةَ آلاف ثوب ، فقال لى : يا حسن ، نحن عُراة ، أكتب إلى البلاد فى استعمال ثلاثين ألفَ ثوب من جنسه وحَمْلِها فى أسرع مدة .

ثم عزله المعتمِد واستوزر سليمانَ بنَ وهب ، وقد سبق وَصفُ طَرَف من حاله ؛ وشَرَعَتْ من تلك الأيام دولةُ بنى وهب تنبع

﴿ وزارة أبى الصَّقْر إسماعيل بن بُلْبُل ﴾

استوزره الموفق لأخيه المعتمد . وكان أبو الصقر كريماً مطعاماً متجملاً ، بلغ من الوزارة مبلغاً عظيماً ، وجُمع له السيفُ والقلم ، فنظر فى أمر العساكر أيضاً ، وسُمِّىَ الوزيرَ الشكورَ ، كان فى صباه على طريقةٍ غيرِ مرضية ، فبلغ ما بلغ ، ومدحه الشعراء كالبحترىّ وابن الرومىّ وغيرُهما وهجَوْه . وكان أبو الصقر ينتسب إلى بنى شيبان ، ورأيت نسَبَه مرفوعاً إلى شيبانَ بخط بعض النسَّاب ، وقومٌ غمزوه وقالوا : هو دَعِىّ ، وكان ابن الرومىّ قد مدحه بقصيدة نونية طويلة أولها :

(بسيط)

أجْنَتْ لك الوصلَ أغصانٌ وكُثبانُ ... فيهنَّ نوعانِ تفاحٌ ورمانُ

غصونُ بَانٍ عليها الدهرَ فاكهةٌ ... وما الفواكهُ مما يحمِل البان

فسمى الناس هذه القصيدةَ دارَ البطيخ لكثرة ما فيها من ذِكر الفواكه ، وكان الموضع الذى تباع فيه الفواكه يسمى دار البطيخ . ومن جملة هذه القصيدة :

قالوا أبو الصَّقْرِ من شيبانَ قلتُ لهمْ ... كلاَّ لعمرى ولكن منهُ شيبان

كم من أب قد علا بابن له شرفا ... كما علا برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله . قالوا : أبو الصقر من شيبان ؟ قلت لهم : كلاَّ ، ظَنَّ أن ابنَ الرومىّ قد هجاه بهذا باطلاً ، وأنه عرَّض بأنه دَعِىّ ، واشتبه على أبى الصقر الأمر فاستحكم ظنه وأعرض عنه . وتوصل ابن الرومى إلى إفهامه صورة الحال فلم يقبل فى ذلك قول قائل ، وقيل له : يا سبحان الله ! فانظر إلى البيتِ الثانى وحسن معناه فإنه معنى مخترَع ، ما مُدِح أحدٌ بمثله قبلك ، فلم يُصْغ وجزَم بأن ابن الرومى هجاه وَحرَمَه ، فهجاه ابنُ الرومى وأفحش فى هجائه ، فمما هجاه به قوله :

(خفيف)

عَجِب الناسُ من أبى الصقر إذ وُ لّىَ بعد الإجارَةِ الديوانا
إن للحظّ كيمياء إِذا ما مَسّ كلباً أصارَهُ إنسانا

وقوله : (سريع)

مهلاً أبا الصقرِ فكم طائرٍ خرّ صريعاً بعد تحليقِ
زُوِّجْتَ نُعمى لم تكن كُفأها فصانها اللهُ بتطليق
لا قُدِّسَتْ نُعمى تَسَرْبَلْتَها كم حجةٍ فيها لزِنديق

ومن غريب قوله : (بسيط)

ما بالُ فرخٍ أبوه بُلْبُلٌ رُبَحٌ يُكْنَى أبا الصقرِ يا أهْلَ الدواوينِ
عَرُّوه من كنيةٍ ليسَتْ تليقُ بهِ يُدعَى أبا الصقر مَنْ كان ابنَ شاهين

وقبض عليه المعتمد وحبَسه وعاقبه ثم قتله فى محبِسه واصطفى أمواله .

واعلم أن هؤلاء وزراءَ المعتمد كالحسن بن مخلد، وسليمان بن وهب، وأبى الصقر بن بلبل، توَلوا الوزارة وعُزِلوا مراراً مرتين وثلاثة .

﴿ وزارة أحمَد بنِ صالح بن شيرزاد القطرُبُّلى للمعتمد ﴾

استوزره الموفّق لأخيه المعتمِد، وكَان أحمد كَاتباً بليغاً فاضلاً عارفاً بما يلزم مثله معرفتهُ مُجيداً فى النظم والنثر، وصف أَحمدُ امرأةً كَاتبةً. فقال : كأن خطّها حُسْنُ صورتها، وكأن مدادها سوادُ شعرها، وكأن قِرطاسها أديمُ وجهها، وكأن قلمها بعضُ أناملها . ومكث أحمد بن شيرزاد فى وزارته نحواً من شهر، ثم مرض ومات، وذلك فى سنة ست وستين ومائتين .

﴿ وزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب للمعتمد ﴾

كان عبيد الله بنُ سليمانَ من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً فى صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلاً ، ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها فقال له عبيد الله بن سليمان : مثلك يا أمير المؤمنين تهُون المصائب عليهِ ، لأنك تجدُ من كل مفقود عِوَضاً ، ولا يجد أحدٌ منك عوضاً ، وكأنّ الشاعر عناك بقوله :

(بسيط)

يُبكى علينا ولا نَبكى على أحدٍ ؟ لَنَحْنُ أغلظُ أكباداً من الأبلِ !

وفى عبيد الله بن سليمان يقول الشاعر : (بسيط)

إذا أبو قاسمٍ جادتْ يداهُ لنا لم يُحمَد الأجْوَدَانِ البحرُ والمطرُ
وإن مضَى رأيُهُ أو حَدُّ عَزْمَتِهِ تأخَّرَ الماضيانِ السيفُ والقدَر
وإن أضاءتْ لنا أضواءُ غُرّتهِ تضاءل النَّيِّرانِ الشمسُ والقمر
من لم يَبِتْ حَذِرًا من حدِّ صَوْلَتِهِ لم يَدْرِ ما المُزعجان الخوفُ والحَذَر
يَنال بالظنِّ ما يَعْيَا العِيانُ لهُ والشاهدان عليهِ العينُ والأثر

ومات عبيد الله فى سنة ثمانٍ وثمانين ومائتين . انقضت أيام المعتمد ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده المعتضِد ابن أخيه ﴾

هو أبو العباس أحمدُ بنُ الموفّق طلحةَ بن المتوكل ، بويع سنة تسع وسبعين ومائتين كان المعتضِد شهماً عاقلاً فاضلاً ، حُمِدَت سيرته ، وَلِيَ والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً حتى عَمرت مملكته وكثرت الأموال وضُبطَت الثغور ، وكان قوىّ السياسة شديداً على أهل الفساد حاسماً لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعية ، محسناً إلى بنى عمه من آل أبى طالب ، وكانت أيامه أيامَ فُتُوق وخوارجَ

كثيرين ، منهم عمرو بنُ الليث الصفَّارُ ، كَانَ قد عظُم شأنُه وفَخُمَ واستولى على أكثر بلاد العجم ، وكان يقول : لو شئتُ أن أعقِد على نهر بلخ جسراً من ذهب لفعلْتُ ، وكَانَ مطبخه يُحْمَل على ستمائة جَمَل فآلت عاقبته إلى القيْد والأسر والذل ، فقام المعتضِد فى إصلاح المتشعب من مملكته ، والعدل فى رعيته حتى مات وفى الخزائن بضعةَ عشرَ ألفَ ألفِ دينار (الألفُ مكررةٌ مرتين) ومات سنة تسع وثمانين ومائتين .

﴿ شرح الوزارة فى أيامه ﴾

أقرّ عبيدَ الله بن سليمان على وزارته ، وقد مضى نبذةٌ من أخباره ، فلما مات عبيد الله عزَم المعتضِد على أن يستأصِل شأفة أولاده ويستصفىَ أموالهم ، فحضر القاسمُ بنُ عبيد الله واستعان ببدْرٍ المعتضدىّ ، وكتب خطاً بألفى ألفِ دينار فاستوزره المعتضد .

﴿ وزارة القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ﴾

كان القاسم بنُ عبيد الله من دهاة العالَم ومن أفاضل الوزراء ، وكَانَ شهماً فاضلاً لبيباً محصِّلاً كريماً مهيباً جباراً ، وكان يُطعَنُ فى دينه ، وهو الذى قَتَل ابن الرومىّ بالسم ، وكان ابن الرومىّ منقطعاً إليهم يمدحهم ، وكانوا يقصِّرون فى حقه فى بعض الأوقات فهجاهم ، وكان هَجَّاء ، وفى بنى وهب يقول ابن المعتز : (طويل)

لِآلِ سليمانَ بنِ وَهْبٍ صنائعٌ ... لدىّ ومعروفٌ إلىَّ تَقَــدَّمَا
هم ذَلَّلُوا لى الدهرَ بعد شِماسِهِ ... وهم غَسَلُوا من ثوبِ والدىَّ الدَّمَا

ومات المعتضد وهو وزيره . انقضت أيام المعتضد ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنه المكتفى بالله ﴾

هو أبو محمد علىٌّ بنُ المعتضد، بويع فى سنة تسع وثمانين ومائتين

كَان المكتفى من أفاضل الخلفاء، هو الذى بنى المسجد الجامع بالرحْبة ببغداد .

وفى أيام المكتفى ظهرَ القرامطة، وهم قوم من الخوارج، خرجوا وقطعوا الدَّرب على الحاجِّ واستأصلوا شأفتهم وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة، وسرَّح المكتفى إليهم جيوشاً كثيرة فأوقع بهم وقَتَل بعضَ زعمائهم

والمكتفى هو الذى بنى التاج بالدار الشاطئية ببغداد. وكَانت وفاة المكتفى سنة خمس وتسعين ومائتين .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما مات المعتضِد كَان المكتفى بالرّقة، فقام الوزير القاسم بنُ عبيد الله بأخْذِ البَيْعة للمكتفى القيامَ المرضى، وكتب إليه يُعْلِمُه ذلك، ووجّـهَ إليه بالبُردة والقضيب، فجاء المكتفى إلى بغداد وأقرّه على الوزارة ولقّبه ألقاباً، وجَلَّ أمرُ القاسم فى أيام المكتفى وعظم شأنه، فلما أدركته الوفاة أشار على المكتفى بالعباس ابنِ الحسن فاستوزره .

﴿ وزارة العباس بن الحسن ﴾

قال الصُّولىّ : مِن أعْجَبِ ما شاهدت من تقلب الدنيا وتصاريف الأمور أنى رأيت العباسَ بنَ الحسن فى أول الأربعاء قبل أن يموت الوزيرُ القاسمُ ابنُ عبيد الله وقد حضر إلى داره وقبّل يد ولده، ثم فى آخر اليوم المذكور مات القاسم وخلَع المكتفى على العباس بن الحسن واستوزره، فجاء ولد الوزير القاسم ابن عبيد الله فقبّل يده .

كان العباسُ بنُ الحسن ذا دهاء ومكر وأدب وافر ، وكان ضعيفاً فى الحساب ، ولم تكن سيرته محمودة ، وكان عاكفاً على لذاته والأمورُ مهملة ، وكان يقول لنوابه بالأعمال : أنا أُوَقِّعُ إليكم وأنتم افعلوا ما فيه المصلحة ، ولم تزل الأمور تضطرب فى أيامه حتى وثب عليه الحسين بن حمدان وجماعةٌ من الجند فقتلوه ، وذلك فى أيام المقتدر . انقضت أيام المكتفى ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده المقتدر بالله ﴾

هو أبو الفضل جعفرُ بن المعتضِد ، بويع له بالخلافة فى سنةِ خمسٍ وتسعين ومائتين وعمره ثلاثَ عشْرَةَ سنة .

وكان المقتدِر سَمْحاً كريماً كثيرَ الإنْفاق ، ردّ رسوم الخلافة مِن التجمل وسَعَةِ الإدرارات والمعاش وكثرة الخِلَع والصِّلَات ، كان فى داره أحدَ عشرَ ألفَ خادم من الروم والسودان ، وكانت خِزانة الجوهر فى أيامه مُتْرَعة بالجواهر النفيسة ، فمن جملتها الفصُّ الياقوت الذى اشتراه الرشيد بثلثمائة ألف دينار ، والدرةُ اليتيمة التى كان وزنها ثلاثةَ مثاقيلَ ، إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة ، ففرّقه جميعَه وأتلفه فى أيسرِ مدة . فى أيامِهِ قُتِل الحلاّج .

﴿ شرح الحال فى ذلك ﴾

كان الحلاّج واسمه الحسين بنُ منصور ويكنى أبا الغيث ، أصله مجوسى من أهل فارس ، ونشأ بواسط وقيل بتُسْتَرَ ، وخالَط الصوفية وتتلمذ لسَهْلٍ التسترىّ ، ثم قدِم بغداد ولقِيَ أبا القاسم الجُنَيْد ، وكان الحلاّج مخلِّطاً يلبَس الصوف والمُسُوح تارة ، والثياب المصبّغة تارة ، والعمامة الكبيرة والدرّاعة تارة ، والقباء وزِيّ الجند تارة ، وطاف بالبلاد ثم قدِم فى آخر الأمر بغداد وبنى بها داراً ،

واختلفت آراء الناس واعتقاداتهم فيه وظهر منه تخليط ، وتنقّل من مذهب إلى مذهب ، واستغوى العامة بمخاريقَ كان يعتملها ، منها : أنه كان يحفِر فى بعض قوارع الطرقات موضعاً ويضع فيه زِقًّا فيه ماء ثم يحفِر فى موضع آخر ويضع فيه طعاماً ، ثم يمرّ بذلك الموضع ومعه أصحابه فيحتاجون هناك إلى ماء يشربونه ويتوضئون به ، فيأتى هو إلى ذلك الموضع الذى قد حفره وينبشُ فيه بعكاز فيخرج الماء فيشربون ويتوضئون ، ثم يفعل كذلك فى الموضع الآخر عند جوعهم فيُخْرج الطعام من بطن الأرض ، يوهمهم أن ذلك من كرامات الأولياء ، وكذلك كان يصنع بالفواكه يدّخرها ويحفظها ويُخرجها فى غير وقتها ، فشُغِف الناس به ، وتكلم بكلام الصوفية ، وكان يخلطه بما لا يجوز ذكره من الحلول المحض ، وله أشعار فمنها : (هزج)

حبيبى غيرُ منسوبٍ ... إلى شىء من الْحَيْفِ
سقانى مثلما يَشْرَ ... بُ فعلَ الضيفِ بالضيف
فلما دارت الكأسُ ... دعا بالنِّطع والسَّيْف
كذا مَنْ يشربُ الراحَ ... مع التِنّين فى الصيف

وكثر شَغَفُ الناس به وميلُهم إليه ، وكان يقول لأصحابه : أنتم موسى وعيسى ومحمد وآدم ، انتقلت أرواحهم إليكم ، فلما نَما هذا الفساد منه تقدم المقتدر إلى وزيره حامدِ بن العباس باحضاره ومناظرته ، فأحضره الوزير وجمع له القضاة والأئمة ونُوظِرَ فاعترف بأشياء أوْجَبت قَتْله ، فضُرب ألفَ سوط على أن يموت فما مات ، فقُطِعت يداه ورجلاه وحُزَّ رأسُه وأُحرقت جثته ، وقال لأصحابه عند قتله : لا يهولنكم هذا فانى أعود إليكم بعد شهر ، قالوا وأنشد قبل قتله :

(وافر)

طلبتُ المستقرّ بكل أرضٍ فلم أرَ لى بأرضٍ مُستقرّا
أطعتُ مطامِعى فاستَعْبَدَتْنى ولو أنى قنِعْتُ لكنت حرّا

وذلك فى سنة تسع وثلثمائة ، وقبرُه ببغداد بالجانب الغربى قريب من مشهد معروفٍ الكَرْخِىّ (رضى الله عنه)

وفى تلك الأيام اقتلع القرامطة الحجَر الأسود ومكث فى أيديهم أكثر من عشرين سنة حتى رُدّ على يد الشريف يحيى بنِ الحسين بنِ أحمدَ بنِ عمرَ بن يحيى ابن الحسين بنِ زيد بنِ علىّ بن الحسين بنِ علىّ بنِ أبى طالب (عليهم السلام) ، واعلمْ أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير ، لصغر سنه ولاستيلاء أمّه ونسائه وخَدَمِه عليه ، فكانت دولته تدور أمورُها على تدبير النساء والخدم ، وهو مشغول بلذته ، نخربت الدنيا فى أيامه وخَلَت بيوت الأموال واختلفت الكلمة ، فخُلِعَ ثم أعيد ثم قتل ، وفى تلك الأيام نبعت الدولة الفاطمية بالمغرب

﴿ شرح حال الدولة العلَوية وابتدائها وانتهائِها على سبيل الأختصار ﴾

هذه دولة اتسعت أكنافُ مملكتها وطالت مدتها ، فكان ابتداؤها حين ظهرَ المهدى بالمغرب فى سنة ست وتسعين ومائتين ، وانتهاؤها فى سنة سبع وستين وخمسِمائة ، وكادت هذه الدولة أن تملك مُلكاً عاماً ، وأن تدين الأمم لها ، وإليها أشار الرضى الموسوىّ (قدس الله روحه) بقوله

(خفيف)

ما مُقامى على الهوان وعندى مِقْولٌ قاطعٌ وأنفٌ حَمِىٌّ
وإباءٌ محلِّقٌ بِى عن الضَّيْمِ كما زاغ طائرٌ وَحْشِى
أحمِلُ الضَّيْمَ فى بلاد الأعادِى وبمصرَ الخليفةُ العَلوِىّ

من أبوه أبى ومولاهُ مولا ى إذا ضامنى البعيدُ القصِىّ
لفّ عِرْقى بعرقه سيدا النـــاس جميعاً محمـــدٌ وعلىّ
إنّ ذُلّى بذلك الجوّ عـــزّ واوامِى بذلك الرَّبع رِىّ

﴿ شرح ابتداء هذه الدولة ﴾

أولُ خلفائهم المهدىّ بالله وهو أبو محمدٍ عُبيْدُ الله بنُ أحمدَ بن إسمعيل الثالثِ ابنِ أحمدَ بنِ إسمعيل الثانى بنِ محمد بن إسمعيلَ الأعرج بنِ جعفر الصادقِ (عليهم السلام)، وقد رُوى نسبُهم على صورةٍ أخرى وفيه اختلاف كثير، والصحيح أنهم علويون إسماعيليون صحيحو الاتصال، وهذه الصورة التى أوردتُها ها هنا هى المُعوَّل عليها، وبها خطوطُ مشايخ النسَّابين.

وكان المهدىُّ من رجال بنى هاشم فى عصره، قيل: إنه ولد ببغداد سنة ستين ومائتين، وقيل: ولد بسَلَميّة، ثم وصل إلى مصر فى زىّ التجار، وأظهر أمرَه بالمغرب ودعا الناس إلى نفسه، فمالوا إليه وتبعهُ خلق كثيرون، وسلموا عليه بالخلافة وقويت شوكته وعظم حاله، ثم انفصل إلى أرض القَيْرَوان وَبنى مدينة سماها المهدية واستقر بها، وملك إفريقية وبلاد المغرب وتلك النواحى جميعها، ثم ملكَ الاسكندرية وجَبَى خَراجها وخَراج بعضِ الصعيد، وتُوُفِّىَ سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة، ثم تسلَّم الخلافة منهُ واحدٌ بعد واحد حتى انتهت النوبة إلى العاضد آخرِ خلفائهم، وهو أبو محمد عبدُ الله بنُ الأمير يوسفَ بنِ الحافظ لدين الله

﴿ شرح انتهائها ﴾

بويع العاضد فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة وهو طفل، فقام بأمر دولته الأمراء والوزراء، حتى تَوجَّه أسد الدين شيركوه عمُّ صلاح الدين يوسفَ بنِ أيوب

إلى مصر لِمَا ظهر من اختلال أحوال الدولة لصغر الخليفة واختلاف آراء وزرائه وأمرائه ، وسار صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه كارهاً ، فلم تَطل مدة أسد الدين شيركوه فمات ، فاستولى صلاح الدين على المملكة واستوزره العاضد وخلع عليه خِلَع الوزارة فى سنة أربع وستين وخمسِمائة ، وتمكن صلاح الدين من الدولة وقدِم عليه أهله فاقطعهم الاقطاعات السنية ، وأزال أيدىَ أصحابِ العاضد وتفرّد بالحكم ، ومرِض العاضد وتطاولت أمراضهُ ، ثم مات فى سنة سبع وستين وخمسِمائة ، وأحجم الناس فيمن يُدْعى له بالخلافة على المنابر ، فلما كان يومُ الجمعة صعِد رجل أعجمى إلى المنبر وخطب وذكر الخليفة المستضىء ، فلم يُنكِر أحد عليه ، واستمر الحال فى مصر بالخطبة للعباسيين ، وانقرضت دولة الفاطميين منها ، واستقل صلاح الدين يوسفُ بنُ أيوب بمُلْك مصر من غير منازع ، وحبَس من كان تخلّف من أقارب العاضد ، وقبَض على الخزائن والأموال ، ومن جملتها الجَبَلُ الياقوت ، وزنهُ ستةَ عشرَ مثقالا . قال ابن الأثير المؤرخُ : أنا رأيتهُ ووَزَنْته ، ومن جملتها نصاب زمرّد طوله أربعُ أصابعَ فى عرض عقْدة ، ووجدوا طبلاً بالقرب من موضع العاضد فظنوه عُمِل للعب فسخروا من العاضد ، فألقاه أحدهم من يده فكسره ، وإذا الطبل قد عمل لأجل القُولَنْج فندموا على كسره ، وكان ذلك فى أيام الخليفة المستضىء من بنى العباس فوردت البشائر إليه بفتح مصر وباقامة الخُطْبة له بها ، فأظهر السرورَ ببغداد وهناه الشعراء ، وأرسل المستضىء تقليدَ السلطنة إلى صلاح الدين بالتفويض والتحكيم ، فسبحان من يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء !

﴿ رجعنا إلى تتمة خلافة المقتدر ﴾

وخُلع المقتدر، وبويع عبدُ الله بن المعتز فمكث يوماً واحداً فى الخلافة، ثم استظهر المقتدرُ عليه فأخذه وقتله، ولم يُعَدَّ عبدُ الله بنُ المعتز فى الخلفاء لِقصر الزمان الذى تولى فيه. وجرَتْ بين المقتدر وبين مؤنسٍ المظفَّر أميرِ الجيوش منافرةٌ أدَّتْ إلى حربٍ قُتل فيها المقتدر وقطع رأسه وحمل إلى ما بين يدى مؤنس المظفر، ومكثت جثته مرميَّة على قارعة الطريق، وذلك فى سنة عشرين وثلثمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما جلس المقتدر على سرير الخلافة أقرَّ العباسَ بنَ الحسَنِ وزيرَ أخيه المكتفى على وزارته، فلما قُتل العباسُ بنُ الحسن وجرت الفتنة بين المقتدر وبين عبد الله بن المعتز واستظهر المقتدر أحضر ابنَ الفرات واستوزره

﴿ وزارة ابن الفرات ﴾

قال الصُّولىّ: هم من صريفين من أعمال دُجيْل، قال: وبنو الفرات من أجلّ الناس فضلاً وكرماً ونُبلاً ووفاء ومروءة، وكان هذا أبو الحسن علىُّ بن الفرات من أجل الناس وأعظمهم كرمًا وجوداً، وكانت أيامه مواسمَ للناس، وكان المقتدر لمَّا جَرت له الفتنة وخُلع وبويع ابن المعتز ثم استظهر المقتدر عليه واستقرت الخلافة للمقتدر أرسل إلى أبى الحسن علىّ بن الفرات فأحضره واستوزره وخلع عليه، فنهض بتسكين الفتنة أحسن نهوض ودبَّر الدولة فى يوم واحد، وقرر القواعد، واستمال الناس، ولم يبت تلك الليلةَ إلاّ والأمور مستقيمةٌ للمقتدر، وأحوالُ دولته قد تمهَّدَت، وفى ذلك يقول بعض شعراء الدولة المقتدرية:

(متقارب)

ودبَّرْتَ فى ساعةٍ دولةً   تميلُ بغيرك فى أشهرِ

وتولى ابن الفرات الوزارةَ ثلاث دَفعات للمقتدر ، قالوا : كان إذا ولى ابن الفرات الوزارة يغلو الشمعُ والثلج والكاغَدُ لكثرة استعماله لذلك ، لأنه ما كان يشرب أحدٌ كائناً من كان فى داره فى الفصول الثلاثة إلاّ الماء المثلوج ، ولا كان أحدٌ يخرج من عنده بعد المغرب إلاّ وبين يديه شمعة كبيرة نقية صغيرًا كان أو كبيرًا ، وكان فى داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد ، كلُّ من دخَل واحتاج إلى شىء من الكاغَد أخذ حاجته منها .

حُدِّث عنهُ أنه قال : ما رأيت أحداً ببابى من أرباب الحوائج إلاّ كان اهتمامى بالإحسان إليه أشدَّ من اهتمامه ، قال : وكان قبل الوزارة يجعل لجلسائه وندمائه مخادَّ يتكئون عليها ، فلما وَلِىَ الوزارة لم يحْضِر الفراشون للندماء والجلساء تلك المخادَّ ، فأنكر ذلك عليهم وأمر بإحضار المخاد ، وقال : لا يرانى الله يرتفعُ شأنى بحَطِّ منزلة أصحابى ، ولما جرت فتنة ابنِ المعتز واستظهر المقتدرُ واستوزَر أبا الحسن ابن الفرات أحْضِرَت إلى ابن الفرات رِقاع من جماعةِ أرباب الدولة تنطق بميلهم إلى ابن المعتز وانحرافهم عن المقتدر ، فأشار عليه بعض الحاضرين بأن يفتحها ويطالعها ليعرف بها العدو من الصديق ، فأمر ابن الفرات بإحضار الكانون وفيه نار ، فلما أحْضِر جعَل تلك الرقاع فيه بمحضر من الناس ، ولم يقف على شىء منها وقال للحاضرين : هذه رقاع أرباب الدولة ، فلو وقفنا عليها تغيرت نياتُنا لهم ونياتهم لنا ، فإن عاقبناهم أهلكْنا رجال الدولة ، وكان فى ذلك أتمُّ الوهْن على المملكة ، وإن تركناهم كنا قد تركناهم ونياتُهم متغيرة ، وكذلك نياتنا فلا ننتفع بهم ، وما زال ابن الفرات ينتقل فى الوزارة إلى المرة الثالثة ، فقُبِض عليه وقُتِل وذلك فى سنة اثنتى عشرة وثلثمائة .

﴿ وزارة الخاقانىّ ﴾

هو أبو على محمدُ بنُ عبيد الله بنِ يحيى بن خاقان . لما قَبَض المقتدر على ابن الفرات فى المرّة الأولى أحضره ، وكان خائفاً من ابن الفرات فطيَّب قلبه واستوزره وخلع عليه خِلع الوزارة .

كان الخاقانىّ سيِّئَ السيرة والتدبير كثيرَ التولية والعَزْل ، قيل إنهُ ولّى فى يوم واحد تسعةَ عشرَ ناظرًا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رِشوة ، فانحدر واحد واحد حتى اجتمعوا جميعُهم فى بعض الطريق ، فقالوا : كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : إن أردتم النَّصَفة فينبغى أن ينحدر إلى الكوفة آخرُنا عهداً بالوزير فهو الذى ولايته صحيحة لأنه لم يأتِ بعده أحدٌ ، فاتفقوا على ذلك فتوجَّهَ الرجل الذى جاء فى الأخير نحو الكوفة وعاد الباقون إلى الوزير ففرقهم فى عدة أعمال ، وهجاه الشعراء ، فمما قيل فيه : (خفيف)

للدواوينِ مُذْ وَليت عويلُ ولمالِ الْخراج سُقْم طويلُ
يتلقّى الخطوبَ حين ألمَّتْ منك رأىٌ غثٌّ وعقل ضئيل
إن سمِنتمْ من الخيانة والجوْ رِ فللإرتفاع جسمٌ نحيل

ومما قيل فيه : (وافر)

وزيرٌ لا يَمَلُّ من الرقاعهْ يولِّى ثم يعزلُ بعد ساعهْ
ويُدنى من تعجَّل منه مالٌ ويُبعد مَن توسلَ بالشفاعه
إذا أهلُ الرِشا صاروا إليهِ فأحْظَى القومِ أوفرُهم بضاعه

وقَبَض المقتدر عليه وحبَسه ، واستوزر علىّ بنَ عيسى بنِ الجرَّاح .

﴿ وزارة على بن عيسى للمقتدر ﴾

كان علىُّ بنُ عيسى شيخاً من شيوخ الكتّاب فاضلاً ديِّناً ورِعاً متزهداً متورعاً ، قال الصُّولىّ : وما أعلم أنه وَزَرَ لبنى العباس وزيرٌ يشبه علىَّ بنَ عيسى فى زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وكتابته وحسابه وصدقاته وَمَبَرَّاته ، قالوا : كان دَخْلُ على بن عيسى من ضِياعه فى كل سنة نيفاً وثمانين ألفَ دينار ، ينفق نصفَها على الفقراء والضعفاء ، ونصفَها على نفسه وعلى عياله وأصحابه ، ونهض بأمور الوزارة ، وضبَطَ الدواوين والأعمال وقرر القواعد ، وكانت أيامه أحْسَنَ أيامِ وزير ، قالوا : ما كان يُعاب علىّ بن عيسى بشىء أكثرَ من قولهم : إنه كان ينظر كثيراً فى جُزئيات الأمور فربما شغلته عن الكليات ، ولما وَلِىَ الوزارة فَشَتْ صدقاته ومبراته ، ووقف وقوفاً كثيرة من ضياعِ السلطان ، وأفرد لها ديواناً سماه ديوان البر ، جعل حاصلَه لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين ، وكَان يجلس لرد المظالم من الفجر إلى العصر ، واقتصر على أقل الطعام وأخشن الملبوس ، وولى الوزارة للمقتدر مرارًا ، كَان هو وأبو الحسن على بن الفرات يتناوبان الوزارة ، مرة هذا ومرة ذاك .

﴿ وزارة حامد بن العباس ﴾

كَان حامد يتولى دائماً أعمال السواد ، ولم يكن له خِبرة بأعمال الْحَضرة ، وكَان كريماً مفضالاً جميلَ الحاشية رئيساً فى نفسه ، غزير المروءة ، قاسىَ القلب فى استخراج المال ، قليل التثبت ، سريع الطيش والحدة ، إلاّ أن كرمه كَان يغطى على ذلك .

حُدِّث عنه أنه دخل مرة إلى دار المقتدر فطلب منه بعض خواصِّ الخليفة

شعيرًا لدوابه ، فأخذ الدواة ووقّع له بمائة كُرّ ، فقال له آخر من الخواص : أنا أيضًا محتاج إلى عليقٍ لدوابي، فوقّع له بمائة كر ، وما زال يَطْلب منه واحد واحد من خواص الخليفة وهو يوقّع ، حتى فرّق ألفَ كُر فى ساعة واحدة ، ولما عرف المقتدر قِلّة فَهْم حامد وقلةَ خِبرته بأمور الوزارة ، أخرج إليه علىّ بنَ عيسى ابن الجراح من الحبس وضمّه إليه وجعله كالنائب له ، فكان علىٌّ بنُ عيسى لخبرته هو الأصل ، فكل ما يعقدُه ينعقد ، وكل ما يَحُله ينحل ، وكَان اسمُ الوزارة لحامد وحقيقتُها لعلىّ بن عيسى ، حتى قال بعض الشعراء : (كامل)

قُلْ لابنِ عيسى قَوْلةً ... يَرْضَى بها ابنُ مُجاهِدِ
أنت الوزيرُ وإنما ... سخِرُوا بلِحْيةِ حامد
جَعلُوه عندكَ سُترةً ... لصلاحِ أمرٍ فاسد
مهما شَككْتَ فقلْ لهُ: ... كمْ واحداً فى واحد ؟

وكَان حامدٌ يلْبَس السواد ويجلِس فى دَسْت الوزارة ، وعلىٌّ بنُ عيسى يجلس بين يديه كالنائب وليس عليه سوادٌ ولا شىءٌ من زِىّ الوزارة ، إلاّ أنه هو الوزيرُ على الحقيقة ، فقال بعد الشعراء : (منسرح)

أَعْجَبُ مِن كلّ ما رأينا ... أنّ وزيرَيْن فى بلادِ
هذا سَوادٌ بلا وزيرٍ ... وذا وزيرٌ بلا سَواد

ثم عُزل حامد ، واستوزر المقتدر بعده علىّ بنَ الفرات ، وسلمه إليه فقتله سراً .

﴿ وزارة أبى القاسم عبيدِ الله بنِ محمد بن عبيد الله بنِ يحيى بن خاقان ﴾

لم تَطُل أيامه . ولم تكن له سيرةٌ تُؤْثَر وتُسْطَر ، واختلّت الأمور عليه فصودِر وعُزِل ، ثم تُوُفىَ فى سنة اثنتى عشرة وثلثمائة .

﴿ وزارة أبي العباس أحمدَ بن عبيدالله بن أحمد بن الخصيب للمقتدر ﴾

كَانَ صالحَ الأدب جيّدَ العقل مليحَ الخط بليغاً، يذاكر بجميل الأخبار والأشعار. كان السببُ فى ولايته أمراً عجيباً ، وهو أن أبا العباس المذكورَ كان يلاطف أصحاب المقتدر ويتودّد إليهم ويُهَاديهم ، وكانوا يحبونه ويتعصبون له دائماً ويصِفُونه عند المقتدر ، فاتفق أن حَصَل فَتْق من الفتوق ببعض الجهات ، فجَهَّز المقتدِر جيشاً وأرسله صُحبةَ بعضِ أمرائه إلى تلك الجهة ، ثم كان المقتدر شديد التطلع إلى أخبار هذا الجيش ، فأرسل ابنُ الخصيب طيوراً صحبةَ بعضِ ثِقاته مع الجيش ، وقال لصاحبه سَرِّحْ كل يوم طيوراً وعليها الأخبار ساعة فساعة ، فكانت ترد الأخبارُ على الطيور إلى أحمدَ بن عبيد الله بن الخصيب فيعرضُها على المقتدر ساعة بعد ساعة ، حتى إن المقتدر لم يَفُتْه من أمر الجيش شيء ، فتعجب المقتدر من ذلك ، وقال : من أين يعلم أحمدُ بنُ الخصيب أخبارَ هذا الجيش ؟ فعُرِّف الصورةَ ، وقيل له : مَنْ تسمو همته إلى مثل هذا وليس له تعلّقٌ بهذه القضية فكيف يكون جِدُّه واجتهاده إذا صار وزيراً ؟ فاستوزروه .

قالوا : وكان أبو العباس أحمدُ بنُ عبيد الله بن الخصيب عفيفاً متورعاً عن مال السلطان والرعية ، مجانِباً للخيانة محافظاً على الأمانة ، ثم ضَعُف أمره وانحرفت عنه السيدة أم المقتدر ، وكان كاتبَها قبل الوزارة فعُزِل وقُبِضَت أمواله ، وذلك فى سنة أربعَ عشْرةَ وثلثمائة .

﴿ وزارة أبي عليّ محمد بنِ على بنِ مُقْلة للمقتدر ﴾

هو صاحب الخط الحسَنِ المشهور الذى تُضْرب بحُسْنِه الأمثال ، وهو أولُ من استخرج هذا الخط ونقله من الوضع الكوفىّ إلى هذا الوضع ، وتبعه بعده

ابنُ البوَّاب . كان فى ابتداء أمره يخدُم فى بعض الدواوين فى كل شهر بستة دنانير، ثم إنه تعلق بأبى الحسن بنِ الفرات الوزير واختص به ، وكان ابنُ الفرات كالبحر سَماحاً وجوداً ، فرَفَع من قدره وأعلى من شأنه ، فمكث بين يديه يعرض عليه رِقاعاً فى مُهمَّات الناس ، وينتفع بسبب ذلك ، وكان ابنُ الفرات يأمره بالتحصيل من هذه الجِهة إيثاراً لنفعه ، فما زال على ذلك حتى عَلَتْ حالُه وكَثُر ماله ، ولما ولِىَ ابنُ الفرات الوزارةَ الثانيةَ تمكن ابنُ مقلةَ فى دولته ، وتَبَعَت حاله وعرُض جاهه ، ثم إن الشيطان نزَغَ بينهُ وبين أبى الحسن علىّ بنِ الفرات ، فاستوحش كلٌّ منهما من صاحبه ، فكفرَ ابنُ مقلة إحسانَ ابنِ الفرات ودخل فى جملة أعدائه والسعاة عليه حتى جرت النكبة على ابن الفرات ، فلما رجع ابن الفرات إلى الوزارة قبَض عليه وصادره على مائةِ ألفِ دينار أدَّتْها عنهُ زوجته . وكانت ذات مال طائل ، وكانت لابن مقلة يدٌ طولَى فى الكتابة والإنشاء ، وكانت توقيعاته غيرَ مذمومة فى فنها ، ولهُ شعر ، فمنه : (سريع)

جرَّبَنى الدهــرُ على صَرْفِهِ ... فلم أخُرْ عنــد التَّصاريفِ
ألِفْتُ يوميْــه وَيا رُبَّمَا ... يُؤلَفُ شىءٌ غـــيرُ مألوف

حدّث أبو عبدِ الله أحمدُ بنُ اسماعيلَ المعروفُ بزنجى كاتب ابن الفرات قال : لما نُكِب ابن مقلة وحُبس لم أدخل إليه فى محبسه ، ولا كاتبته ولا توجعت له على ما بينى وبينه من المودة والصداقة خوفاً من ابن الفرات ، فلما طالت به المحنة كتب إلىّ رُقعة فيها : (طويل)

ترَى حرُمَتْ كتبُ الأخلاءِ بينهمْ ... أبِنْ لى أَمِ القِرطاسُ أصبحَ غالِيا
فما كانَ لو ساءلْتَنا كيف حالُنا ... وقد دَهِمَتْنــا نكبةٌ هى ما هيا
صديقُك مَنْ راعاكَ فى كل شِدّةٍ ... وكلاً تراه فى الرخاء مراعيـــا

فهبْكَ عدُوّى لا صديقى فاننى رأيتُ الأعادِى يَرحمون الأعاديا

ومن شعره ما كتب به إلى ولده وقد مرض : (كامل)

لقّاك ربُّكَ صحةً وسلامةً ووقاكَ بِى من طارقِ الأهواء

ذُكِرَتْ شَكاتُكَ لِى وكأسِى فى يدى فمزجتها دمعِى مكانَ الماء

ومن شعره : (خفيف)

لستُ ذا ذِلة إذا عضنى الدهـرُ ولا شامخاً إذا واتانى

أنا نارٌ فى مُرْتَقَى نَفَس الحا سِدِ ماءٌ جارٍ مَعَ الإخْوان

استوزره المقتدر وخلع عليه خِلَع الوزارة فى سنة ست عشرة ، واستقل بأعباء الوزارة أمرًا ونهيًا ، وبذل فيها ما مبلغه خمسمائة ألف ، ثم عُزِل وقُبِض عليه ثم أعيد ، وما زال تتقلب به الأحوال حتى استوزره الراضى ، ثم جرَت خطوب أوجبَت أن الراضىَ حبسه بداره وضيَّق عليه ، وسعى به أعداؤه إلى الراضى وخوّفوه من غائلتهِ فقطع يدَه اليمنى ، ومكث فى الحبس مدة مقطوعَ اليد ، وكان ينوحُ على يده ويقول : يدٌ كتبتُ بها كذا وكذا مُصْحَفاً ، وكذا وكذا حديثاً من أحاديث الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ووقّعْتُ إلى شرق الأرض وغربها ، تُقطَع كما تقطع أيدى اللصوص !

ومن شعره يشير إلى قطع يده : (خفيف)

ما مللْتُ الحياةَ لكنْ توثّقْـتُ بأَيْمَانهم فبانَتْ يمينى

ثم أحسنتُ ما استطعتُ بجُهْدِى حِفظَ أرواحِهمْ فما حفِظُونى

ليسَ بعد اليمينِ لذةُ عيشٍ يا حياتى بانَتْ يمينى فبينى

وفى ذلك يقول بعضُ الشعراء : (طويل)

لئن قطعوا إحدى يديه مخافةً لأقلامهِ لا للسيوفِ الصّوارمِ

فما قطعوا رأياً إذا ما أجالَهُ   رأيت الردى بين اللَّهاَ والغَلاَصِم

ولما قطَع الراضى يدَ ابن مقلة كتب باليسار مثلما كان يكتب باليمين، ثم شد على يده المقطوعةِ قلماً وكتب بها فلم يُفرّق بين خطه قبْلَ قطْعِها وبعده.

ومن الاتفاقات العجيبة أنهُ تولى الوزارة ثلاثَ دَفَعات، وسافر ثلاث دفعات ودُفِن ثلاث دفعات : دُفِن بدار الخليفة لما قُتل بها وذلك بعد قطع يده بمُدَيدة، ثم سأل أهلُه تسليمَه إليهم فنُبش وسُلِّم إليهم فدفنوه، ثم طلَبتهُ زوجته فنبشته ودفنتهُ بدارها.

﴿ وزارة أبى القاسم سليمانَ بنِ الحسن بنِ مَخْلد للمقتدر ﴾

لم يكن له سيرةٌ تؤثر وتُرْوَى، ولم يكن من ذوى اللُّب، وإنما نال ما نال بالجَدِّ والبخت.

قيل : إنه دخل مرة على القاسم بنِ عبيد الله وزير المعتضِد والمكتفى، فرحَّب به الوزير، وأقبل عليه بوجهه وأكرمه اكراماً خارجاً عن العادة لأمثاله، فسُئِل الوزير عن سبب ذلك، فقال : رأيت فى منامى كأنّ على رأسى قَلَنْسُوَة وقد أخذها هذا وجعلها على رأسه، ولا بد أن هذا الفتى يلِى الوزارة، فكان كما قال، ولم تُحْمَد سيرته فى وزارته.

وكان المقتدر لما عُزِل ابنُ مُقلة استشار علىّ بنَ عيسى بنِ الجرّاح فيمن يستوزره فأشار عليه بهـذا، فاستوزره فى سنة ثمانى عشرة وثلثمائة، ثم قَبَض عليه واستوزر الـكَلْوُذَانىّ.

﴿ وزارة أبي القاسم عبيد الله بن محمد الكَلْوَذَانيّ للمقتدر ﴾

لم تطُل أيامه ، ولم يتمكن مما أراد ، وكثُرت المصادرات فى أيامه وشغِب الجند عليه وشتموه ورجَموه وهو فى السفينة ، فحلَف أنه لا يدخل بعد ذلك فى الوزارة ، وانقطع بداره وأغلق بابه ، فكانت وزارته مدةَ شهرين .

﴿ وزارة الحسين بنِ القاسم بنِ عبيد الله بنِ سليمان بن وَهْب للمقتدر ﴾

كان يقال له أبو الجمَال ، قيل إنه أعرقُ الناس فى الوزارة ، وهو وزير المقتدر، وأبوه القاسم وزيرُ المعتضد والمكتفى ، وجدُّه عبيد الله وزير المعتضد ، وأبو جده سليمان بن وهب وزيرُ المهتدى ، وفى ذلك يقول الشاعر له : (رمل)

يا وزيرُ ابنَ وزيرِ ابـــنِ وزيرِ ابنِ وزيرِ
نَسَقاً كالدُّرِّ إذْ نُـــظِّم فى عِقْدِ النحور

لم يكن الحسين بنُ القاسم بارعاً فى صناعته ، ولا شُكِرَت سيرته فى وزارته ، ولم تَطُل له المدة حتى عَجَز واختلّت الأحوال عليه ، مدحه عبيدُ الله بنُ عبد الله ابن طاهر بقوله : (خفيف)

إنْ أكُنْ مُهْدِياً لك الشِّعرَ إنى ... لابنُ بيتٍ تُهدَى له الأشعارُ
غيرَ أنى أراكَ من أهلِ بيتٍ ... ما على المرءِ أنْ يسودُوه عار

وهجاه جَحْظةُ بقوله : (وافر)

إذا كان الوزيرُ أبا الجمال ... ومحتسِب البـلاد الدانيالى
فعدِّ عنِ البـلاد فعنْ قليلٍ ... تَرَى الأيامَ فى صُوَرِ الليالى
تقضَّتْ بهجةُ الدنيا وولَّتْ ... وآذَنَ كلُّ شىءٍ بارتحال

ولما ظهرَ للمقتدر نقصُه وعجْزُه قبَض عليه وصادره ، ثم بَقِىَ إلى أيام الراضى وأُبْعِد عن العراق ، فلما تولى ابنُ مقلة الوزارة تقدم بقتله وأرسل إليه من قطَع

رأسه ، وحُمِل رأسُه إلى دار الخلافة فى سفَط ، فجعل السفط فى الخزانة ، وكانت لهم عادةٌ بمثل ذلك ، فحدَث أنه لما وقعت الفتنة ببغداد فى أيام المتقى أُخْرِجَ من الخِزانة سفَط فيه يد مقطوعة ورأس مقطوع ، وعلى اليد رُقعة مُلْصَقَة عليها مكتوبٌ : هذه اليدُ يدُ أبى علىّ بن مقلة ، وهذا الرأس رأس الحسين بن القاسم ، وهذه اليد هى التى وقَّعَت بقَطْعِ هذا الرأس ، فعجِب الناس من ذلك .

﴿ وزارة أبى الفضل جعفر بن الفرات ﴾

لم تطُل أيامه ، ولم تكن له سيرة مأثورة ، وقُتِل المقتدر وهو وزيره فاستتر ، انقضت أيام المقتدر ووزرائه

﴿ ثم مَلَك بعده أخوه القاهر ﴾

هو أبو منصور محمد المعتضِد ، بويع سنةَ عشرين وثلثمائة .

وكان مَهيباً مِقداماً على سفك الدماء أهوجَ محباً لجمع الأموال ردىء السياسة، صادر جماعةً من أمهات أولاد المقتدر ، وصادر أم المقتدر فعلّقها برِجل واحدة منكَّسةَ الرأس ، وعذبها بصنوف عظيمة من الضرب والاهانة ، واستخرج منها مائةً وثلاثين ألفَ دينار ، وبَقِيَت بعد ذلك أياماً قليلة وماتت حزناً على ولدها ومما جرى عليها من العذاب ،

وفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة خُلع القاهر ،

وكان سببُ ذلك أن وزيرَه ابنَ مقلة كان قد استتر خوفاً منه ، فكان يُفْسِد عليهِ قلوب الجند ويحذِّرهم منهُ ، وحسّن لهم أن هجموا عليهِ وخلعوه وسَملوه حتى سالت عيناه على خديه ، ثم حُبِس فى دار السلطنة ومكث فى الحبس مدة ، ثم أُخْرِج منه عند تقلب الأحوال ، وكان مرة يحبس ومرة يفرج عنهُ ، فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس ، وقصَد بذلك التشنيعَ على

المستكفى ، فرآه بعض الهاشميين فمنعهُ من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم . ولم يجر في أيامه من الحوادث المشهورة ما يُؤثَر

﴿ شرح حال الوزارة في أيامهِ ﴾

استوزر ابنَ مقلةَ وزيرَ أخيهِ ، وهى الوزارة الثانية ، وقد تقدم شرح طَرَف من سيرته فلا حاجة إلى إعادته ، ثم استوزر محمدَ بنَ القاسم بنِ عبيد الله بنِ سليمان ابنِ وهب ، ولم يتمكن من الوزارة ولا طالت أيامه ، ثم قبض عليه ونكبهُ ، واتفق أن عرَض له قُولَنْج فمات بعقب ذلك . انقضت أيام القاهر ووزرائه .

فى تلك الأيام نبعَت الدولة البويهية :

﴿ شرح حال دولة آل بويه وابتدائها وانتهائها ﴾

أما نسَبهم فيرتفع من بويه إلى واحد واحد من ملوك الفرس حتى يتصل بيهوذا ابن يعقوبَ بنِ اسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليل (عليه السلام) وكذلك إلى آدمَ أبى البشر ، وليسُوا من الديلم ، وإنما سُمُّوا بالديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم .

أما ابتداؤها فإنها دولة نبعَتْ بما لم يكن فى حساب الناس ، ولم يخطُر بعضُه ببال أحد ، فدوَّخت الأمم وأذلّت العالم واستولت على الخلافة ، فعزَلت الخلفاء وولّتهم ، واستوزرت الوزراء وصرَفتهم ، وانقادت لأحكامها أمورُ بلاد العجم وأمور العراق ، وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق ، هذا بعد الضيق والفقر والذُّل والمسكنة ومعاناةِ الحاجة والاضطهاد ، فإن جدَّهم أبا شجاع بويه وأباه وجدَّه كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صيادَ السمك ، وقد كان معزُّ الدولة بعد تملّكه البلادَ يعترِف بنعمة الله (تعالى) ويقول : كنت أحتطب الحطبَ على رأسى .

فكان من مبدإ دولتهم ما حدّث به شهريارُ بنُ رستَم الديلمى قال : كان أبو شجاع بويه فى مبدإ أمره صديقاً لى ، فدخلت عليه يوماً وقد ماتت زوجته

أمُّ أولاده الثلاثةِ الذين تملّكوا البلاد ، وهم : عمادُ الدولة أبو الحسن علىّ ، وركن الدولة أبو علىّ الحسنُ ، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد ، وقد اشتد حزن أبى شجاع بويه على زوجته ، فعزّيتُه وسكّنت قلقَه ونقلتُه إلى منزلى وأحضرت له طعاماً وجمعت إليه أولاده الثلاثة ، فبينا هم عندى إذ مر بالباب شخص يقول : المنجمُ المعزِّمُ مفسِّرُ المنامات كاتبُ الرُّقى والطِّلَّسْمات ، فاستدعاه أبو شجاع بُوَيه وقال له : قد رأيت البارحةَ رؤيا ففسِّرْها لى ، ثم قَصَّ عليه الرؤيا ، فقال المنجم : هذا منام عظيم ولا أفسره إلاّ بخِلْعَةٍ وفرَس ، فقال له بويه : والله ما أملك إلاّ الثيابَ التى على جسدى ، وإن أعطيتك إياها بقيتُ عُرْياناً ، قال المنجم : فعشرة دنانير ، فقال له بويه : والله ما أملك دينارين ، فكيف عشرة ؟ ثم إنه أعطاه شيئاً يسيراً ، فقال المنجم : اعلمْ أنهُ يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ويعلو ذكرهم فى الآفاق ، ويولَد لهم جماعةُ ملوك ، فقال له بويه : أما تستحى؟ تسخَر بنا ؟ أنا رجل فقير مضطر ، وأولادى هؤلاء فقراء مساكينُ ، فمن أين هم والمُلْك ؟ فقال له المنجم : فأخبرنى عن وقت ولادة واحد واحد من أولادك ، فأخبره بويه بذلك ، فجعل ينظر فى أصطُرلابه وتقاويمه ، ثم نهض المنجم وقبّل يد عماد الدولة أبى الحسن علىّ وقال : هذا والله الذى يملك البلاد ، ثم يملك هذا من بعده وقبض على يد أخيه أبى علىّ الحسن ، فاغتاظ منهُ أبو شجاع بويه وقال لأولاده : اصفعوه فقد أفرط فى السخرية بنا ، فصفعوه ونحن نضحك منهُ ، فقال المنجم : لا بأس بهذا إذ ذكرتم لى هذا الحال عند ولايتكم ، فأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف .

وأما تَرَقِّى أولادِ أبى شجاع بويه فإنهم دخلوا فى زىّ الأجناد وانضافوا إلى العساكر ، وما زالوا يتنقلون فى خدمة ملوك العجم من واحد إلى واحد ومن حال إلى حال حتى ارتفع حال عماد الدولة وتولى الكَرَج ، ولّاه إياها مَرْداويج ، ثم تنقل

منها إلى غيرها حتى تملَّك قطعة من أعمال فارس ، ثم عرُضت مملكته حتى كتب إلى الراضى الخليفة يسأله أن يقاطعه على أعمال فارس فى كل سنة بعد النفقات والاطلاقات بما يحمِله إلى دار الخلافة ، وهو ثمانمُائة ألفِ ألفِ دِرْهَم ، على أن يبعث الخليفة إليه بخِلعة السلطنة والمنشور ، فبعث الراضى إليه بذلك على يد رسول أرسله إليه ، وأوصاه ألاّ يسلم الخلعة والمنشور إليه حتى يَقْبض منهُ المال ، فلما وصَل الرسول إليـه غالطه وأخذ الخلعة منهُ فلبسها ، والمَنشورَ فقرأه على رءوس الأشهاد ، وقوِيَت نفسهُ بذلك ، ووعَد الرسول بالمال ودافعهُ مدة ، فمات الرسول عنـده ، وتقلبت الأحوال بالخلافة فكسر المال واستبد بالأمر . وكان عماد الدولة أولَ ملوكهم ، ثم ملك منهم واحد بعد واحد حتى انقضت دولتهم .

وأما انتهاؤها ففى آخر أمرها ضَعْف حالها ، وما زال يتزايد ضعفُها حتى انتهت نَوْبة الملك إلى عِزِّ الدولة بن جلال الدولة أبى طاهر ، فجرى بينهُ وبين كاليجارَ حروبٌ أفْضَتْ إلى أنه هرَب منهُ وأقام بشيرازَ ومات فى سنة إحدى وأربعين وأربعِمائة ، وعليه انقرَض ملـكُهم .

﴿ ثم ملك بعد القاهر ابن أخيه الراضى بالله ﴾

هو أبو العباسِ أحمدُ بنُ المقتدِر بنِ المعتضِد . بويع فى سـنة اثنتين وعشرين وثلثمائة .

كان شاعراً فصيحاً لبيباً ختَم الخلفاء فى أشياء ، منها أنهُ آخِرُ خليفة دُوِّن له شِعر ، وآخِرُ خليفة انفرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة خطَب على منبرٍ يومَ الجمعة . وآخِر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدَمه وحُجَّابُه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين .

وفى أيامه سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة عظُم أمر مرْداويج باصفهانَ ، وهو رجل خرج بتلك النواحى ، وقيل : إنهُ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويُبْطِل دولة العرب ، فورد الخبر فى أيام الراضى بأن غلمان مرداويج اتفقوا عليه فقتلوه .

وفى أيام الراضى ارتفع أمر أبى الحسَنِ علىٍّ بنِ بويه .

وفى أيام الراضى ضعُف أمر الخلافة العباسية ، فكانت فارس فى يد على بن بويه ، والرىُّ وأصفهان والجبلُ فى يد أخيه الحسن بن بويه ، والموْصِل وديار بكرٍ وديارُ ربيعةَ ومضرَ فى أيدى بنى حَمْدَان ، ومصرُ والشامُ فى يد ابن طُغْج ، ثم فى أيدى الفاطميين ، والأندلسُ فى يد عبد الرحمن بنِ محمدٍ الأموى ، وخراسانُ والبلاد الشرقية فى يد نصرِ بنِ أحمدَ السامانى ، وكانت وفاة الراضى فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه أبو علىٍّ بنُ مُقلة ، وهى الوزارة الثالثة من وزارات ابن مقلة ، بَذَل فيها خمسمائة ألف دينار حتى استوزره الراضى ، ثم شغِب الجند وجَرَتْ فتنة أوجبت عزله ، فعزله الراضى واستوزر عبدَ الرحمن بن عيسى بن داودَ بن الجرَّاح ، وقد مضى من أخبار ابن مقلة ما فيه كفاية .

﴿ وزارة عبدِ الرحمن بن عيسى بن الجراح ﴾

لما قبَض الراضى على ابن مقلة أحضر علىَّ بنِ عيسى بن الجراح وأراده على الوزارة فأبَى وامتنع وأظهر العجز ، فاستشاره فيمن يوليه ، فأشار بأخيه عبد الرحمن ابن عيسى ، فأحضره وقلَّده الوزارة وركِب والموكبُ بين يديه ، ثم لم تطل أيامُه ، واختلّت الأمور عليه فاستعفى من الوزارة فقبُض عليه ، ولم يكن لهُ سيرة تؤثر .

﴿ وزارة أبي جعفر بنِ محمدِ بنِ القاسم الكَرْخِيّ للراضى بالله ﴾

لما قبض الراضى على عبد الرحمن بنِ عيسى استوزر أبا جعفر محمدَ بنَ القاسمِ الكَرْخِيّ، وكان قصيراً جداً فى غاية القصر، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير الخلافة أربعَ أصابعَ حتى يتمكَّن الكرخيُّ الوزيرُ من مُسارَّةِ الخليفة، وتَطَيَّرَ الناس من ذلك وقالوا هذا مؤذِنٌ بنقص الدولة، فكان الأمر كما قالوا عليه، واختلفت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر، قالوا: لما أراد الاستتار قلع رأس مِزْمَلة وجلس فيها وأُخْرِجت المِزْمَلة على أنها مِزْمَلة، وهو فى وسطها، وما زال مستترًا حتى ظهر وصودر ثم خلص.

﴿ وزارة سليمانَ بنِ الحسن بنِ مَخْلَد للراضى بالله ﴾

لما عجز الكرخى عن النهوض بأعباء الوزارة واستتر، أحضر الراضى بالله سليمانَ بنَ الحسن بنِ مَخلد واستوزره وخلع عليه خِلَعَ الوزارة، ثم إنهُ عجز عن تدبير الأمور لتغلّب أصحاب السيوف على المملكة، فلما رأى الخليفة الراضى عجزَ وزيره سليمانَ بنِ الحسن بن مَخلد أرسل إلى ابن رائق، وهو أكبر الأمراء، فاستماله وسلَّم الأمور إليه ورتَّبهُ أميرَ الأمراء، وكلَّفهُ تدبيرَ المملكة، فانضم إليه أمراء العسكر وصاروا حزباً واحداً، وحضروا بين يدى الخليفة فأجلسهم فوق الوزير، واستبد ابن رائق أميرُ الأمراء بالأمور، وولّى النظار والعمال ورُفعت المطالعات إليهِ، ورُدَّ الحُكم فى جميع الأمور إلى نظره، ولم يبق للوزير سوى الاسمِ من غير حكم ولا تدبير. ومن تلك الأيام اضطُهِدَت الخلافة العباسية، وخرَجت الأمور منها، واستولى الأعاجم والأمراء وأرباب السيوف على الدولة، وجَبَوْا الأموال وكفُّوا يدَ الخليفة وقرَّروا له شيئًا يسيرًا وَبُلْغَة قاصرة، ووهَن من يومئذٍ أمر الخلافة.

﴿ وزارة أبي الفتح الفضلِ بنِ جعفر بنِ الفرات للراضي بالله ﴾

لما استولى أمير الأمراء ابن رائق على الأمور أشار على الراضي بالله بأن يولِّيَ الوزارة للفضل بنِ جعفر بنِ الفرات ظنًّا منه أنهُ يجتذب له الأموال فأحضره الراضي وقلَّده الوزارة .

حدَّث أبو الحسن بنُ ثابت بنِ سِنان عن أبي الحسن عليّ بنِ هشام قال : لما تقلد الفضل بنُ جعفر بنِ الفُرات الوزارة لقِيتُ ابنَ مُقلة وكان معزولاً مستتراً ، فقلت له : يقبُح بك يا سيدَنا أن تتأخر عن لقاء هذا الوزير وتهنئته بوزارته ، فقال : ما آمنُه ، ولا لي حاجةٌ إلى الاجتماع به ، فقلتَ : ينبغي أن تكتب إليهِ رُقعة تعتذر فيها عن تأخرك وتهنِّئه تهنئةً تقومُ مقامَ حضورك ، فقال : أخاف أن يجيبني بما يستدعي حضوري ، وأنشدني لنفسه : (متقارب)

وقائلةٍ قَدْ أضعتَ الصوابَ ... بِترْكِكَ هذا الوزيرَ الجديدَا
فقلتُ لها لا عَداكِ السرورُ ... ولا كانَ قولكِ إلا سَديدَا
أمِثْلِي تُطَاوِعُهُ نَفْسُــهُ ... على أن يُرَى خاضِعاً مستزيداً

كان رجلاً متهوِّرًا وسيعَ الصدر شريف النفس عاليَ الهمة ، تنقّل في الْخِدَمات وتقلَّبتْ به الأحوال من عُسْر ويُسْر ومُصَادرة وعَزْل ، حتى أدَّى بِهِ سعةُ صدرِه وقوة نفسه وكِبَرُ همته إلى جمع العسا كر وركوب الأخطار ، ثم تغلَّب على أعمال خوزستان والبَصرة ، فاستوزره الراضي ثم عزله وقَلَّدَ الوزارة سليمانَ بنَ الحسن ابنِ مخلد ، وقد مر ذكره فلا حاجةَ إلى إعادته ، وهو آخِر وزرائه . انقضت أيام الراضي بالله بن المقتدر ووزرائه .

﴿ ثم مَلك بعده أخوه المتقى لله أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ المقتدر بالله ﴾

بويع له سنةَ تسع وعشرين وثلثمائة ، ولم يكن له من السيرة ما يؤثر ، واضطربت عليه الأمور ، واستولى عليهِ رجل من أمراء الديلم يقال له توزون ، فهرَب المتقى ومعهُ ابنه وأهلُه إلى الموصِل خوفاً على نفسهِ من حرب ببغداد .

وجرت فى تلك الأيام حروب وفتن ، ونُهِبت دار الخلافة واخذ ما كان بها ، ثم إن توزون كتب إلى المتقى يستميله ، وحلَف لهُ أيماناً غليظة إنهُ لا يناله مكروه من جهتهِ ، فاغتر المتقى بذلك ، وانحدر من الموصِل إلى بغداد ووصل إلى السِنْدِيّةَ من نهر عيسى ، فخرج توزون إلى تلقيه والناسُ كافةً ، فلما رآه توزون قبّل الأرض ، وكان قد أوصى جماعة من أصحابه سراً أن يحتاطوا به فاحتاطوا به وأدخلوه إلى خيمتهِ ، ثم قبض عليه وسَمَل عينيه ، وخلَعهُ وبايع المستكفى ومات المتقى فى سنة خمسين وثلثمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أقر سليمانَ بنَ الحسن بنِ مخلد على وزارته أربعةَ أشهر ، ثم استوزر أبا الخير أحمدَ بنَ محمد بنِ ميمونَ ، ولَم يكن له سوى الاسم من الوزارة ، ولم يكن له سيرة تؤثر ، ثم جرت أمور أدت إلى القبض عليه وإلى عزله .

﴿ وزارة أبى عبد الله البريدىّ للمتقى ﴾

قد سبق حالُ تغلبه وقوة نفسه وجمعه للعساكر ، ثم إنه فى أيام المتقى وصَل إلى بغداد ومعهُ جموع كثيرة ، فأظهر المتقى السرورَ به ثم استوزره وهو كارهٌ لذلك وجرت بينه وبين المتقى مُراسلات أدّت إلى أنهُ أرهبهُ وأفزعهُ ، فحمل إليه

خمسمائة ألف دينار ، ووقعت حروب بين البريدىّ وأمراء العسكر فنهبوا داره وانهزم إلى واسط ، فكان وقوع اسم الوزارة عليه دون شهر .

﴿ وزارة أبى إسحاق محمدِ بنِ إبراهيمَ الاسكافى المعروف بالقراريطى للمتقى ﴾

لم تطل أيامه ، فلبث فى الوزارة حدودَ أربعين يوماً ، وكان سبب وزارته أنه حضر يوماً مجلسَ أمير الأمراء وهو يصادر قوماً من الكتاب ويعسِفهم وهم يلِطُّون عليه ، فخلا القراريطىّ ببعض أصحاب أمير الأمراء وقال له : إن استوزرنى الأمير نهضْتُ له بأضعاف هذا وجمعت له الأموال ، وما أحوجهُ إلى هذا الصداع ! فاستوزره توزون بعد يومين ، ثم بعد يومين قبض عليه واستوزر الكرْخى ، فلم تطُل أيامه أيضاً ، ولبث فيها نحو خمسين يوماً .

﴿ وزارة البريدىّ مرة ثانية ﴾

استوزره المتقى وكاتَبه بالاصعاد إلى بغداد ، فأصْعَدَ من واسط فاستُوزِر ، ومكث فى الوزارة دون شهر ولم يستتبَّ له أمر ، وجرت بينه وبين المتقى حروب وكانت تلك الأيامُ أيامَ فِتَن ، ولما تولى أبو عبد الله البريدىّ الوزارة هجاه أبو الفرج الاصفهانىّ مصنف كتاب الأغانى بقصيدة طويلة أولها

(خفيف)

يا سماءُ اسْقُطى ويا أرضُ مِيدِى ... قد تولَّى الوزارةَ ابنُ البريدِى

(منها)

يا لقومى لحرِّ صدرى وعَوْلِى ... وغليلِى وقلبِىَ المعمودِ

حينَ سارَ الخميسُ يومَ خميسٍ ... بالبريدىّ فى ثِيابٍ سُود

قد حَباهُ بها الأمامُ اصطفاءً   واعتماداً منـهُ لغير عميـد
خِلَعٌ تخلع العُـلا ولواءٌ   عَقْدُه حـلَّ عُقْدَةَ المعقود

﴿ وزارة أبي العباس أحمد بن عبيد الله الأصفهانى للمتقى ﴾

مكث فى الوزارة حدودَ خمسين يوماً ، ولم يكن له علم ولا نظر فى الأمور وضعُفَ أمر الوزارة والوزراء فى تلك الأيام ضعفاً كثيراً .

(وزارة أبي الحسن علىّ بن أبى علىّ بن مقلة للمتقى)

استوزره المتقى ولم تطل أيامه وخُلع المتقى وهو وزيره . انقضت أيام المتقى ووزرائه

﴿ ثم ملك بعده أبو القاسم عبدُ الله المستكفى بنُ المكتفى بنِ المعتضِد ﴾

بويع لهُ سنةَ ثلاث وثلاثين وثلثمِائة ، وورد الخبر اِليه بوصول معزّ الدولة ابن بويه نخاف خوفاً شديداً ، واضطرب الناس ، وأهدى المستكفى إلى معز الدولة ألطافاً وفاكهة ، ووصل معز الدولة إلى حضرة المستكفى فرد إليه إمارة الأمراء وأعطاه الطّوْق والسِّوار وآلة السلطنة ، وعقَد له لواءً . وهو أَول ملوك بنى بويه فى الحضرة الخليفية ، وهو الذى لقبه معزَّ الدولة ، ولقّب أخاه الآخرَ عِماد الدولة ، وأمر أن تُضْرب أَلقابهم على الدينار والدرْهَم . ونزلت الديلم دور الناس ببغداد ، ولم يكن يُعرَف ذلك من قبل . ثم إن معز الدولة ركب يوماً إلى دار الخلافة وسلّم على المستكفى وقبّل الأرض بين يديه ، وأمر المستكفى فطُرِح كرسيٌّ فجلس عليه معز الدولة ، ثم تقدم إلى المستكفى رجلان من الديلم بمواطأة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه ، فظن المستكفى أنهما يريدان تقبيل يده ، فمدّ يده فجذباها ونكساه من السرير ووضعا عمامته فى عنقه وسحباه ، ونهَض معز الدولة ، وضُرِبت البوقات والطبول ،

واختلط الناس ودخَل الديلم إلى حرم الخليفة ، وحُمِل المستكفى إلى دار معز الدولة فاعْتقِل بها ، وخُلع من الخلافة ونُهِبَت داره وسُمِلت عيناه ، ولم يزل فى دار السلطنة معتقَلاً حتى توفى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أَول وزرائه السامرىّ أبو الفرج محمد بن علىّ . لم يكن له حكم ولا استبداد ، ولم تطل أيامه وقُبِض عليه ، وهجاه بعض الشعراء بقوله : (كامل)

الآن إنْ كفرَ المقتِّرُ رِزْقهُ … قالوا كفرتَ نخفْ عِقابَ النارِ
أأكونُ رِجْلى مَرْكبى وجَنيبتى … خُفَّى على ذلٍّ بذاك وعارِ
والسُرّ مَن رأىٌّ فى إصطبلِهِ … مائتا عتيقٍ فارهٍ مختـــار
كلب حمار بالخيول ، وكاتب … فِطنٌ يضيق به كِراءُ حمار
أنا قد دهشْتُ فعرِّفونى أنتمُ … هذا من الإنصافِ فى الأقدار ؟

ثم اضطربت أحوال الخلافة ، ولم يَبق لها رونق ولا وزارة ، وتملَّك البويهيون ، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم ، وقُرِّر للخلفاء شىء طفيف برسم إخراجاتهم . انقضت أيام المستكفى ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده المطيع لله أبو القاسم الفضلُ بنُ المقتدر ﴾

بويع سنة أربع وثلاثين وثلثمائة وكان أمره ضعيفاً . فى أيامه رُدّ الحجرُ الأسْوَد إلى مكانه ، وكانت القرامطة الخوارج قد أخذوه ثم ردوه وقالوا : قد أخذناه بأمر ورددناه بأمر ؛ وقَوى الفالج على المطيع وثَقُل لسانه فدخل عليهِ سُبُكْتكينُ حاجبُ معز الدولة ، فدعاه إلى خَلع نفسه ومبايعة وَلده الطائع ، ففعل ذلك وعقَد الأمرَ لولده وخلع نفسه ، ومات فى سنة أربع وستين وثلثمائة .

﴿ ثم ملك بعده ابنه عبدُ الكريم أبو بكرٍ الطائعُ لأمر الله ﴾

بويع له سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، كان الطائع شديد المُنَّة ، كان قد استفحل عنده فى البستان كبش جَبَلى ، وما جسَر أحد أن يدنو منهُ ، فخرج الطائع إليه فحمل الكبشُ عليهِ فثبت له حتى مكَّن يديه من قرنيه ، ثم استدعى نجارًا وأمره بقطع قرنيه بالمنشار فقطعهما النجار وهما فى يد الطائع .

وفى أيامه قوِيَت شوكة آل بويه ، ووصَل عضُدُ الدولة إلى بغداد ، وانتشر حكم البويهيين . ثم قبض البويهيون على الطائع فى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، وبويع بعده للقادر . انقضت أيام الطائع لله .

﴿ ثم ملَك بعده القادر أبو العباس أحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ المقتدر ﴾

بويع له سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ،

كان القادر من أفاضل خلفائهم حسنَ الطريقة والسَّمْت كثيرَ الخير والدِّين والمعروف والعبادة ؛ تزوَّج بنت بهاء الدولة بنِ عضد الدولة على صَدَاق مبلغهُ مائة ألفِ دينار . وفى أيامه تراجَعَ وَقارُ الدولة العباسية ، ونما رونقُها ، وأَخذت أمورها فى القوة ، ومكث القادر فى الخلافة مدة طويلة ، ومات فى سنة اثنتين وعشرين وأربعِمائة .

﴿ ثم ملَك بعده ابنه أبو جعفر عبدُ الله القائمُ بأمر الله ﴾

بويع فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ،

كان القائم من أفاضل خلفائهم وصلحائهم ، وطالت مدته فى الخلافة وزاد بهِ وقار الدولة ونَمَتْ قوتها . وفى أيامِهِ انقرضت دولة بنى بويه ، وظهرت دولة بنى سَلْجُوقَ .

﴿ شرح حال الدولة السلجوقية وابتدائها وانتهائها ﴾

هذه دولة قويت شوكتها ، وعرُضت مملكتها ونفذت تقدماتها فى الحضرة الخليفية ، واستولت على الخلافة ، وخُطِبَ لها على المنابر ، وضُرِبَتْ أسماء ملوكها على الدِّرْهم والدينار .

﴿ ذكر ابتداء حالهم ﴾

هم قوم أصلهم من الترك الخزَر وكانوا يخدُمون مع ملوك الترك ، ونشأ جَدُّهم سَلْجوقُ وكانت أمارات النجابة لائحةً عليه ، ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته. فقرَّبه ملك الترك واختص به ولقبه شباشى ، ومعناه فى لغتهم قائد الجيش ، فنبغ سلجوق بعلوهمته ، واستمال قلوب الرجال بكرَمه وعقله ، وانقادت الأكابر إليه ، فيقال إن زوجةَ ملِك الترك قالت لزوجها : إنى أتوسم فى سلجوق تغلُّباً عليك . والرأى عندى أن تقتله فقد كثُر مَيْل الناس إليه ، فقال لها : سوف أُبْصِر ما أصْنَع فى أمره ، ثم أحسَّ سلجوقُ بشىء من ذلك العزم ، وظهر له التغيّر ، فجمع عشيرته ومَنْ تَبِعَه وحالفهم ، واستجلب من أطاعه ، وصار قائداً معظماً للغزّ ، ونفر بهم من بلاد الترك إلى بلاد المسلمين ، فلما دخلها أظهر الإسلام ليكون المسلمون عوناً له ، وليمكّنوه من المراعى والمساكن ، فنزل بالجند وشرع فى غزو من قاربَه من أصناف الترك ، وكان لملك الترك إتاوة على تلك البلاد المتاخمة له ، فقطعها سلجوق وطرَد نوابه ، ومات سلجوق وعمرُه مائةُ سنة . ثم نشأ أولادُه فى القوة والنعمة والدولة فاستولوا على كل موضع استضعفوه من بلاد العجم ، وما زال أمرهم ينمِى حتى ملَك طغرلبك (وهو أول سلاطينهم) طائفةً من بلاد العجم ، وما زال أمره يقوى حتى تغلّب البَسَاسِيرىّ على بغداد ونهبها وقتل مَنْ

بها ، وأخرج الخليفة القائمَ فحبسه بقلعة الحديثة . وكانت فتنة البساسيرىّ فتنةً عظيمة، فحينئذ كتَب القائم إلى طغرلبك السلطان يستدعيه إلى بغداد لينصره على البساسيرىّ ، فسار طغرلبك بعساكره إلى بغداد ، فلما سمع البساسيرىّ بذلك انتقض عليه أمره وفارق بغداد ، ودخل طغرلبك إلى بغداد وأعاد رونق الدولة الخليفية ، وخُطِب له بالسلطنة على منابر بغداد . وكان ذلك أولَ سلطنتهم بالحضرة، وأما انتهاؤها فإنها ما زالت أمورها تضعُف حتى انقرضت بالكلية فى أيام الناصر ، وذلك فى سنة تسعين وخمسمائة ، فتعالى الله ، ومات القائم فى سنة سبع وستين وأربعمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

وَزَر له فخر الدولة أبو نصرٍ محمدُ بنُ محمد بنِ جَهِير

﴿ وزارة ابن جَهير ﴾

كان فخر الدولة من عقلاء الرجال ودُهاتهم ، كان فى ابتداء أمره فقيراً مُدْقعاً ، وترامت به الأسباب ، فمن مبادئها أنه كان جالساً بالكَرْخ يوماً فعبَر عليه غَسَّال ممن يغسِل بالخَربات ومعه فصوص عُتْق قد استحالت ألوانها ، فاشتراها منه بثلاثة دنانير وجلاَ بعضها ، فخرج أحدُها ياقوتاً أحمرَ ، وخرج الآخرُ فيروزجاً جيداً ، فصاغ لكل واحد منهما خاتماً من ذهب ، ثم أنه تقلبت به الأمور حتى مضى فى رسالة إلى ملك الروم فأهدى إليه الخاتمين ، فأعطاه عشرين ألفَ دينار ، فكانت أصل غِناهُ ونعمتِه ، ثم تنقل فى الخَدمات حتى اتصل بابن مروانَ صاحبِ ديار بكر فخدمه مدة ، وأثرى عنده ثروة ضخمة ، فسمَتْ همته إلى وزارة الخليفة فأرسل سِرًّا إلى القائم ، وعَرض عليهِ نفسَه ، وبذَل له ثلاثينَ ألفَ دينار ، فأرسل القائم بعضَ خواصه فى رسالة إلى ابن مروان وكان غرضُه من إرسال ذلك الرسولِ

أن يجتمع بفخر الدولة سراً ، وقرّر معه ما أراد ، ثم لما أراد الرسول الرجوع إلى بغداد خرج فخر الدولة كأنه يودعه فانحدر معه إلى بغداد ، وكان قبل ذلك قد فرّق أمواله بالبلاد وأنفذ منها شيئاً إلى بغداد .

فلما وصل الرسول إلى بغداد ، وصحبتُه فخر الدولة ، أرسل القائمُ إليه أصحابه يتلقّونه ، ثم خلَع عليه خِلَع الوزارة ونهَض فخر الدولة بأمور الوزارة أحْسَنَ نهوض ، وكانت الأطرافُ المتاخِمة للعراق عاصيةً على الخليفة ، وكان ملوكها أصدقاء فخر الدولة ، فكاتبهم وراسلهم واستمالهم فدخلوا فى طاعة الخليفة ، ثم عُزِل فخر الدولة عن الوزارة بسبب كدَر جرى بينه وبين نظام المُلْك وزيرِ السلطان ، ثم أعيد فخر الدولة إلى الوزارة ، ولما أُعيد إلى منصِبه قال ابن الفضل الشاعر يمدحه : (رجز)

قد رَجَع الحقُّ إلى نصابِهِ وأنت مِنْ دُونِ الورَى أولى به
ما كنتَ إلا السيفَ سلَّتْهُ يدٌ ثم أعادَتْهُ إلى قِرابه

ولما عاد إلى الوزارة فرِح الناس به فرَحاً شديداً ، فيقال إن سقاءً ذبَح ثوراً له لم يكن يملِك غيرَه وتَصدَّقَ بلحْمه ، فأعطاه الوزير بغلا بآلته ، وأعطاه معهُ شيئاً من الذهب .

ولما مات القائمُ قامَ الوزير فخرُ الدولة بأخذ البَيْعة المقتدى أحْسَنَ قيام ، وكانت مدةُ وزارته للخليفتين القائم والمقتدى خمسَ عشرةَ سنةً وشهراً ، ومات بعد ذلك فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

﴿ وزارة رئيسِ الرؤساء علىّ بنِ الحسين بنِ أحمد ابنِ محمدِ بنِ عمرَ بنِ المسلمة ﴾

كان وزيرَ القائم قبل ابن جهير . ومن أجله وقعَتْ فتنةُ البساسيرى ، وكان قبلَ الوزارة أحد المعدَّلين ببغداد ، وممن له معرفةٌ بالفقه وأُنْسٌ بالعلم ورواية

الحديث ، وجَلَّ أمره ، وعظمت منزلته ، ووقع بينه شر وبين البساسيرى أبى الحارث التركى ، وكان أحدَ الأمراء ، فاقتضى الحال أن البساسيرى هَرَب ثم جمع الجموع وورد إلى بغداد واستولى عليها ، ثم ظفر بابن المسلمة رئيس الرؤساء فمثل به ،

فمن جملة ما فعل به أنه حبسه ثم أخرجه مقيداً وعليه جبة صوف وطَرْطور من لِبْد أحمرَ ، وفى رقبته مِخنقة فيها جلود مُقَطَّعة شبيهة بالتعاويذ ، وأُركب حماراً وطِيفَ به فى المحالّ ووراءه من يضرب به بجلد وينادى عليه ، ورئيس الرؤساء يقرأ « قل اللهمّ مالكَ الملك تؤتى المُلْك مَن تشاء وتنزعُ الملك ممَّنْ تَشاء » وشهرَه فى البلد ،

فلما اجتاز بالكَرْخ نثر عليه أهلُ الكرخ المداسات الخلع وبصقوا فى وجهه ، ووقف بازاء دار الخلافة من الجانب الغربى ، ثم أعيد وقد نُصِبَتْ له خشبةٌ فى باب خُراسانَ فأنزل عن الحمار ، وخِيط عليه جلدُ ثور قد سُلِخَ فى الحال وجُعِلَتْ قرونُه على رأسه ، وعُلِّق بكلاّب فى حلقه ، واستُبْقِىَ فى الخشبة حياً إلى أن مات من يومه . انقضت أيام القائم بأمر الله ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنُ ابنهِ المقتدى بأمر الله ﴾

وهو أبو القاسم عبدُ الله بنُ الذخيرة بنِ القائمِ ، بويع فى سنةِ سبعٍ وستين وأربعمائة .

كان المقتدى عالىَ الهمة خبيراً بالأمور من أفاضل خلفائهم ، اتفق له مع السلطان ملكشاه واقعةٌ عجيبة ، كان السلطان ملكشاه قد قصَد بغداد فوصَلها فى سنةِ خمسٍ وثمانين وأربعِمائة ، وقد تغيرت نيتهُ مع المقتدى ، فأرسل ملكشاه إلى المقتدى يقول له : تخرجُ من بغداد وتسكنُ أىَّ بلد شئت ، فانزعج المقتدى

من ذلك وطلب منه أن يُمْهِلَهُ شهراً، فقال ملكشاه : ولا ساعة واحدة ، وتردّدت الرسل بينهما ، ثم استقرت الحال بواسطة تاج المُلْك أبى الغنائم وزير ملكشاه أن يؤخره عشرةَ أيام، فقال ملكشاه يجوز ُ، ففى عيد الفطر صَلَّى السلطان وخرج إلى الصيد فَحُمَّ وافْتَصد فتوفِّىَ فى نصف شوال ، وضَبَطَتْ زوجته زبيدةُ خاتونُ العسكرَ بعد موته ، واستقر مع المقتدى ترتيبُ ابنها محمودٍ فى السلطنة وعمره يومئذ ستُّ سنين ، فَخُطِبَ له وخلَع المقتدى عليه ، وخرج العسكر وخاتونُ وابنُها محمودُ بنُ ملكشاه إلى أصفهان ، وكفى الله المقتدى شرَّ ملكشاه ، وتوفى المقتدى فجأةً فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع المقتدى بالخلافة أقرّ فخرَ الدولة بنَ جهير وزيرَ أبيه على وزارته وقد مضى من سيرته ما يُغنى عن ذكْر شىء آخَر .

﴿ وزارة ابنه عميدِ الدولة محمدِ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ جهير المقتدى ﴾

كان القائمُ والمقتدى يُرسِلانه فى رسائلَ إلى السلاطين فتنجحُ على يده ، وكان فاضلاً حصيفاً ، فاستحلاه نظامُ الملك وزيرُ السلطان وكان يَعْجَبُ منه ويقول : ودِدْتُ أنى وَلَدْتُ مثله ، ثم زوَّجه ابنتَه ، واستوزره المقتدى ، وفوَّض الأمور اليه ، ثم عزله فشفَع له نظام الملك فأعيد إلى الوزارة .

ثم وقع بين عميد الدولة وبين سلاطين العجم وقعة ، فطلبوا من الخليفة عزْلَهُ وأشار أصحاب الخليفة بذلك فعزَلَهُ ، وحُبِس بباطن دار الخلافة ، ثم أخْرِجَ ميتاً فدفن ، وكان يقول الشعر ، فمن شعره : (بسيط)

إلى متى أنتَ فى حلٍّ وترحالِ   تبغى العُلا والمعالى مَهرُها غالِي

يا طالب المجدِ دونَ المجد مَلْحَمَةٌ   في طَيِّها خَطَرٌ بالنفس والمال
ولِلَيالي صُرُوفٌ قَلَّمَا انجذبتْ   إلى مُرادِ امرئٍ يَسْعَى بلا مال

﴿ وزارة أبي شجاع ظهير الدِّين محمد بن الحسين الهَمذاني للمقتدى ﴾

كان رجلا ديِّناً خيِّراً كثير الخير والبرِّ والصَّدَقة ، وُقف له على ثَبَت خرج على وجوه البر والصدقات خاصة بما قدرُه مائةٌ وعشرون ألفَ دينار وكان الذى أوردَ هذا الثبتَ كاتباً من جملة عشرة كتبة يكتبون صدقاته خاصة ، ولما وَلِىَ ظهير الدين المذكور كتب إليه ابن الحريرى صاحب المقامات (متقارب)

هنيئاً لك الفخرُ فافخرْ هنيّا   كما قد رُزِقْتَ مكاناً عَلِيّاً
وبتَّ كآبائك الأكرمين   لدَسْتِ الوزارة كفئاً رَضِيّاً
تحمَّلْتَ أعباءها يافعاً   كما أوتىَ الحكْمَ يحيي صبيّاً

كان يُصَلِّى الظهر ويحضر لكشف المظالم إلى وقت العصر ، وكان الْحُجَّاب ينادون فى الناس مَنْ كانت له حاجة فليعْرِضها .

ومن مناقبه أنه لما وقعت الفِتن بين السُّنَّةِ والشِّيعَةِ بالكَرْخ وباب البصرة من مدينة السلام تغاضى عن إراقة الدماء غاية التغاضى ، حتى قال له المقتدى : إن الأمور لا تمشى بهذا اللين الذى تستعملهُ ، وقد أَطْمَعْتَ الناسَ بحلمك وتجاوُزك ، ولا بد من نقض دُورِ عشرةٍ من كبار أهل المحالّ حتى تقوم السياسة وتَسْكُنَ هذه الفتن ، فأرسل الوزير إلى المحتسِب وقال له : قد تقدّم الخليفة بنقض دور عشرة من كبار أهل المحال ، ولا تمكننى المراجعة فيهم ، وما آمنُ أن يكون فيهم أحدٌ غيرُ مستحِق للمؤاخذة ، أو أن يكون المِلْكُ ليس له ، فأريدُ أن تبعَث ثقاتك إلى هذه المحالّ وتشترى أملاك هؤلاء المتهمين ، فإذا صارت الأملاكُ لى نقضْتها وأَسْلَمُ بذلك من الإثم ومن سُخْطِ الخليفة ، ونقدَه الثمنَ فى الحال ، ففعل المحتسِب ذلك ،

ثم بعد ذلك أرسَل ونقضها ، وحجَّ بيت الله (تعالى) ولم يُؤرَّخ عن وزيرٍ أنهُ حجَّ فى أيام وزارته إلّا هذا ، فإن الوزراء قبله كانوا يحُجون بعد خلوّهم من الوزارة ، إلاّ البرامكةَ فإنهم حجُّوا فى حال وزارتهم ، وطلب السلطان جلالُ الدولة ملكشاه من المقتدى عزْل هذا الوزيرِ ، فخرج توقيعُ المقتدى بعَزْله على حالة جميلة لم يُصرف بمثلها وزير ، وانصرف إلى داره وهو ينشد : (وافر)

تولاها وليسَ لهُ عدوٌّ ... وفارَقها وليسَ لهُ صديقُ

ثم اعتزل وتزهد ولبِس ثياب القطن وتوجه إلى الحج ، وأقام بمدينة الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) فكان يكنس المسجد النبوىّ ويفرش الحُصُر ويُشعِل المصابيح وعليهِ ثوبٌ من غليظ الخام ، وبدأ بحفظ القرآن وختمه هناك ، وله شعر لا بأس بهِ ، فمنهُ قوله : (خفيف)

إنّ مَنْ شتّتَ الجميعَ من الشَّمْـلِ ... قديرٌ بأنْ يُجمِّعَ أهْــلا

لستُ مستيئساً وإن طال هَجْرٌ ... ربّ هجرٍ يكون عُقْباهُ وَصْلا

وإذا أعْقبَ الوصالُ فِـراقاً ... كان ذاكَ الوصالُ فى القلبِ أحْلَى

ومات (رضى الله عنهُ) فى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة . انقضت أيام المقتدى بأمر الله ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنه المستظهر بالله أبو العباس أحمد ﴾

بويع له بالخلافة فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

كان المستظهر كريماً وَصُولاً حسَنَ الأخلاق كبيرَ الهمة سهل العريكة مُهذّبَ الخِلال محباً للخير مبغِضاً للظلم ، فى أيامه تفاقم حالُ الباطنية واستولَوْا على المعاقل والحصون بخراسان ، وكان أصلَ دعوتهم بخراسان الحسنُ بن صباح ، وهو رجل أصلُه من مرو ، وسافر إلى مصر وأخَذ من دُعاة آل أبى طالب بها المذاهبَ ،

وكان رجلاً ذا دهاء وصاحب حِيَل، ثم إنهُ رجع من مصر إلى خراسان وصار داعياً لآل أبي طالب، وتوصَّلَ بأنواع التوصلات حتى ملكَ قلعة من بلاد الديلم تعرف بالروذبار، فلما ملكها قوى أمرُه واستغْوى طوائفَ من الناس، وفشَا مذهب الباطنية ونما، واعْتقدَهُ خلقٌ من الأكابر في باطن الأمر. وما زال يستفحِل أمرهم إلى أن قصدتْ العساكر المغُولية قلاعهم وفعلت بها ما فعلت، ومات المستظهر في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة.

﴿ شرح حال الوزارة في أيامه ﴾

لم يكن للوزارة في أيامه كبيرُ ابهة. فمن وزرائه زعيمُ الرؤساء أبو القاسم عليُّ بنُ فخر الدولة بنِ جهير، لم تطل أيامه، ولم يكن له من السِّيرة ما يُؤثر، وبعد يسير من وزارته عزِل وقُبض عليه.

﴿ وزارة أبي المعالي هِبَةِ الله بنِ محمد بنِ المطَّلب للمستظهر ﴾

كان رجلاً كافياً من كفاة الدولة العباسية، استوزره المستظهر بعد زعيم الرؤساء ابن جهير، وكان قبل الوزارة يتولى ديوانَ الزمام. فحدَّثَ عنهُ بعضُ أصحابه قال: دخلْتُ يوماً إليهِ قبل الوزارة وهو صاحبُ ديوان فرأيته مفكراً مضطربَ الخاطر، فسألته عن السبب فقال: كنت قد أنهيتُ إلى المستظهر في السنة الخالية اجتهادي في عِمارة البلاد وضَبْطي وتثميري للحاصل، وقلت: قد حصَل في هذه السنة اثنا عشر ألف كُرّ، وفي السنة المستقبَلة يحصُلُ عشرون ألفَ كُرّ، فخرج جوابه يشكرني وَيُثني عَلَيّ، وشرَّفني بشيء من ثيابه، فسُرِرْت وقلت: هذه ثمرة الاجتهاد، ثم جرَّدْت همتي للعمارة وانْبَعَثْتُ بجهدي وطاقتي في عمارة المستقبل، فاتفق أن انفجر بَثْقٌ فتلف من الارتفاع شيء كثير، وجرت أحوالٌ أُخَرُ اقتضَتْ خفوق الارتفاع بحيث نقص عن ارتفاع السنة الخالية جُملة، فكتبت

مطالعةً إلى الخليفة أعرِّفه فيها بخفوق الارتفاع ، وذكرْتُ له كمية الحاصل ، ولم أشرح له السببَ فى نقيصة الارتفاع ، وقلت فى نفسى : إن سألنى عن السبب شرحته له ، فخرج جوابه إلىَّ يشكرنى وَيُثنى علىّ وشرّفنى بشىء من ثيابه كما فعل فى السنة الخالية ، فقلت فى نفسى : واويلاه ! هذا حالى معه فى حالة الاجتهاد والتقصير ، وقد شكرنى على الحالتين المتناقضتين ، وهذا يدل عَلَى أنه لا يفكر فيما يقوله ويفعله ، فما يؤمننى أنّ بعضَ مَن هو قريبٌ إليه من أعدائى يعرِض عليهِ فى أمرى ما يكون سبباً لهلاكى فلا يتأمل القضية بل يتقدم بما يوافق غرض العدو ؟ قال الحاكى : فقلت له : يُعيذكَ اللهُ وَيقِيك مما تحْذَر ، وما برحتُ حتى سلَّيْتُه وأزَلْت غمه ، وكان هذا أبو المعالى بنُ المطّلب من علماء الوزراء وأفاضلهم وأخيارهم . انقضت أيام المستظهر بالله ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنُه المسترشدُ أبو منصور الفضلُ بنُ المستظهِر بالله ﴾

بويع فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ،

كان المسترشد رجلاً فاضلاً ، ولما بويع بالخلافة هرَب أخوه الأمير أبو الحسن وأخفَى نفسه ، ومضَى إلى الحِلّة مستجيراً بدُبَيْس بن صَدَقَة صاحبِ الحِلّة ، وكان دبيس بنُ صدقةَ أحد أجواد الدنيا ، وكان صاحب الدار والجار ، والحِمى والذِمار ، وكانت أيامه أعياداً ، وكانت الحِلْة فى زمانه محطّ الرحال ، وملجأ بنى الآمال ، ومأوى الطريد ، ومُعْتَصَم الخائف الشريد ، فأكرمه دبيس إكراما زائداً عن الحد ، وأفرد له داراً وأكرمه إكراماً كثيراً ، ومكث عنده مدة على أحسن حال ، فلما علِم أخوه المسترشد بالله أنه عند دبيس قَلِق لذلك وخاف منْ أمر يحدُث من ناحيته ، فبعث نقيبَ النقباء علىَّ بن طراد الزينبىّ إلى الحِلة بخاتمِهِ وأمانه ، وأمره أن يأخذ البَيْعَة على دبيس ويطلبَ منه أن يُسلِّمَ إليهِ الأميرَ أبا الحسن ، فقال

دبيس : أما البَيْعَة فالسمعُ والطاعةُ لأمر أمير المؤمنين ، وبايَع ، وأما تسليمُ جارى فلا والله لا أسلمه إليكم وهو جارى ونزيلى ولو قُتِلت دونه إلا إن اختار . فأبى الأمير أبو الحسن التوجهَ صُحبةَ النقيب إلى أخيه ، فمضى النقيب وحده . ثم بعد ذلك ظَفِر بهِ المسترشد فسجَنهُ فى بعض دوره على حالة جميلة . وجرت بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود وَحْشَةٌ ، وتفاقم الأمر فيها وأفضى الحال إلى الحرب ، فتوجَّه الخليفة المسترشد وصحبته العسكر وأرباب الدولة ، وتجهز مسعود للقائهم ، فلما التقوْا والتحم القتال انكسر عسكر المسترشد ، واستظهر السلطان مسعود عليهم ونَهَب عسكره من العسكر الخليفىّ أموالاً عظيمة ، فيقال : إن صناديق المال كانت على مائةٍ وسبعين بغلاً ، وهى أربعة آلافِ ألفِ دينار ، وكان الرَّحْلُ على خمسمائة جَمل ، وكان معهُ عشرةُ آلاف عمامة ، وعشرة آلاف جُبَّة ، وعشرة آلاف قَباء ، كل ذلك من فاخر الثياب ، كان قد أعدها للتشريفات إن ظفِر ، فيقال إن جملة ما نُهِب عشرةُ آلاف ألفِ دينار ، ونهى مسعودٌ عن إراقة الدماء ، وقبَض على أصحاب الخليفة وحَملهم إلى القلعة ، وأما الخليفة فأفرد له خَيْمة ووكل به جماعة ، وسار مسعود والخليفةُ معه إلى مَراغة ، فوصل كتابُ السلطان سَنْجر إلى مسعود يأمره بالاحسان إلى الخليفة وأعادته إلى بغداد مكرَّماً معزَّزا ، وأن يتلافى الحال معه ، وأن يَرُدَّ عليه أمواله وأن يجعل له من الحشَم والبَرْك والأسباب أعظمَ وأجمل مما ذهب منه ، ويعيده إلى بغداد على أتمّ حال ، فامتثل مسعود جميعَ ذلك ، وصنع له من البرك والأسِرَّة والخيم والحمول أشياء جميلة ، ووقع العزْم على العوْد إلى بغداد ، واتفقت غفلةٌ من مسعود والعسكرِ فهجم جماعة من الباطنية على المسترشد فضربوه بالسكاكين فى مخيَّمهِ بقرية بينها وبين مراغة فرسخ واحد ، وقتلوا معهُ جماعة من أصحابه ، وحين

علم مسعود بذلك ركب منزعجاً مظهراً للجزع وأخذ القوم فقتلهم ، ثم نُقِل المسترشدُ على رءوس العلماء والأمراء إلى مراغَةَ فدفن بها ، وقبُره الآنَ بها معروف تحت قبة حسنة رأيتها عند وصولى إلى مراغة فى سنة سبع وتسعين وستمائة .

واختلف الناس عند قَتْل المسترشد فى سبب قتله ؛ فقال قوم : إن مسعوداً لم يعلم بذلك ولا رضِىَ به . وقال قوم : بل مسعودٌ هو الذى واطأ الباطنية على قَتْله وأمرهم بذلك ، لأنه خافه حيث قوِيت نفسه على جمع الجموع وجرّ الجيوش ، ولم يمكنهُ قتله ظاهراً ، ففعَل ما فعَل من الاحسان اليهِ ظاهراً ثم قتله باطناً ، ثم إنه أخرجَ جماعةً من أهل الجرائم فقتلهم وأوْهم الناس أنه قد قَتل قتلتَه ، ثم أطلقهم سراً ؛ وذلك فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

من أفاضل وزرائه أبو علىّ الحسنُ بنُ علىٍّ بن صدَقةَ ، كان فاضلاً نِحْريراً عالماً بقوانين الرياسة خبيراً ، استوزره المسترشد سنة ثلاثَ عشرةَ وخمسمائة ، ولقبهُ بجلال الدين سيد الوزراء صدرِ الشرق والغرب ظهيرِ أمير المؤمنين ، وكانت لهُ معرفةٌ بالحساب وأعمالِ السواد ، غير أنه لا يُنسَبُ إليه شىء من الكرم

ثم إن المسترشِد قبَض عليه وعزَلَه عن الوزارة ، ولم يكن ذلك عن إرادة من المسترشد ، وإنما دعَتْه الضرورة إلى القبض عليه لأن وزير السلطان كان يتعصب عليهِ

ثم بعد ذلك بِعُدَيْدة زال المانع فأعاده المسترشد إلى وزارته وخلَع عليه خِلَع الوزارة ، وتقدّم إلى أرباب الدولة بالسعى بين يديه إلى الديوان ، وهو أول وزير مشى أربابُ الدولة بين يديه رَجّالة .

كان الوزيرُ ابنُ صَدقةَ يوماً جالساً فى دَسْت الوزارة فدخل عليهِ سديد الدولة

ابنُ الأنبارى كاتبُ الانشاء ، وفى كمِّه أبياتٌ قد هجا فيها الوزير ، فسقطت الرُقعة من كمه ، فمد الوزيرُ يدَه سريعاً وتناولها ، فكان فيها من جملة أبيات :

(بسيط)

أنتَ الذى كونُه فسادٌ … فى عالَم الكونِ والفسادِ

فلما رآها سديدُ الدولة فى يد الوزير سقطت قوتُه خوفاً وخجلاً ، فلما قرأها الوزير فطن القصةَ وصرَفَ الهجْوَ عن نفسه إلى سديد الدولة ، وقال : أعرِفُ هذه الأبيات ، ومن جملتها :

ولقَّبُوهُ السديدَ جهلاً … وهو برىءٌ من السدادِ

ونظَم الوزيرُ هذا البيتَ فى الحال ، فاستحيا السديدُ بنُ الأنبارى وأمسك عن الجواب ، ولما عزم السلطانُ سَنجر على الوصول إلى بغداد وتوعَّد الخليفة كتب إليهِ الوزيرُ ابنُ صدقة : « والله لئن تحركت لأقطَعَنَّ جميع ما وراءك عنك وأقطعك عنهُ ، ولئن سرت فرسخاً لأسيرنّ اليك فرسخين »

ومرض الوزير أبو علىّ بنُ صدقةَ فى آخر أيامه فعاده المسترشد وأنشده :

(طويل)

دَفعْنا بك الآفاتِ حتى إذا أتَتْ … تريدُك لم نسطِع لها عنك مَدْفعَا

ولم يزل أمرُه يضمحِل حتى توفى فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

« وزارة الشريف أبى القاسم علىّ بن طراد الزينبىّ »

هو أبو القاسم علىُّ بنُ طراد بنِ محمدٍ نقيبِ النقباءِ بنِ أبى القاسم علىٍّ نقيبِ النقباءِ بنِ الحسن بنِ محمد بنِ عبد الوهاب بنِ سليمانَ بن عبد الله بن محمد ابنِ ابراهيمَ الامام بنِ محمد بنِ علىّ بن عبد الله بنِ العباس . وإنما عُرِفوا بالزينبيين لأن أمَّهم زينبُ بنتُ سليمانَ بنِ على بنِ عبد الله بنِ العباس ، عُرِفوا بها . كان مُتَرَوِّياً من المعرفة بقوانين الوزارة وأسباب الرياسة ، وهو الذى جمع

الناس على خَلْع الراشد ، وقام فى خلعه وأخذ البيعة للمقتفى القيامَ العظيم ، واتفق مع السلطان مسعودٍ على ذلك ، ووزَر الخليفتين المسترشد والمقتفى .

ولما استوزره المسترشِد وشافَهَهُ بالولاية قال له : كلٌ من رُدَّت إليه الوزارة شَرُف بها إلاّ أنت فإن الوزارة شَرُفت بك ، وحَمل إليه الدَّسْت الكامل من دار الخليفة ، وتقدَّم إلى أرباب المناصب بالسَّعْى بين يديه إلى الديوان ، ومكثَ على ذلك مُدَيْدة ، ثم قبض عليه المسترشد وعزَلَهُ ، ثم أعاده إلى أجملِ ما كان عليه ، فلما خرَج المسترشِد إلى حَرْب مسعود كما تقدَّم شرحه خرَج الوزير معه فلما جرى على المسترشد ما جرى حظِىَ الوزير عند السلطان مسعودٍ وقرَّبه وأعلى محله واستصحبه صحبتَه إلى بغداد ، وقام الوزير بين يديه فى خَلْع الراشد وإجلاس المقتفى القيامَ الذى عرَفه له مسعود وشكَره عليه ، وباقى أخباره تَرِدُ عند ذكر وزارته للمقتفى .

﴿ وزارة الوزير أبى نصرٍ أحمدَ ابنِ الوزير نظامِ المُلْك للمسترشد ﴾

كان كريما جميل الصورة وزَر للمسترشد بالله فشُكِرَت سيرته ، لمّا عزَم المسترشِد على عِمارة سور بغداد قسَّطَ على الناس خمسةَ عشرَ ألفَ دينار ، فقام الوزير أبو نصرٍ بها وأداها عن الناس من ماله ، ولم تَطُل أيامه ؛ فتوُفِّى فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

﴿ وزارة أنوشِرْوان خالد بنِ محمدٍ القاشانى للمسترشد ﴾

كان رجلا من أفاضل الناس وأعيانهم وأخيارهم ، تولى الوزارة للسلاطين وللخلفاء ، وكان يستقيل من الوزارة فيجاب إلى ذلك ثم يُخْطَب لها فيجيب كارِها ، هو الذى صنّفَ له ابن الحريرىّ المقامات الحريرية ، وإليه أشار فى أولها بقوله : « فأشار مَنْ إشارتُه حُكْم وطاعتُه غُنْم » .

طلب الأرَّجانيُّ الشاعر من الوزير أنوشروان خيمةً فأرسل إليه بدنانيرَ كثيرة وقال له : اشْتَرِ بها خيمة ، فقال الأرَّجانيّ فى ذلك : (منسرح)

لله درُّ ابنِ خالدٍ رَجُلاً أحْيَا لنا الجودَ بعد ما ذهبَا
سألتُه خَيْمةً ألوذُ بها فجادَ لى ملءَ خيمةٍ ذهبا

وكان أنوشروان بن ُخالدٍ كثيرَ التواضع مشهوراً بذلك ، يقوم لكل من يدخل عليهِ ، فهجاه ابن الهبَّاريّة الشاعر بقوله : (بسيط)

هذا تواضُعُكَ المشهورُ عن ضَعَةٍ تَبْدُو فَمِنْ أجْلِها بالكِبْرِ تُتْهَمُ
قَعَدْتَ عن صِلَةِ الرَّاجى وقُمْتَ لَه فَذَا وُثُوبٌ على الطلاّبِ لا لهُم

وفيه يقول أيضاً يشير إلى كثرة قيامه (بسيط)

رأيتُ مشروبَه يُعبَّى مَزَاوِداً فى يدِ الغُلاَمِ
فقلتُ لا يعْرِضَنْ لِشُرْبِ الـدواء من غيرِ ما سَقام
فما به حاجةٌ إليهِ فانهُ دائمُ القِيَام

وكان بين أنوشروان بن خالدٍ و بين الوزير الزينبي عداوةٌ وتباغضٌ وتنافسٌ على الوزارة ، فعُزِلَ الوزيرُ الزينبي وتولّى أنوشروان بن ُخالد فتقرّب الناس إليه بثَلب الزينبي ، فدخل الحَيص بيَصُ الشاعر عليه وأنشده قصيدة أولها : (كامل)

شُكْراً لدهْرى بالضَّميرِ وبالْفَمِ لمَّا أعاضَ بِمُنْعِمٍ عن مُنْعِمِ

يشير إلى أنوشروان وإلى الزينبي ، فاستحسن الناس منه ذلك ، واستدلوا به على وفائه وحرّيته ، ثم إن أنوشروان بنَ خالد مات ، وأعيد الزينبي إلى الوزارة ، فتقرّب الناس إليه بمسبّة أنوشروان ، فدخل عليه الحيص بيصُ وأنشده :

(طويل)

بَقِيتَ ولا زَلَّتْ بك النعلُ إننى فَقَدْتُ اصطبارى يومَ فقدِ ابنِ خالدِ

ومات أنوشروان فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . انقضت أيام المسترشد بالله ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنه الراشد بالله أبو جعفر منصورُ بنُ المسترشد ﴾

بويع له بالخلافة عقيب وصول الخبر بقتل أبيه سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وجهز الراشدُ عسكراً كثيفاً وتوجَّه لمحاربة مسعود ، وتوجه مسعود نحو العراق طالباً لتملكه ، فوصل إلى بغدادَ فى خمسة آلاف فارس ودخلها ، فكَفَّ الراشد عن حرْبه ، وخرَج منها متوجهاً إلى الموصل ، ودخل السلطان مسعودٌ بغدادَ واستبد بتدبير الأمور فيها ، وأظهر العدل ، ومنع الجند من الأذى ، وجمعَ القضاة والشهود وأخذ خطوطهم بالقَدْح فى الراشد ، وكتب محضراً بخَلْع الراشد وأثْبَتَهُ على القضاة ، وتولى ذلك له الوزير الزينبىّ ، وكان مسعودٌ قد استشار الزينبىَّ فيمن يولِّيهِ الخلافة فقال له : يا مولانا ، هناك رجل يصلح لها ، فسأله عن اسمه فقال له : يا مولانا ، إن سَمَّيْتُهُ أخاف أن يُقتَل ، ولكنْ إذا دخلنا بغداد سميتهُ لك ، فلما احتاجوا إلى إجلاس خليفة سَمَّى الزينبىّ له أبا عبد الله محمداً المقتفى عمَّ الراشد ، فبايع لهُ وأجلسهُ على سرير الخلافة ، ثم إن الراشد لم يتِمَّ له بالموصِل أمْر ، فسار عنها إلى أصفهان ، فوثب عليه جماعة من الملاحدة فقتلوه على باب أصفهان ، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وقبره هناك معروف .

« شرح حال الوزارة فى أيامه »

لما أفْضَت الخلافة إليهِ استوزَر جلالَ الدين أبا الرضا محمد بنَ صَدَقةَ ، ولم تطُل أيامه ، وخاف مما جرى فالتجأ إلى زَنْكىّ بن آقسنقر صاحبِ الموصِل فأجاره وأصلَح امْرَه ، ثم لما خرج الراشد من بغداد استُخْدم هذا أبو الرضا فى بعض

الخدمات غير الوزارة ، ومات فى سنة ست وخمسين وخمسمائة ، ولم يكن له من السيرة ما يُؤثَر . انقضت أيام الراشد ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده عمُّه المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر ﴾

بويع له بالخلافة سنة ثلاثين وخمسمائة .

كان المقتفى من أفاضل الخلفاء ، ولما أجلسهُ مسعود وبايع له ، وكان قد أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب أو أثاث ورَحْل وغير ذلك ، وتصرف نوابه فى جميع أعمال العراق — أرسل إلى المقتفى يقول لهُ : اذكر ما تحتاج إليه أنت وكلُّ من يتعلق بك حتى أعيّنَ لك به إقطاعات ، فأرسل إليه المقتفى يقول : عندنا بالدار ثمانون بغلاً تنقل الماء من دِجلة ليشربَهُ عيالنا فانظر أنت كم يحتاج إليه مَن يشربُ فى كل يوم ماءٍ يحمله ثمانون بغلاً ؟ فقال مسعود : لقد أجلسْنا فى الخلافة رجلاً عظيماً ، فالله (تعالى) يكفينا شرَّه ، وجرت فى أيامه فتن وحروب بينه وبين سلاطين العجم كانت الغَلَبة فيها لهُ ، وثار فى أيامه العيّارون والمفسدون فنهَض بقمْعِهم أتمَّ نهوض ، وتوفى المقتفى فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه الزينبىّ أبو القاسم علىُّ بن طراد العباسى وزيرُ أخيه المسترشد ، استوزره حين بويع لأنه هو الذى قام فى بيعته وأشار على مسعودٍ به ، ومكث مدة فى وزارة المقتفى ، ثم جرَت بينه وبينه وَحْشة خاف فيها منه فاستجار بدار السلطان ، وأقام بها مدة معتصماً من المقتفى إلى أن روسل الخليفةُ من جهة السلطان فى معناه ، فأذِن فى عَوْدِه إلى داره مُكرَّماً ، فانصرف إلى داره وأقام بها على قَدَم البطالة ، واضمحل أمرُه ورَقَّ حاله ولقى شقاءً عظيماً وضائِقة شديدة ، حتى إنه مرض فاشتهت نفسُه شيئاً من المشموم فلم يقدِر على ثمنه ، وقد كان أنفق

أكثرَ ماله لما كان مستجيراً بدار السلطان على خواتينه وأتباعه وأرباب دولته، وكانت مواهبه دارّة على أكثر أرباب الدولة وغيرهم من العلماء والوافدين والطالبين ولما مرض مَرْضته التى مات فيها كتب إليه المقتفى رُقعة يستميله فيها ويعده بكل جميل، فتمثل الوزير : (طويل)

أَتَتْ وحياضُ الموتِ بينى وبينَها وجادَتْ بوصْلٍ حينَ لا ينفَعُ الوَصلُ

وقال : وصيتى حفظُ حُرَمى وأطفالى ؛ فلما توفى قام المقتفى بجميع ما يحتاج إليه أولاده وصغاره، وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة .

﴿ وزارة نظام الدين أبى نصر المظفرِ بن محمد ابنِ جهير البغدادى للمقتفى ﴾

كان له أنسٌ بالعلوم وخاصةً بالحديث النبوىّ (صلوات الله على صاحبه) ولم تطل أيامه، ولم يكن له من السيرة ما يُؤثر.

﴿ وزارة مؤتَمَن الدولة أبى القاسم علىٍّ بن صَدَقَة المقتفى ﴾

بيته بيت مشهور بالوزارة، معروف بالرياسة، وكان مؤتمن الدولة حسَن الصورة والخُلق لكن لا علم عنده بقوانين الوزارة، وكان كثير التعبد والصدقة، استوزره الخليفة المقتفى لأمر الله، قالوا : كان هذا مؤتمنُ الدولة الوزيرُ قليلَ الاشتغال بالعلم، وكان ضعيف القراءة فى الكتب، وكان قد أدمن فى قراءة جزء واحد من أجزاء القرآن، وفى كتاب واحد من كتب الأدب، فكان لا يزال الجزء المذكور والكتاب بين يديه يقرأ فيهما قراءة جيدة، نخفِىَ على الناس حاله مدة وزارته، فلما مات ظهرَ ذلك عنهُ، ولم يكن له من السيرة ما يؤثر .

﴿ وزارة عون الدين أبى المظفر يحيى بن هُبيرَة المقتفى ﴾

أولُ مَنشئه من قرية تُعرَفُ بالدور من أعمال دُجَيل، تعرف اليوم بدور الوزير

نسبة إلى ابن هبيرة ، وكان أبوه أكّارًا بالقرية المذكورة ، وكان يحُثُّ وَلَدَه على تحصيل الأدب وإدراك الفوائد ، وكان يردده صغيراً إلى بغداد ويُحضره إلى مجالس الصدور وصدور المجالس ، وكان هو كما قيل : (مديد)

وَلَهَا مِن نفْسِها طَرَبُ

ومات أبوه وهو صبيّ ، فتفرد بالأشتغال وتقلبت به تصاريف الأمور ، ومرَّتْ عليه شدائدُ ، وكابدَ من الفقر أهوالاً ، وتنقَّل فى الخْدمات فكان لا ينتقل من خدمة إلاّ إلى أكبرَ منها ، وما زال ينتقل من خدمة إلى أخرى أرفعَ منها حتى تقلد الوزارة للمقتفى ، فمكث فيها مدّة ، ومشاهرَتُه فى كل سنةٍ مائةُ ألفِ دينار ، وكان كريمًا جواداً سَمْحًا لا يخرج من السَّنَةِ وفى خزانته منها درهم واحد ، وكان المقتفى والمستنجد يقولان ما وزر لبنى العباس كيحيي بن هبيرة فى جميع أحواله ، وكانت له فى قمع الدولة السلجوقية يدٌ قوية وحِيَل مُرْضِية ، وكان وقوراً حليماً متواضعاً ، لما تولى الوزارة دخل الديوان وعليه الخلع فرأى غلاماً من غلمان الديوان واقفاً عن بُعْدٍ فاستدناه وتبسم فى وجهه وأمر له بذهب وكُسْوة ، ثم قال : لا اله الاّ الله ! أذكر مرة وقد دخلت هذا الديوان وجلست فى بعض المجالس ، فجاء هذا الغلام وجذبنى بيدى وقال : قم فليس هذا مكانك ، وقد رأيته الساعةَ واقفاً وأثرُ الخوف ظاهر عليه فأحببت أن أؤانسه وأزيلَ رُعْبه . ورأى يوماً فى الديوان جندياً فقال لحاجبه : أعط هذا الجندى عشرين ديناراً وكُرَّ حِنطة ، وقل له : لا يَدْخل الديوان ولا يُرِينا وجهه ، فتغامز الناس وتشوَّقُوا إلى معرفة السبب فى ذلك ، وفطِن الوزير لذلك ، فقال لهم : كان هذا الجندى شِحنة فى قريتنا فقُتِل شخص من أهل القرية ، فجاء هذا الشحنة وأخذ جماعة من أهل القرية وأخذنى معهم مكتوفاً فى عَرْض الفرس ، وبالغ فى أذاىَ وضَرْبى ، ثم أخذ من كل واحد منهم شيئاً وأطلقهم ،

وبقيت أنا معه ، فقال لى : أعطنى شيئاً أُخلّصْك ، فقلت : والله ما أملك شيئاً ، فأعاد علىّ الضرب والأهانة ، ثم قال لى : اذهب إلى لعنة الله ، ثم أطلقنى ، فأنا لا أحبّ أن أرى صورة وجهه .

ومن أفكاره اللطيفة أن الوزراء كانوا قبله يُلَقَّبون ألقاباً من جملتها : سيدُ الوزراء ، فتقدم هو إلى الكتاب ألاّ يكتبوا هذا اللقب فى ألقابه ، وقال : إننى افتكرت فى هذا فرأيت الله (تعالى) قد سمى هارون وزيراً ، حتى قال : (عزّ مِنْ قائل) حكايةً عن موسى (عليه السلام) « واجْعَل لِى وَزيراً مِنْ أهْلِى هارُونَ أخِى اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى » وسمعت عن النبي (عليه السلام) أنه قال « لى وزيران من أهل السماء جبرائيل وميكائيل ، ووزيران من أهل الأرض أبو بكر وعمر » وقال (عليه السلام) « إن الله (تعالى) اختار لى أصحاباً فجعلهم وزراء وأنصاراً »

وحَدَّثَ عنه بعض مُجالسيه قال : كنا يوماً عنده فدخل الحاجب وقال : يا مولانا ، بالباب رجل سَوَادِىّ ، يذكر أنه فلانُ بنُ فلان ، ومعه شَمْلة مكوّرة ، وهو يطلب الحضور بين يديك ، فعرَفه الوزير وقال له : أدْخِلْه ، قال فدخل شيخ طويل من أهل السواد عليه ثياب غليظة من القطن وعمامة فوط ملونة ، وفى رجله جُمْجُمان ، فسلم على الوزير وقال : يا سيدى ، أم الصغيرات (يَعْنِى زوجَتَه) لما عَلِمَتْ أنى أجىء إلى بغداد قالت لى : سلِّمْ على الشيخ يحيى بن هبيرة واستوحِشْ له وقد خَبَزَتْ لك هذا الخبز على اسمك ، فتبسم الوزير وهش به وقال : جزاها الله خيراً ، وحل تلك الشملة فاذا فيها خبز شعير مشطور بكامَخ التُوت ، فأخذ الوزيرُ منهُ رغيفين وقال : هذا نصيبى من هذه الهدية ، وفرّق الباقى على الصدور الحاضرين ، وسأل الرجلَ عن حوائجه وحوائج زوجته فقضاها ، وقال للحاضرين : هذا كان جارى فى قريتى وشريكى فى زُرَيْع ، وأعرِف منه الأمانة .

(١٨)

ومن حيله أنه كان ببعض بلاد العجم رجلٌ كلما أقيمت الخطبة يوم الجمعة فى الجامع يقوم ويَذُم الخليفة ، ويدعو للسلطان ، فاتصل ذلك بالوزير ابنِ هبيرة فأحضر شخصاً من أهل بغداد وأمره أن يسافر إلى تلك البلدة ، وأعطاه عشرة دنانير ذهباً وقارورة فيها خِطر ، وقال له : إذا دخلت ذلك البلد ، وحضرْتَ يوم الجمعة فى الجامع ، ورأيتَ الرجلَ الذى يسُبُّ الخليفة فانهض إليه ، وأنت على زىّ التجار وأمِّن على كلامه ، وأظهِر البكاء عند مسبّة الخليفة ، وقل : إى والله ، فَعل الله بهِ وصنع ، وهل غرَّبنى عن عيالى ووطنى وافقرنى غيرُه ، ثم افعل فى الجمعة الثانية كذلك ، وقل له : قد حلفتُ انى أملأ فمك دنانيرَ ، وضَعْ هذه الدنانير حشوَ فمه ، واخرُجْ عنه وبادر إلى استعمال هذا الخِطر على وجهك ولحيتك ، فانهُ يحْدِثُ فى الوجه سُمْرة ، وفى شيب اللحية سواداً ، وغيِّرْ زيَّك حتى لا تُعْرَف فتهلِك . ففعل الرجل ذلك ، وكانت الدنانير مسمومة ، فلما راح ذلك الرجل إلى بيته ما زال يتقلقل حتى مات من يومه ، واستعمل الرجل المنفِذُ الصِبْغَ فأخفى بهِ نفسه ورجَع إلى بغداد .

ومن حيله أنه كان يكتب إلى ملوك الأطراف ملطفات صغارًا فى رَقّ خفيف ويشق فى جلد ساق الركابى بمقدار ما يدخلها فيه ثم يتركه حتى يلتحِم ويسيّره إلى حيث أراد ، ومن قوة جأشه وثباته أنه كان يومًا جالساً بالديوان ، وبين يديه الأمراء والصدور والأكابر ، فسقطت من السقف حيّة كبيرة فوقعت على كتف الوزير وسرَحتْ من كتفه إلى حَجره ، فنفَر كلُّ من كان هناك من أرباب الدولة عن مستقرِّه ، وانزعجوا عن مراتبهم ، والوزير جالس لم يتحرَّك عن مكانه ولا تغيّر من دَسته ، ما كأنَّ وقَع عليه شىء ، ثم أمر المماليك بقتلها فقتلت بين يديه .

وفى الجملة فكان ابن هبيرة من أفاضل الوزراء وأعيانهم وأماجدهم ، له فى تدبير

الدولة وضبط المملكة اليد الطُّولَى ، وله فى العلوم والتصانيف التبريزُ على أهل عصره ، وله أشعار كثيرة ، فمنها : (طويل)

يَقِينُ الفتى يُزرِى بحالةِ حِرْصِهِ فقُوَّةُ ذا عن ضَعفِ ذا تَتحصَّلُ
إذا قلَّ مالُ المرءِ قلَّ صديقُهُ وقُبِّحَ منه كلُّ ما كانَ يَجْمُلُ

وفى آخر أيامه عرَض له تزايدُ البَلْغَم فمات وهو ساجد ، وذلك فى سنة ستين وخمسمائة . انقضت أيام المقتفى لأمر الله ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنه المستنجِد بالله أبو المظفَّر يوسفُ ﴾

بويع عقيب موت أبيه فى سنة خمسٍ وخمسين وخمسِمائة .

كَان المستنجد شهماً عارفاً بالأمور ، لما وَلى الخلافة أزال المكوس والمظالم ، إلاّ أنه فعل فَعلة قبيحة ، حل المقاطعات واعادها إلى الخراج فشقّ ذلك على العلويين بالكوفة والمشاهد مشقةً عظيمة ، ونسَبوا هذا الفعل الى ابن هبيرة ولعنوه بالمشاهد .

وفى ايامه ابتدأ فَتْح مصر وضَعُفَت دولة الفاطميين بها ، وفى أيام وَلَدِه المستضىء تكامل فتحُها على يد صلاح الدين يوسفَ بنِ ايوبَ .

ومات المستنجد مخنوقاً فى الحمام ، خنقه أكابر دولته عقيب مرْضة صَعْبة كانت قد عرَضتْ له لأنهم خافوه على انفسهم ، وذلك فى سنة ست وستين وخمسمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقرَّ ابنَ هبيرةَ وزيرَ أبيه على وزارته ، وزادَ فى رَفع منزلته ، وقد مضى من سيرة ابنِ هبيرةَ ما يُغنى عن الإعادة .

﴿ وزارة ولده محمد بن يحي بن هبيرة ﴾

لقبه عزُّ الدين ، نابَ عنِ الوزارة بعد وفاة والده ، وكان فاضلاً رئيسًا عبِقًا بالسيادة شاعرًا رشيقَ المعـانى خبيرًا بالأدب والحديث النبوى ، وحُبِس بعد موت أبيه ولم يُعلَم خبرُه بعد الحبس ، ورُوِى عنه هذان البيتان أنهما لهُ :

(خفيف)

كم مَنَحْتُ الأحداثُ صبرًا جميلاً ولـكمْ خِلت صابَها سلسبيلاَ
ولـكَمْ قلتُ للذى ظَلَّ يلحا نى على الوجدِ والأسى سَلْ سَبِيلا

﴿ وزارة شرف الدين أَبى جعفرٍ محمدِ بنِ ابى الفتح بن البلدى للمستنجد بالله ﴾

كان قبل الوزارة ناظرًا بواسط ، فأبان فى مدة ولايته عليها عن قوّة وجَلادة وارتفاعات نامية وحُلوم دارّة ، فعظمت منزلتهُ عند المستنجد وكوتب عن الخليفة إلى واسط بما يَقضى أن يكون وزيرَه ، وتأكد الحال فى ذلك ، فحكَم حُكْمَ الوزراء وهو بواسط ، ووقَّع وكاتَب ملوكَ الأطراف وهو بواسط ، ثم أصْعَد إلى بغداد ، فخرَج الموكِب لتَلَقِّيهِ ، وفيـه جميع أعيان الدولة . وكان عضُد الدين أبو الفرج محمدُ بنُ رئيس الرؤساء أستاذَ الدار بينهُ وبين ابن البلدى كَدَر ، فكرِه عضُدُ الدِّين الخروج إلى تلقيهِ ، وقد كان الخليفة تقدم إليهِ بالخروج ، فبذل خمسة آلاف دينار على أن يُعْفَى من الخروج إليه ، فقال الخليفة : إنْ عَجَّلها نقداً أعفيتُهُ من الخْروج ، فوُزنَتْ فى الحال وحُمِلَت . فلما صارت فى الخَزْن تقدم الخْليفة إليهِ بالخْروج لتلقى الوزير ، وقيل له : هذا المال جناية عن كونك تكرهُ ما نُؤْثِر ، وترَاجعُ فى التقدمات الشريفة ، فذهب المال منهُ وخرَج عابرًا إلى الجانب الغربى صحبةَ الموكِب ، ومضَى الناس كلهم إلى صرصر فتلقوه هناك ،

فلما وَقعَتْ عينُ عضد الدِّين أستاذِ الدار على الوزير أراد عضُد الدِّين أن يَترَجَّل ، فصاح به الوزير : والله لئن ترجلتَ ترجلتُ أنا أيضاً ، فخَدمهُ ، ثم اعتنقا على ظهور الدواب ، وسار بين يديهِ ، ووصل الوزير إلى محاذاة التاج ، وعبَر فى سفينة وحضَر بين يدى الخْليفة فشافههُ بالوزارة . وخُلِعَت عليهِ خِلَع الوزارة ، وأكّد عليه النهوض بالمهام الديوانية فنهض بأعباء الوزارة ، وما زال أمره عَلَى السداد إلى أن جرى للمستنجد ما جرى من تغلّب عضد الدّين أستاذِ الدار وأكابر الأمراء عليه وإدخاله الحمامَ وهو مريض حتى مات من الحرارة . ثم إن عضد الدين أستاذَ الدار أخرج ولده المستضىء وبايعهُ ، وشرط عليهِ شروطاً وأحلفهُ عليها أيمانًا مؤكدة ، منها أن يكُون هو وزيراً ، وأن يكُون ولده أستاذَ الدار ، وفلانٌ أميرَ العسكر ، وفلان كذا وكذا ، فالتزم المستضىء لهم بذلك وحلف أيمانًا غليظة ، ثم بويع المستضىء فى باطن الدار البيْعَة الخْاصة ، واستُدعِى الوزير ابن البلدى ليبايِـع ، فلما حضر الدارعُدِل بهِ إلى مكان وضُرِبَت عنقه ، وأُخرِجَ فرُمى على مزبلة بباب المراتب ، ثم سُحِب والقى فى دجلة ، وكان حَسَن الطريقةِ مشكُورَ الأخلاق . انقضت أيام المستنجد بالله ووزرائه .

﴿ ثم ملَك بعده ولدُه المستضىء أبو محمدٍ الحسنُ بنُ المستنجد بالله ﴾

بويع فى سنة ست وستينَ وخمسِمائة ، لم يكُن بسيرته بَأسٌ ، فى أيامه وردت البشائر إلى بغداد بفتح مصر وانقراض الدولة الفاطمية .

ولما جلس عَلَى سرير الخْلافة تقدّم بقتل ابن البلدىّ وزير أبيهِ ، وتوفى فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أول وزرائه عضد الدين أبو الفرج محمدُ بنُ أبى الفتوحِ عبدِ الله بنِ رئيس الرؤساء الذى كان قبل ذلك أستاذَ الدار .

كَانَ عضُدُ الدينِ من أفاضل الناس وأعيانهم ، وكَانَ أستاذَ الدار فى أيام المستنجد ، فلما جرى للمستنجد ما جرى استولى عضد الدين ، ونهض فى إخراجِ المستضىء من الحبس ومبايعتهِ وأخْلاَفِه ، فاستوزره المستضىء ، ونهض عضد الدين بأعباء الوزارة نهوضاً مرضيا ، وفرّق فى يوم جلوسه فى دَست الوزارة ذهباً كثيراً وحِنطة عَلَى المقيمين بالمشاهد والجوامع والمدارس والرُبُط ، وتلطف بالأمور تلطفاً لم يكُن فى حساب الناس ، وبيتهُ بيت مشهور بالرياسة ، يعرفون قديماً ببيت الرُفيْل ، وكَانَ ابن التعاويذى الشاعر البغدادى شاعرَهم ومنقطعاً إليهم ، وأنفق جلَّ عمره معهم ، ولهم يخاطب بقوله : (سريع)

قضيتُ شَطْرَ العمرِ فى مدحكمْ ظنًّا بكم أنكم أهلُه

وعُدْتُ أُفنيهِ هجاءً لكم فضاعَ فيكم عمرى كله

وله فيها مدائح كثيرة فمن جملتها : (طويل)

وما زلتُ فى آلِ الرفيلِ بمعزلٍ عن الجَوْرِ مبذولا لى الأمنُ والخِصْبُ

فإنْ أقترفْ ذنباً بمدحِ سِواهُمُ فانَّ خِماصَ الطيرِ يقنِصُها الحَبّ

وإن عادَ لى عَطْفُ الوزيرِ محمدٍ فقد أَكْثَبَ النائى ولانَ لىَ الصَّعْبْ

وزيرٌ إذا اعتلَّ الزمانُ فرأيُهُ هِناء بهِ تُطْلى خلائقهُ الجُرْب

وما زال أمرُ عضد الدين يجرى على السَّداد حتى عزَله المستضىء وقبض عليه ، وصورةُ عَزْله : كان يوماً جالساً فى الدَست فهجم عليه خادم من خدم الخليفة

فقال لهُ : قد استُغنىَ عنك ، ثم أطبقَ دواتَه ، ودخل الأتراك والجند إلى دوره فنهبوا ما بها ، ودخل العوام أيضاً ، وكُسرتْ الصناديق الآ بنوس والعاج بالدبابيس وأُخذَ جميع ما كان بها ، فخرج عضد الدين وهو يتشاهد ويقول للأتراك : أما تستحيون منى ؟ أما دخلتم دارى ؟ أما أكلتم زادى ؟ فلم ينفعه ذلك ، فلم يمض إلا ساعةٌ واحدة حتى صارت دارِه بلاقع ، ثم حُمِل إلى الحريم ووُكل بهِ هناك مدة ، ثم أعاده المستضىء إلى الوزارة وحكَّمه وبسَطَه ، فصفَتْ له الدنيا وعظم شأنه وكثرت خيراته وهِباته وأحبه الناس . وكان سخياً وهو با شريف النفس ، قيل : إنه ما اشترى لداره قطُّ سكراً بأقلَّ من ألف دينار.

حدّث عنه بعض مماليكه قال : احتاج مرة إلى ألف دينار فأنفت نفسه أن يقترضها من أولاده ، أو من غيرهم ، وكاَن يأنس بى . فقال لى : يا ولدى ، قد احتجت إلى ألف دينار أعيدها عليك بعد أيام ، فقلت : السمع والطاعة يا مولاى ثم مضَيْت وأحضرت له خمسة آلاف دينار ، وقلت : يا مولاى ، هذه والله اكتسبتها منك فخذ منها ما شئت ، فأطرق ساعة ثم قال : والله لا أخذت منها حَبَّة واحدة ، خذها وانصرف ، ثم أنشد : (كامل)

والصاحبُ المتبوعُ يقبحُ أن يُرَى مُتَتبِّعاً ما فى يدَىْ أتباعِهِ

ولم يزل أمره فى الوزارة الثانية جارياً على السداد حتى كان آخرُ مدته فطلب من الخليفة الإذن له فى الحج فأذن له ، فتجهز تجهزاً لم يُرَ مثلُه ، ثم عبر إلى الجانب الغربىِّ من مدينة السلام ليتوجه إلى الحلّة والكوفة ، ومنها إلى مكة ، وبين يديه جميع أرباب الدولة ، فلقيه رجل عند محلَّة هناك تعرف بقَطفْتا ، فقال : يا مولانا ، مظلوم مظلوم ، وناوله قصة ، فتناولها الوزير منه ، فوثب عليه وثبة عالية وضربه بسكين فى تَرْقُوَته ، ووثب عليه آخرُ من الجانب الآخرِ فضربه فى

خاصرته ، ووثب آخر وبيده سكين مسلولة فلم يصل إليه ، وتكاثر الناس على الثلاثة فقتلوهم ، ثم مات الوزير وصُلي عليه ودُفِنَ فى تربتهم . وقيل : إن الثلاثة الذين قتلوه كانوا من الباطنية من جبل السماق .

وحكى بعض أهل قَطُفْتا قال : دخلتُ قبل قَتْل الوزير بساعتين إلى مسجد هناك فرأيت به ثلاثة رجال وقد قدّموا واحداً منهم إلى المحراب وأناموه ثم صلى الرجلان الآخَران عليه صلاه الميت ، ثم قام ونام آخر وصلى الآخران عليه حتى صلى كل واحد منهم على الآخر، وأنا اراهم وهم لا يَرَوْنني ، فعجِبت مما فعلوا ، ثم لما قُتِل الوزير وقُتِل الثلاثة تأمّلْتُ وجوههم فإذا هُمْ هُمْ .

﴿ وزارة ظهير الدين أبى بكر منصور بن القاسم نصر بن العطار ﴾

كان تاجراً فى ابتداء أمره ، ثم مازج المتصرّفين ونَفق على المستضىء فاستوزره ، وكان ثقيل الوطأة على الرعية ، وكانت العامة تُبغضه ، فبقىَ إلى أن مات المستضىء وَوَلِى الناصر وهو آخروزراء المستضىء . انقضت أيام المستضىء ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ابنُه الامامُ الناصرلدين الله أبو العباس أحمدُ بنُ المستضىء بأمر الله ﴾

بويع بالخلافة فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

كَان الناصر من أفاضل الخلفاء وأعيانهم بصيرًا بالأمور مُجرِّباً سائساً مَهيباً مِقداماً عارفاً شجاعًا متأيداً حادّ الخاطر والنادرة متوقد الذكاء والفطنة بليغاً غير مدافَع عن فضيلة علم ولا نادرة فهم ، يفاوض العلماء مفاوضة خبير ، ويمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير ، وكَان يرى رأى الامامية ، طالت مدته ، وَصفا له الملك ، وأحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه ، حتى كَان يتمشى فى الليل فى دروب بغدادَ ليعرِف أخبار الرعية وما يدور بينهم ، وكَان كل أحد من أرباب المناصب والرعايا يخافه ويحاذره ، بحيث كأنه يطّلع عليه فى داره ، وكثرَت جواسيسه وأصحابُ

أخباره عند السلاطين وفى أطراف البلاد ، وله فى مثل هذه قصصٌ غريبة . وصنَّف كتباً ، وسمع الحديث النبوى (صلوات الله على صاحبه) وأسمَعَهُ ، ولبِس لِباس الفتْوَة وَألبسه ، وتفتى له خلق كثيرون من شرق الأرض وغربها ، ورمَى بالبُندق ورمَى له ناس كثيرون ، وكَان باقِعَةَ زمانه ورجُلَ عصْره ، فى أيامه انقرضت دولة آل سلجوق بالكلية ، وكان للناصر من المبارّ والوقوف ما يفوت الحْصْر ، وبنى من دور الضيافات والمساجد والرُبُط ما يتجاوز حد الكثرة ، وكان مع ذلك يُبَخَّل ، وكان وقته مصروفاً إلى تدبير أمور المملكة وإلى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الأمور ، يقال عنه : إنهُ ملأ بركة من الذهب فرآها يوماً وقد بَقِيَ يُعْوِزُها حتى تمتلئُ وتفيض شيء يسير ، فقال : تُرَى أعيش حتى أملأها ! فمات قبل ذلك ، ويقال إن المستنصر شاهد هذه البركة فقال : تُرَى أعيش حتى أُفنيَها ! وكذلك فعل ، مات الناصر فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع الناصر بالخلافة أقرَّ ابنَ العطار وزير أبيه على قاعدته أياماً يسيرة ، ثم نكَبه وقبَض عليه وحبَسه فى باطن دار الخلافة ، ثم أُخْرج بعد أيام ميتاً فسُلِّمَ إلى أخته لتُجهِّزه وتَدفنه ، فغسَّلته وأَخرجته فى تابوت على رأس حمَّال لتدفنه ، فغمزَ بهِ بعضَ الناس فرجموه ، فرمَى الحمالُ بالتابوت وهرَب ، فأخذه العوام وأخرجوه من التابوت ومثّلوا بهِ ، وشدوا فى رجله حبلاً ، وسحبوه ووضعوا فى يده خشبة ، ونادَوا بهِ : يا مولانا ظهيرَ الدين ، وقّع لنا !

ومن طريف ما وقع فى ذلك أن بعض الأتراك عمرَ حمّاماً وجعل مجراته تجوز على دار بعض الجيران ، فتأذى الجار بتلك المِجراة فشكا ذلك إلى الوزير فزبَرَه

ولم يأخذ بيده ، وقال له : إن لم تسكت وإلّا جعلْتُ رأسَك فى المِجراة ، فيقال إن ابن العطار لما سحبه العوام ومثلوا به اجتازوا به على باب الحمام المذكور ، فاتفق أنه وقع فى المِجراة فسحبوه فيها خُطُوات ، فتعجب الناس من ذلك .

﴿ وزارة جلالِ الدِّين أبى المظَفَّر عبيد الله ﴾

كان فى ابتداء أمره أحدَ الشهود المعدَّلين ، ثم تقلبت به الأحوال حتى بلغ الوزارة ، وأرسله الناصرُ صحبةَ عسكرٍ كثيفٍ إلى محاربةِ السلطان طُغْرُلَ بنِ أرْسلانَ ابنِ طغرلَ السلجوقىِّ فالتقيا ، فكانت الغَلَبَة لعسكر السلطان ، وانهزم عسكر الخليفة ، وثبَتَ الوزير فأُسِر ، ومكث مدة فى الأسر ، ثم أُطْلق فوصَل إلى بغداد متخفياً ، ولم تطل مدته بعد ذلك .

﴿ وزارة مُعِزّ الدِّين سعيد بنِ علىّ بنِ حديدةَ الأنصارى ﴾

كان رجلاً فاضلاً متصوِّناً موسرًا كثير المال ، رُوِى أن نقيبَ البَصرة أبا جعفر محمد بن أبى طالب الشاعرَ أصْعَد إلى بغداد متظلماً إلى هذا الوزير من ناظر البصرة وأنشده قصيدة من جملتها : (كامل)

وقبائلُ الأنصـــارِ غيرُ قليلةٍ ... لـكنْ بنو غنْمٍ هم الأخيارُ
منهمُ أبو أيوبَ حَلَّ محمـــدٌ ... فى دارِه واختـارَهُ المختار
أنا منه فى النَّسَب الصريح وأنتَ مِنْ ... ذاكَ القبيـــلِ فلى بذاكَ جوار
ولقد نزلتُ عليكَ مثلَ نزولِهِ ... فى دارِ جـــدِّك والنزيلُ يُجَار
فعَـلامَ أُظْلَمُ والنبىُّ محمـــدٌ ... أُنمى إليـــه وقومُكَ الأنصار

قالوا : فلما سَمِعها الوزير رقّ له و بكى ، وخلع عليه ووصَله وقضى حوائجه

وأنصفه من ناظر البصرة وعزله ، ومات الوزير المذكور معزولاً فى سنة ستَّ عشرةَ وستمائة .

﴿ وزارة مؤيّد الدّين أبى المظفرّ محمد بنِ أحمدَ بنِ القصَّاب ﴾

هو أعجمىّ الأصل ، كان أبوه يبيع اللحم على رأس درب البصريين ببغداد ، ونَشَأ هو مشتغلًا بالعلوم والآداب ، وبَرَع فى علوم المتصرفين كالحساب ومعرفة الكروث والمساحات والمقاسات ، ثم تبصَّر بأسباب الوزارة ، وكانت نفسه قويةً وهمته عاليةً ، قاد العساكر وفتح الفتوح ، وجمع بين رياستى السيف والقلم ، ومضَى إلى بلاد خوزستان وفتحها وقرَّر أمورها وقواعدها ، ثم مضى إلى بلاد العجم وصحبته العساكر فملك اكثرها ، ثم أدركه أجله فمات هناك .

﴿ وزارة السيد نَصيرِ الدّين ناصرِ بنِ مهدىّ العلوىّ الرازى للناصر ﴾

هو مازندرانى المولد والأصل ، رازىُّ المنْشأ ، بغدادى التدبُّر والوفاة .

كان من كُفَاة الرجال وفضلائهم وأعيانهم وذوى المِيزة منهم ، اشتغل بالآداب فى صباه فحصَّل منها طرفاً صالحاً ، ثم تبصّر بأمور الدواوين ففاق فيها ،

كان فى ابتداء أمره ينوب عن النقيب عز الدين المرتَضى القُمى نقيب بلاد العجم كلِّها ، ومنه استفاد قوانينَ الرياسة ، وكان عز الدين النقيبُ من أماجد العالم وعظماء السادات ، فلما قُتل النقيبُ عز الدين (قتله علاء الدين خوارزمشاه) هرَب ولدُه النقيبُ شرفُ الدين محمدٌ وقصَد مدينة السلام مستجيراً بالخليفة الناصر ، وصحبته نائبه نصير الدين بن المهدى ، وكان من عقلاء الرجال ، فاختبره الناصر فرآه عاقلا لبيباً سديداً ، فصار يستشير به سراً فيما يتعلق بملوك الأطراف ، فوجَد عنده خِبرة تامة بأحوال سلاطين العجم ومعرفةً بأمورهم وقواعدهم وأخلاق

كل واحد منهم ، فكان الناصر كلما استشار به فى شىء من ذلك يجده مصيباً عَيْنَ الصواب ، فاستخلصه لنفسه ورتَّبه أولا نقيبَ الطالبيين ، ثم فوّض إليه أمور الوزارة فمكث فيها مدة تجرى أموره على أتمّ سَداد ، وكَان كريماً وصُولاً عالىَ الهمة شريف النفس ، حُدِّث عنه أنه كان يوماً جالساً فى دَست الوزارة وفى يده قطعة عود كبيرة ، فرأى الوزيرُ بعضَ الصدور الحاضرين وهو يُلِحّ بالنظر إليها ، فقال له : تعجبك هذه ، فدعا له ، فوهبه إياها ، وقام الرجل ليخرج فلما بعُد عن مجلس الوزير استدعاه بسرعة وقال له : تريد أن تفضحنا وتُصدِّقَ المثلَ فينا (بخّره عُريان) ثم أمر فخُلع عليه ، ودفع إليه تخْت ثياب وقال له : تبخّر فى هذه الثياب ، ومدحه الأبهرى الشاعر الأعجمى بقصيدة مشهورة فى العجم من جملة مدحها : (بسيط)

وزير مشرق ومغرب نصير ملت ودين	كه بادرايت عاليش تا أبد منصور
صرير كلك تودر كشف مشكلات أمور	كه هم جو نغمه داود در أداء زبور

وأرسلها الأبهرىّ صحبة بعض التجار مع بعض القفول ، وقال للتاجر : أوصِلْها إلى الوزير ، وإنْ قدرْت ألا تعلِمَهُ مَنْ قائلها فافعَلْ ، فلما عُرِضَت القصيدة على الوزير استحسنها وطلب التاجرَ ودفع إليه ألفَ دينار ذهباً ، وقال : هذه تُسلِّمُها إلى الأبهرى ، ولا تُعْلِمُه مِمَّنْ هى .

وقَبض الناصر عليه كارهاً لأمور اقتضت ذلك ، وكان القبض عليه فى سنة أربع وستمائة ونُقِل الى دار فى دار الخلافة فأقام بها تحت الاستظهار على حالة الإكرام والمراعاة إلى أن مات تحت الاستظهار فى سنة سبع عشرة وستمائة .

﴿ وزارة مؤيّد الدّين محمدِ بنِ محمد بنِ عبد الكريم برز القُمّي للناصر ﴾

هو قميّ الأصل والمولد ، بغدادى المنشأ والوفاة ، ينتسب إلى المِقداد بن الأسود الكِندى ، كان (رحمه الله) بصيراً بأمور المُلْك خبيراً بأدوات الرياسة عالماً بالقوانين عارفاً باصطلاح الدواوين خبيراً بالحساب ريّانَ من فنون الأدب حافظاً لمحاسن الأشعار راوياً لطرائف الأخبار ، وكان جَلْداً على ممارسة الأمور الديوانية ملازماً لها من الغدوة إلى العشية ، وكان فى ابتداء أمره قد تعلق بخدمة سلاطين العجم وكان يلوذ ببعض وزراء العجم بأصفهان فى حال صباه ولم يبلغ العشرين من عمره ، وكان ذلك الوزير قد ضجر من الكُتّاب الذين بين يديه ونسبهم إلى أنهم يخالفون تَقَدمَاته ، فأبعدهم عنه واستكتب القمى ظناً منه أنه لمجرد حداثة سنه لا يُقْدِم عَلَى مخالفة ما يشير به ، فمكث القمى يكتب بين يديه مدة ، ففى بعض الايام أحضرت بين يدى الوزير جملةٌ من الثياب النسيج ، بعضُها صحيح وبعضها مقطوع ، فأحضر القميَّ بين يديه ليُثْبت عددَها ويَحْمِلها إلى الخِزانة ، وكان الوزيرُ يورِد عليه كذا وكذا ثوباً صِحاحاً فيكتب القمى كذا وكذا ثوباً وما يكتب لفظةَ « صحاحاً » ، فقال له الوزير : لم لا تكتب كما أقول لك ؟ فقال : يا مولانا : لا حاجة إلى ذكر الصحاح ، فانى إذا وصلْتُ إلى ذكر ثوب مقطوع ذكرت تحته أنه مقطوع ، فتخصيص المقطوع بالذكر يدل على أن ما لم يوصف بالقطع صحيح ، فقال الوزير : لا ، بل اكتب كما أقول ، فراجعه القمى ، فحَرِدَ الوزير لذلك وارتفع صوته والتفت إلى الحاضرين وقال : أنا عزلت الكُتّاب الكبار الذين كانوا عندى لأجل مخالفتهم ولَجَاجِهم فيما أقوله ، واستكتبتُ هذا الصبيّ ظناً منى أنه لحداثة سِنِّه لا يكون عنده من التجرؤ والمخالفة ما عندهم ، فاذا

هو أشدُّ مخالفةً من أولئك ، فخرج بعضُ خدام السلطان من بين يديه ، وكان جالساً قريباً من مجلس الوزير ، وسأل عن كثرة الصياح وحَرَدِ الوزير ، فعرَف الخادم صورة ما جرى بين الوزير والقمى ، فدخل وحكى للسلطان ما قيل ، فقال له أخرج وقلْ للوزير : الحقُّ ما اعتهدَه الصبىُّ الكاتبُ ، فنبلَ القمى فى عيون الناس ، وعلَت منزلته وأنِس القمى بهذا الخادم ، وصار الخادم يستشيره ويسكن إليه ويأنَس به ، فاتفق أن السلطان عيَّنَ على هذا الخادم وعلى رجلٍ آخرَ ليتوجها فى رسالة إلى ديوان الخليفة ، فالتمس الخادم أن يكون القمى صحبتَه فأُرْسِلَ صحبته ، فتوجهوا إلى بغداد وحضر الخادم ورفيقه عند الوزير ابن القصّاب فشافهاه بالرسالة وسمعا الجواب ، وكان جواباً غيرَ مطابقٍ للرسالة ، ولكنه كان نوعا من المغالطة فقنِع الخادم ورفيقه بذلك الجواب ، وما تنبها على فساده ، وخرجا فرجع القمىُّ ووقف بين يدى الوزير وحادثَهُ سراً وقال له : يا مولانا ، الجواب غيرُ مطابق لما أنهاه المماليك ، فقال له الوزير : صدَقْت ولكن دَعْهم على غباوتهم ولا تفطِّنهم إلى ذلك ، فقال : السمعُ والطاعة، ثم إن ابن القصاب كتب إلى الخليفة يقول له : إنه قد وصل صحبةَ خادم السلطان فلانٌ شابٌّ قمىٌّ قد جرَى من تَنَبُّهِه كيت وكيت ومثلُ هذا يجب أن يُصْطَنع ويُحسَن إليه ويُستخدَم ، فكتب الخليفة إليه يأمره بألاّ يمكِّنه من التوجه معهم ، فعمِل له حُجَّة وقطِع عنهم ، فتوجهوا وأقام القمىّ ببغداد ، فعُيِّن عليه فى كتابة الانشاء فمكث على ذلك مدة ، ثم تولّى الوزارة وتمكّن فى الدولة تمكُّناً لم يتمكن مثله أحد من أمثاله ، وكان أوحدَ زمانه فى كل شىء حسَنٍ ، كثيرَ البر والخير والصدقات .

حدّث عنهُ مملوكه بدرُ الدّين آياز قال : طلَب ليلة من الليالى حلاوةَ النبات فعُمِل فى الحال منها صحون كثيرة وأحضرت بين يديه فى ذلك الليل ، فقال لى :

يا آياز ، تقدِر تدَّخِر هذه الحلاوة لى موفَّرة إلى يوم القيامة ؟ فقلت : يامولانا ، وكيف يكون ذلك ؟ وهل يمكن هذا ؟ قال : نعم ، تمضى فى هذه الساعة إلى مشهد موسى والجواد (عليهما السلام) وتضع هذه الأصحن قُدَّام أيتام العلَويين ، فانها تدَّخر لى موفرة إلى يوم القيامة ، قال آياز : فقلت السمع والطاعة ، ومضيت (وكان نصفَ الليل) إلى المشهد ، وفتحت الأبواب ، وأنبهت الصبيان الأيتام ، ووضعت الأصحن بين يديهم ، ورجَعت .

وما زال القمىّ على سَدَادٍ من أمره ، تولى الوزارة للناصر ، ثم للظاهر ، ثم للمستنصر حتى قبَض عليه المستنصر وحبَسه فى باطن دار الخلافة مدة ، فمرض وأُخْرِج مريضاً فمات (رحمهُ الله) فى سنة تسع وعشرين وستمائة

انقضت أيام الناصر لدين الله ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ولدُه أبو نصر محمدٌ الظاهر بأمر الله بنُ الناصر لدين الله ﴾

بويع فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

لم تطل أيامه ، ولم يجر فيها ما يُسطّر سوى احتراق القبة الشريفة بمشهد موسى والجواد (عليهما السلام)، فشرع الظاهر فى عِمارتها ، فمات ولم تفرَغ ، فتممها المستنصر

وأيضاً فان الظاهر هو الذى عمل هـذا الجسر الجديد الموجود الآن ببغداد ، ولما فرَغ عمِل الشعراء فيه المدائح ووصفوا الجسر فيها ، فمن نظم فى ذلك شعراً موفق الدين القاسم بن أبى الحديد كاتب الانشاء ، وهو قوله . (متقارب)

إمامٌ يحـــرّمُ ذلّ السؤال ويعمَلُ بالـكرَمِ الواجبِ
أقامَ طريقاً على دِجــلةٍ لذِى القصْدِ منهُ والذاهب
فعارَضَ جسراً على جانبٍ بجسر جديدٍ على جانب

كسَطْرَيْنِ فى كاغَدٍ أبيضٍ أجادَهُمَا قلمُ الكاتبِ
كمخْنقَتَيْ عنبرٍ ضَمَّتَا بياضَ الترائبِ من كاعِبِ
كصَفَّيْنِ من إِبلٍ أَصبحا وُقُوفاً على حَدَدٍ لاحِبِ

ومات الظاهر فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

أقر القمىّ على وزارته ولم يستوزر غيره .

﴿ ثم ملك بعده ولدُه أبو جعفر المنصورُ المستنصرُ بالله ﴾

بويع بالخلافة فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة

كان المستنصر شهماً جواداً يبارِى الريحَ كرماً وجوداً ، وكانت هباته وعطاياه أشهرَ من أن يُدَلَّ عليها وأعظمَ من أن تُحْصَى ، ولو قيل إنه لم يكن فى خلفاء بنى العباس مثلُه لصدَق القائل ، وله الآثار الجليلة : منها وهى أعظمها المستنصرية ، وهى أعظم من أن توصف ، وشهرتها تغنى عن وصفها ، ومنها خان حَرْبى وقنطرتها ، وخان نهر سابس بأعمال واسط ، وخان الخرنيني ، وغير ذلك من المساجد والرُبُط ودور الضيافات ، وكان المستنصر يقول : إنى أخاف أن الله لا يُثيبنى على ما أَهَبُه وأعطيه لأن الله (تعالى) يقول : « لَنْ تنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وأنا والله لا فرق عندى بين التراب والذهب .

كانت أيامه طيبة ، والدنيا فى زمانه ساكنة ، والخيرات دارّة والأعمال عامرة ، وفى أيامهِ فتحت إرْبل ، أرسل المستنصر إليها إقبالاً الشرابىَّ وصحبته عارض الجيوش ، وذلك عند وفاة صاحبها مظفر الدين بن زين الدين علىّ كوجك . ومات المستنصر فى سنة أربعين وستمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقر القمىَّ وزيرَ أبيهِ وجدِّه على وزارته سنوات ، ثم قبَض عليه وجرى له ما تقدم شرحه .

﴿ وزارة نصيرِ الدين أبى الأزهر أحمدَ بن محمدِ بنِ الناقد ﴾

ثم استوزر المستنصرُ بعد القمىّ أبا الأزهر أحمدَ بنَ الناقد ، كان فى ابتداء أمره وكيلاً للمستنصر ، فمكث مدة فى الوكالة ثم انتقل منها إلى أستاذية الدار ، ثم منها إلى الوزارة ؛ فنهض بأعبائها نهوضاً حسناً ، وقام بضبط المملكة قياماً مرضياً ، وكان عظيم الأمانة قوى السياسة شديد الهيْبة على المتصرفين حاسماً لمواد الأطماع والفساد ، قيل : إنه هُجِى ببيتين فلما سمعهما استحسنهما وهما :

(بسيط)

وزيرُنا زاهِدٌ والناسُ قد زهِدُوا ... فيهِ فكلٌّ عن اللذاتِ منكمِش
أيامهُ مثلُ شهرِ الصومِ خاليةٌ ... من المعاصِى وفيها الجوعُ والعَطَش

وما زالت السعادة تخدمه إلى آخر عمره ، فمن جملة سعادته وهو من الاتفاقات العجيبة ما حُدّث عنه ، وهو أنه قبل الوزارة عمِل فى بعض الأعياد سُنْبوسَجاً كثيراً ، وأحَبَّ أن يداعِب بعضَ أصحابه ، فأمر أن يُحْشَى سبعون سنبوسجة بحبِّ قطن ونخالة وتجْعَلَ مفردَة ، وعمل سنبوسجاً كثيراً لجارى العادة وركب إلى دار الخليفة ، فطُلِب منه عمل شىء من السنبوسج ، فذكر أن عنده شيئاً مفروغاً منه ، وأمر خادماً له بإحضار ما عنده من السنبوسج ، فمضى الخادم عن غير معرفة بذلك المحشو بحب القطن ومزج الجميع ووضعه فى الأطباق ليحمله إلى دار الخليفة ، فجاء الجوارى والخدم وقالوا : أعطونا حِصَّتَنا من هذا ، فأخذوا منه مائة سنبوسجة ،

وحمل الخادم الأطباق بما فيها إلى دار الخليفة ، فلما حُمِل السنبوسج وصار بدار الخليفة ورجع ابن الناقد إلى داره سأل عن السنبوسج المحشو بحب القطن ، فقالوا له : ما عرفنا بشىء من ذلك ، وفلانٌ الخادم جاء ومزَج الجميع وأخذه ومضَى ، فلم يَشُكَّ أنه هالك ، وكادت تسقُط قوّتُه خوفاً وخجَلا ، فقال : أما تخلَّفَ منه شىء قط ؟ قالوا : قد اقتطَع الجوارى والخدم منه حدودَ مائة سنبوسجة ، فقال : أحضروها ، فأحضرت وفتحت بين يديه ، فوُجِد السبعون سنبوسجةً المحشوةُ بحب القطن قد حصَلت بأيدى الجوارى والخدم فى جملة ما أخذوه لأنفسهم لم تشذ منها واحدة إلى دار الخليفة ، ومات نصِير الدين فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة فى خلافة المستعصِم . انقضت أيام المستنصر ووزرائه .

﴿ ثم ملك بعده ولده أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله ﴾

بويع له بالخلافة فى سنة أربعين وستمائة ، هو آخر الخلفاء .

كان المستعصم رجلا خيّرًا متديناً ليّن الجانب سهلَ العريكة عفيفَ اللسان ، حمَل كتاب الله (تعالى) وكتب خطا مليحاً ، وكان سَهْل الأخلاق ، وكان خفيف الوطأة إلاّ أنه كان مُسْتَضْعَفَ الرأى ضعيف البطش قليل الخِبْرة بأمور المملكة مطموعاً فيه ، غيرَ مهيب فى النفوس ولا مطَّلِع على حقائق الأمور ، وكان زمانهُ ينقضى أكثرُه بسماع الأغانى والتفرج على المَساخِرة ، وفى بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسًا ليس فيه كبيرُ فائدة ، وكان أصحابه مستوْلين عليه ، وكلهم جُهَّال من أراذل العوام إلاّ وزيرَه مؤيّد الدّين محمدَ بنَ العلقمىّ فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال ، وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء .

وكانت عادة الخلفاء أكثرِهم أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم ، وبذلك جرت

سنتهم إلى آخر أيام المستنصر ، فلما ولى المستعصم أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم ، وهم الأمير الكبير أبو العباس أحمد ، والعامة تسميه أبا بكر ، وليس بصحيح ، وإنما سمّوه بذلك لأنه لما نُهبَ الكرخُ نُسِبَ الأمرُ فى ذلك اليه وقيل إنه هو الذى أشار بذلك ؛ والأمير الأوسط ، وهو أبو الفضائل عبدُ الرحمن ، كان شهماً ، خرَج إلى بين يدى السلطان هولاكو ، ووَقع كلامه بموضعِ الاستحسان فى الحضرة السلطانية ؛ والأمير الأصغر أبو المناقب .

حدثنى صفىُّ الدّين عبدُ المؤمن بنُ فاخرٍ الأرمَوىّ (وكان قد صار فى آخر أيام المستعصم مقرَّباً عنده ومن خواصه ، وكان قد استجدَّ فى آخر أيامه خزانة كتب ، ونقَل إليها من نفائس الكتب وسلّم مفاتيحها إلى عبد المؤمن ، فصار عبدُ المؤمن يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد ، واذا خطَر للخليفة الجلوس فى خِزانة الكتب جاء إليها وعدل عن الخزانة الأولى التى كانت مُسلّمة إلى الشيخ صدْر الدين علىّ بن النيَّار) قال (أعنى عبدَ المؤمن) : كنت مرة جالساً فى حجرة صغيرة وأنا أنسخ وهناك مرتبة برسم الخليفة ، إذا جاء إلى هناك جلَس عليها ، وقد بُسِطت عليها مِلْحفة لتَرُدَّ عنها الغبار ، فجاء خويدم صغير ونام قريباً من المرتبة المذكورة واستغرق فى النوم ، فتقلب حتى تلففَ فى تلك المِلحفة المبسوطة على المرتبة ، ثم تقلّب حتى صارت رجلاه على المسند ، قال : وأنا مشغول بالنّسخ ، فأحسست بوطء فى الدهليز ، فنظرت فاذا هو الخليفة وهو يستدعينى بالاشارة ويخفف وطأه ، فقمت إليه منزعجاً وقبلت الأرض ، فقال لى : هذا الخويدم الذى قد نام حتى تلفف فى هذه الملحفة وصارت رجلاه على المسند ، متى هجمتُ عليه حتى يستيقط ويعلم أنى قد شاهدته على هذه الحال تنفطر مرارته من الخوف ، فأيقظْهُ أنت برفق ، فانى سأخرج إلى البستان ثم أعود ، قال : وخرج الخليفة

فدخلتُ إلى الخويدم وأيقظته فانتبه ثم أصلحنا المرتبة ثم دخل الخليفة .

وحدثني بعض أهل بغداد قال : حُدِّثت أن الشيخَ صدْرَ الدّين بنَ النيار شيخَ الخليفة قال : دخلت مرة إلى خزانة الكتب على عادتى وفى كُمى مِنديل فيه رِقاع كثيرة لجماعة من أرباب الحوائج ، فطَرحت المنديل وفيه الرقاع فى موضعى ، ثم قمت لبعض شأنى ، فلما عدت إلى الخزانة بعد ساعة حَللْت الرقاع من المنديل حتى أتأملَها وأقدِّم منها المهم ، فرأيتها جميعَها وعليها توقيع الخليفة بالإجابة إلى جميع ما فيها ، فعلمت أن الخليفة قد جاء إلى الخزانة عند قيامى فرأى المنديل وفيه الرقاع ففتحها ووقع على جميعها ؛ والمستعصم هو آخر خلفاء الدولة العباسية ببغداد ، ولم يجر فى أيام المستعصم شىء يُؤْثَر سوى نَهْب الكَرْخ ، وبئس الأثر ذلك !

وفى آخر أيامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبةَ السلطان هولاكو ، فلم يُحَرِّك ذلك منه عزماً ، ولا نبّه منه همة ، ولا أحدث عنده همًّا ، وكان كلما سُمِع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شىء ظهر من الخليفة نقيضُه من التفريط والإهمال ، ولم يكن يتصور حقيقة الحال فى ذلك ولا يعرف هذه الدولة (يسّر الله إحسانها وأَعلى شأنها) حقَّ المعرفة ، وكان وزيره مؤيد الدين ابن العلقمى يعرِف حقيقة الحال فى ذلك ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ويشير عليهِ بالتيقظ والاحتياط والاستعداد وهو لا يزداد إلا غفولا ، وكان خواصه يوهمونهُ أنه ليس فى هذا كبيرُ خَطر ولا هناك محذور ، وأن الوزير إنما يعظِّم هذا لتَنْفُق سوقُه ولتبرُز إليهِ الأموال ليجنِّد بها العساكر فيقتطعَ منها لنفسه .

وما زالت غَفلة الخليفة تَنْمى ويقظة الجانب الآخر تتضاعف حتى وصل العسكر السلطانى إلى همذان وأقام بها مديدة ، ثم تواترت الرُّسُل السلطانية إلى الديوان المستعصمى ، فوقَع التعيين من ديوان الخليفة على وَلد أستاذ الدار وهو شرف

الدين عبدُ الله بنُ الجوْزى ، فبُعث رسولاً إلى خدمة الدركاه السلطانية بهمذان ، فلما وصَل وسُمِع جوابه عُلِم أنهُ جواب مغالطة ومدافعة ، فحينئذ وقع الشروع فى قصْد بغداد وبثِّ العساكر إليها ، فتوجَّه عسكرٌ كثيف من المغول ، والمقدَّم عليهم بَاجُو إلى تكريتَ ليعبُروا من هناك إلى الجانب الغربى ويقصدوا بغداد من غربيِّها ، ويقصدَها العسكر السلطانى من شرقيِّها ، فلما عبَر عسكر باجو من تكريت ، وانحدر إلى أعمال بغداد أجْفَل الناس من دُجيل والإسحاقىِّ ونهر ملك ونهر عيسى ، ودخلوا إلى المدينة بنسائهم وأولادهم حتى كان الرجل أو المرأة يقذِف بنفسهِ فى الماء ، وكان الملاح إذا عبَّر أحداً فى سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سوارًا من ذهب أو طرازًا من زركش أو عِدة من الدنانير ، فلما وصل العسكر السلطانى إلى دجيل وهو يزيد على ثلاثين ألفَ فارس خرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدويدار ، وكان عسكرًا فى غاية القلة ، فالتقَوْا بالجانب الغربى من بغداد قريباً من البلد ، فكانت الغلبة فى أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكَرَّة للعسكر السلطانى فأبادوهم قتلاً وأسرًا ، وأعانَهم على ذلك نهرٌ فتحوه فى طول الليل ، فكثُرت الوحول فى طريق المنهزمين فلم ينْج منهم إلا من رمَى نفسهُ فى الماء أو من دخل البرِّية ومضى على وجهه إلى الشأم ، ونجا الدويدار فى جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد ، وساق باجو حتى دخل البلد من جانبهِ الغربى ، ووقف بعساكره محاذىَ التاج ، وجاسَتْ عساكره خلال الديار ، وأقام محاذىَ التاج أياماً .

وأما حال العسكر السلطانى فإنهُ فى يوم الخميس رابع محرم من سنة ست وخمسين وستمائة ثارت غبَرَة عظيمة شرقىَّ بغداد على درب بعقوبا بحيثُ عمَّت البلد ، فانزعج الناس من ذلك وصعِدوا إلى أعالى السطوح والمناير يتشوَّفون ، فانكشفت

الغَبَرَة عن عساكر السلطان وخيوله ولفيفه وكُراعه وقد طبَّق وجْهَ الأرض وأحاط ببغدادَ من جميع جهاتها ، ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار ، وشرَع العسكر الخليفى فى المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من محرم ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرةً على سور بغداد من برج يسمى برجَ العجمى من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له باب كلواذى .

وكان هذا البرج أقصر أبراج السور ، وتقحَّم العسكر السلطانى هجوماً ودخولاً ، فجرى من القَتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظُم سَماعه جملة ، فما الظن بتفاصيله :

وكانَ ما كان مما لَسْتُ أذكرُهُ   فظُنَّ ظناً ولا تَسْأَلْ عن الخبرِ

وأمَرَ السلطانُ بخروج الخليفة وولدِه ونسائه إليه فخرجوا ، فحضر الخليفة بين يدى الدركاه ، فيقال إنهُ عوتب ووبخ بمامعناه نسبةُ العجز والتفريط والغفول إليه ، ثم أوصِل إلى الياسا وولداه الأكبر والأوسط ، وأما بناته فأُسِرْن ، ثم استشهد المستعصم فى رابع صفر سنة ست وخمسين وستمائة .

﴿ شرح حال الوزارة فى أيامه ﴾

لما بويع بالخلافة أقرَّ وزيرَ أبيه وهو نصيرُ الدين بنُ الناقد على وزارته إلى أن توفى ، فلما توفى استوزر مؤيدَ الدين محمدَ بنَ العلقمى

﴿ وزارة مؤيد الدين أبى طالب محمدِ بنِ أحمدَ بنِ العلقمى ﴾

هو أسَدِىّ ، أصلهم من النِيل . وقيل لجده العلقمى لأنه حفر النهر المسمى بالعلقمى ، وهو الذى برَز الأمرُ الشريف السلطانى بحَفْره ، وسمِّىَ القازانى ، اشتغل فى صباه بالأدب ففاق فيه ، وكتب خطاً مليحاً ، وترسّل ترسّلاً فصيحاً ، وضبط

ضبطاً صحيحاً ، وكان رجلاً فاضلاً كاملاً لبيباً كريماً وقوراً محباً للرياسة كثير التجمل رئيساً متمسكا بقوانين الرياسة خبيراً بأدوات السياسة لبيق الاعطاف بآلات الوزارة، وكان يحب أهل الأدب ويقرّب أهل العلم، اقتنى كتباً كثيرة نفيسة،

حدّثني ولده شرف الدين أبو القاسم علىّ (رحمه الله) قال : اشتَمَلَتْ خِزانة والدى على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب ، وصنف الناسُ له الكتب ، فمن صنَّف لهُ الصغانى اللغوى ، صنف له العُباب ، وهو كتاب عظيم كبير فى لغة العرب ، وصنف له عز الدين عبدُ الحميد بنُ أبى الحديد كتابَ شرحِ نهج البلاغة يشتمل على عشرين مجلداً فأثابهما وأحسن جائزتهما ، وكان ممدَّحاً ، مدحه الشعراء، وانتجعه الفضلاء ، فمن مدحهُ كمال الدين بنُ البُوقىّ بقصيدة من جملتها :

(سريع)

مؤيد الدِّينِ أبو طالبٍ   محمدُ بنُ العلقمىِّ الوزيرْ

وهذا بيت حسَن جمع فيه بين لقبهِ وكنيته واسمه واسم أبيهِ وصنعته

وكان مؤيدُ الدين الوزيرُ عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً،

قيل إن بدر الدين صاحبَ الموصل أهدى إليه هدية تشتمل على كتب وثياب ولطائفَ قيمتُها عشرةُ آلاف دينار ، فلما وصلت إلى الوزير حملها إلى خِدمة الخليفة ، وقال أن صاحب الموصل قد أهدى لى هذا واستحييت منهُ أن أرده إليه ، وقد حملتهُ وأنا أسأل قبولهُ فقُبل ، ثم أنهُ أهدى إلى بدر الدين عِوَض هديتِه شيئاً من لطائِف بغدادَ قيمتهُ اثنا عشرَ ألفَ دينار ، والتمس منهُ ألا يُهْدِىَ إليه شيئاً بعد ذلك .

وكان خواصُّ الخليفة جميعُهم يكرهونه ويحسُدونه ، وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبهُ ، وكثروا عليهِ عنده ، فكف يدَه عن أكثر الأمور ، ونسبهُ الناس إلى

أنه خامَر ، وليس ذلك بصحيح ، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرتهِ سلامتُه فى هذه الدولة ، فان السلطان هلاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلّم البلدَ إلى الوزير، وأحسن إليهِ وحكّمه ، فلو كان قد خامَر على الخليفة لما وقع الوثوقُ إليه .

حدثنى كمال الدين أحمد بن الضحاك وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين ابن العلقمى قال : لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلب أن يخرج الوزير إليه ، قال : فبعث الخليفة فطلب الوزيرَ فحضر عنده وأنا معه ، فقال له الخليفة قد أنفذ السلطان يطلبُك وينبغى أن تخرج إليه ، فخرج الوزير من ذلك ، وقال : يا مولانا ، إذا خرجت فمن يدبّر البلد، ومن يتولى المهام ؟ فقال له الخليفة : لا بد أن تخرج ، قال : فقال : السمعُ والطاعة ، ثم مضى إلى داره وتهيأ للخروج ثم خرج ، فلما حضَر بين يدى السلطان وسمِع كلامه وقَع بموقع الاستحسان ، وكان الذى تولى تربيته فى الحضرة السلطانية الوزيرُ السعيد نصيرُ الدين محمدُ الطوسى (قدس الله روحه) . فلما فتحت بغداد سلمت إليه وإلى علىّ بهادُر الشِحنة فمكث الوزير شهوراً ، ثم مرض ومات (رحمه الله) فى جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة .

انقضت دولة بنى العباس ووزرائهم ، وبذلك انقضى الكتاب ، والحمدُ لله وحدَه ، وصلواتُه على سيدنا محمد النبى وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه .

فرغ من تأليفه واستنساخه مؤلفُه فى مدةٍ أولها جمادى الآخرةُ من سنة إحدى وسبعمائة ، وآخرُها خامسُ شوال من السنة المذكورة بالموصِل الحدْباء ، وهذا خط يدِه (تجاوز الله عنه) .

١٩٣٨/٧/٢٥٠٠/٢